د. نبيل راغب

نزوة نوبية

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

نزوة نوبيـة



(١)

بلاد النوبة . بلاد الأساطير والأحلام والخرافات وعبق التاريخ الضارب فى بطن الغيب . بلاد البراءة الأولى والقلوب النابضة بالوداعة والحب والوفاء والنقاء . مهد الطفولة والبكارة ونزوات الشباب الحارقة مثل التلال الصخرية الراقدة هناك فى وهج الشمس تتلألأ بلونها الأعفر ، وحنان الوجوه السمراء التى تنافس مياه النهر الخالد سمرتها الهادئة ، ووميض الشريط الأخضر الرفيع بين أحضان الصخور . التى تحاول الانفراد به بعيدا عن ضفاف النهر الوديع . والقرى التى تبدو كتلا بيضاء تتخلل كلا منها مئذنة مسجد ناصعة البياض ، والبيوت المتناثرة بين الصخور ، والوجوه السمراء المبتسمة والأجساد النحيلة ، والجلابيب والعمم البيضاء .

وعلى الضفة الأخرى للنهر الجليل تبدو التلال أقل انحدارا عن الأخرى برغم أنها لا تقل عنها جفافا وجدبا . لكن عين الخيال وحدها هى التى يمكنها أن تتبع منحنى الكوكب الأرضى لمسافة ثلاثة آلاف ميل غربا حيث تتكسر أمواج المحيط الأطلنطى الهادرة . هذه الصحراء الشاسعة من القحط والجدب هى الرعب بعينه ، أما صحراء النوبة فتعتبر ركنا مريحا بالنسبة لهذه الصحراء . فالحياة تنتهى تماما بين نهر النيل والعوينات على مدى خمسمائة ميل ، حيث القمة التى ترتفع وحيدة فوق سطح الصحراء إلى ارتفاع ستة آلاف قدم ، لتخترق السحاب المخيم فوقها .

بلاد النوبة . بلاد التحدى والصمود فى وجه الجدب والقحط . بلاد الإرادة التى تحاكى فى صلابتها صخورها التى شهدت مولد الزمان . بلاد

الحقول التى تمتد إلى ستة كيلومترات قبل أن تطأ الأقدام مناطق الجدب . بلاد الهجرة إلى الشمال حيث يبحث الشباب عن عمل فى المدن المصرية تاركين عائلاتهم فى قراهم . أرض العجائز الذين طحنتهم الأيام فى الشمال فعادوا إلى أحضانها فى انتظار الأبدية . جلاميد الجرانيت اللامعة التى تتلألأ كأنها فيلة تستحم فى أغوار النهر العتيق ، والنقوش المدونة على الصخور والتى سجل بها ملوك الفراعنة ونوابهم الطريق الذى سلكته جيوشهم وسفنهم التجارية . كانت أول سجلات فى سفر التاريخ تصدت للفح الشمس والرمال التى تذروها الرياح خمسين قرنا من الزمان قبل أن تغرقها المياه .

بلاد النوبة . آخر ركن فى العالم لا يحاول فيه الناس أن يبيعوا لبعضهم البعض أشياء ليسوا فى حاجة إليها . ركن لا ينفق فيه الناس أيام عمرهم يغرى كل واحد منهم الآخر بأن له احتياجات لابد أن يرضيها . ركن يصحو البشر فيه مع الخيوط الأولى للفجر ليستقبلوا بالأحضان نسمات البراءة والنقاء .

بلاد الرياح العاتية التى تزأر أياما طوالا خلال كل شق وتعبث بكل ركن . بلاد الشتاء الناعس وهدير الأمواج عند غضب النهر وهى تتكسر على الشاطئ الصخرى . بلاد النجوم الصافية كبلورات الصقيع فى قبة السماء التى تزخر بها . بلاد القمر البازغ من خلف الشاطئ الصحراوى مثل كرة برتقالية اللون ، يغمر بنوره واجهات البيوت الطلية وكأنها مناظر على مسرح كونى عظيم .

بلاد تمتزج فيها الأسطورة بالحقيقة ، والخيال بالواقع فلا تبدو حدود هذا من ذاك ، ويتوغل الماضى فى الحاضر ويسرى فى شرايين المستقبل وكأن الزمان قد عثر فيها على هويته فربض بين تلالها وصخورها . بلاد الطقوس الغامضة والأسرار المثيرة ، العواصف الهادرة والنسمات العليلة . بلاد جاسر وفاطمة والطوفان الآتى !

(٢)

فاطمة أسطورة كلابشة وحلم شبابها ! هى حلم بالفعل لأن كثيرين لا يعرفون إذا كانت موجودة أم أنها أسطورة تسرى بأصدائها الجميلة فى بيوت القرية دون أن يرى جمالها أحد أو يلمح طيفها محظوظ ؟! لا أحد يريد أن يدس أنفه فى شئون غيره وإن كانت سياط الشوق لمعرفة الحقيقة تلسع ظهور الجميع بنار لا تهدأ ! الحقيقة القابعة فى بيت إدريس النجار القابع على الربوة الصخرية المطلة على النيل والنائية عن تجمعات البيوت البيضاء الممتدة بطول الضفة المتعرجة بالنتوءات والأغوار . كانت واجهة البيت مطلية بالجير ومزخرفة على هيئة الأسقلوب التى تتشكل من صدف مروحى الشكل داخل هامش من أقواس متداخلة ذات ثقوب ، وتحمل المجموعة النوبية التقليدية من الآنية الخزفية ، ومع ذلك توحى بالمهابة والروعة والتاريخ الموغل فى القدم .

ظل البيت محط الأسرار والأنظار لكن لم يحاول أحد أن ينتهك إرادة صاحبه فى أن يظل على غموضه وتقوقعه . كان إدريس يعمل نجارا و لم يتعود أن يزور أحداً ولا أن يستقبل زائراً . ساعده على ذلك طبيعة عمله المتأنية التى لا تحتاج إلى طلبات طارئة أو عاجلة . وفى المسجد بعد صلاة العشاء كان يلتقى بزبائنه ليعقد معهم الاتفاقات . ولم يحاول أحدهم أن يسأله عن السر فى تجنبه عقد الاتفاقات فى الشرفة الجميلة التى تقع أمام بيته ، والتى تشع بالنظافة داخل جدارها المنخفض المطلى بالجير . فقد كان لطفه وبشاشته وسماحته وعذوبته من الأسباب التى تقيد الأسئلة من الانطلاق من أفواه أصحابها .

كانت حياته هادئة رتيبة . فى الفجر يستيقظ مع خيوط النور الفضية ليتوضأ

ويصلى ثم يسرع الخطى إلى البيت الذى سيصنع له الأثاث المطلوب . لم يكن يحمل هم الطعام والشراب والشاى الذى يقدمه إليه أهل البيت عندما يتوقف عن العمل مع بلوغ الظهيرة أوجها وتدفق العرق من جبينه . ومع بوادر رطوبة العصر يستأنف العمل حتى المساء فيعود أدراجه إلى بيته قرير العين برزق الله . لكن إذا كان بيت الزبون فى قرية نائية والطريق إليها فى ظلام الليل مرتعا للذئاب أو مارا بين خرائب يأوى إليها الجن والعفاريت ، فكان إدريس يبيت أياما إلى أن ينجز مهمته على خير وجه ثم يعود إلى بيته .

وكانت زوجة النجار نوعا مختلفا عن زوجات الحرفيين والفلاحين والصناع الآخرين ، إذ كانت مسئوليتها أثقل وأضخم . فعلى كتفيها يقع العبء الأكبر فى تربية الأبناء ورعاية الأسرة ، ولابد أن تملك قدرة فائقة على اتخاذ القرار فى غيبة زوجها ، وعلى الحكمة فى التصرف والاستقلال فى الفكر والصبر على المكاره .

لم تعلم طبيعة النوبة القاسية الصارمة أهلها الثورة والتمرد والرفض ، بل تقبلوها بفلسفة وديعة تتخذ من الصبر سلاحا ، والصمود دستورا ، والصلابة طريقا . ظل إدريس وزوجته بلا أطفال عشر سنوات ومع ذلك لم يفقدا الابتسامة العذبة التى طالعا بها كل الأهل والجيران والصحاب . كان إيمانهما بالله عميقا عمق النهر الذى يتهادى عند سفح الربوة التى يرتفع عليها بيتهما .

فى السنة العاشرة حملت زوجته لتنجب ابنة آية فى الجمال ، كأنها صورة من تلك الصور التى أبدعتها يد الفنان المصرى القديم . امتزجت الفرحة العارمة داخل إدريس بالخوف عليها من شر الحسد فلم يملك سوى أن يخفيها عن الأنظار إذ كان إحساسه بالمسئولية تجاهها أثقل من أن يحتمل . لم يعلن خبر مولدها وكانت زوجته قد أخفت من قبل خبر حملها واعتكفت بالبيت لتدارى انتفاخ بطنها حتى وضعت .

وإمعانا فى التخفى قام إدريس برشوة كاتب السجل المدنى عند استخراج

شهادة ميلادها حتى لا يبوح بالسر لأحد . و لم يكتم الموظف دهشته لأول موقف من نوعه يواجهه ، ومع ذلك وعد الأب بكتمان السر وسط سعادته الغامرة بالمقعدين الجميلين اللذين حصل عليهما بلا مقابل !

كان إدريس سعيدا ببيته القابع على الربوة الصخرية النائية عن سلسلة البيوت المتناثرة على الشاطئ . فقد كان حبه للعزلة ، وانغلاقه على نفسه ، وحياته الهادئة الرتيبة من العوامل التى ساعدته على إخفاء فاطمة عن العيون . وكانت قمة بهجته فى مداعبة فاطمة واللعب معها بعد عودته من عمل يوم شاق . كانت ضحكتها البريئة وأصابعها الرقيقة على خديه كفيلة بمسح علامات التعب السارى فى عضلاته . وكانت زوجته حريصة على متابعة المشهد الممتع وهى تعد طعام العشاء على الموقد المشتعل تحت إناء الشعرية المتألقة بالسمن واللبن .

نمت فاطمة و لم يعد الأمر سرا كما تمنى إدريس . فبيوت القرية تحت رقابة جماعية ، وكل إنسان يعرف كل شيء عن الآخر ، ومع ذلك احترم الجميع إصرار النجار على إخفاء ابنته و لم يفاتحه أحد فى أمرها ، وإن كانت العيون تفصح عما يكمن فى القلوب دون فتح الشفاه . فقد كانت هيبة إدريس الممتزجة بالسماحة كفيلة بإحاطته بسياج ضد كل أنواع الثرثرة . لكن الألسنة فى غيبته كانت تنطلق من عقالها ، واضطرت الراوية التى يتجمع سكان الحى فى منزلها بعد غروب الشمس إلى التخلى عن الأساطير التى تحفظها عن ظهر قلب ، ونسج أساطيرها الخاصة حول أسطورة كلابشة الجميلة الغامضة فاطمة ابنة إدريس النجار . بل إن حماسها ذات غروب أوشك بها على أن تبدأ الحكاية وخيوط الشمس الغاربة لا تزال متشبثة بأرض كلابشة ، وهى تؤمن بأنه لابد أن تصاب بالعمى إذا شرعت فى الرواية قبل الغروب الكامل . و لم يكن المستمعون يسأمون حديث فاطمة برغم تعب الراوية وتوغل الليل ، ولكنهم كانوا يغادرون البيت مضطرين .
كان الرجال يخرجون بالمصابيح لتوصيل الجيران إلى بيوتهم لأن الطريق بعد حكاية

الراوية يحتشد فجأة بالأشباح والجن والعفاريت ، لكن بعد حكاية فاطمة لم يعبأ أحد بالمصابيح والفوانيس إذ خلبت أسطورة فاطمة لبهم بجمالها الغامض وأضاءت وجدانهم فنسوا مخاوفهم المظلمة .

لم يبخل إدريس وزوجته على ابنتهما بأى شيء ثمين تتمناه حتى لا تضيق بجدران السجن الاختيارى الذى تقبلته برضى وطاعة ووداعة ، برغم بوادر براكين الأنوثة المتفجرة داخلها . كان جمالها قد اكتمل وأصبح بهجة للناظرين ، وهو ما ضاعف من قلق أبيها عليها . كانت تتحرك فى البيت كتمثال جميل نحته مثال مصرى قديم . لم يخف على أبويها مسحة الحزن الدفين والتى تومض من حين لآخر فى أغوار عينيها السوداوين الواسعتين العميقتين . لكنهما نجحا — من حين لآخر — فى إزالة هذه المسحة الحزينة عندما كانت عيناها تقعان على هدية جديدة أحضراها لها .

لا ينسى إدريس ومضات السعادة فى عينى فاطمة عندما أحضر لها عُقد الشاوشاو الفضى لتزين به صدرها الناهد الذى تكور تحت ردائها الأبيض اللامع ليعلن عن قمتين لبركانين على وشك الانفجار . اختار لها أبوها صائغا فى قرية مجاورة اشتهر بالصمت وعدم التدخل فيما لا يعنيه حتى يصنع لها العقد الجميل ويكتب عليه اسم فاطمة . وفى صمت انكب الصائغ العجوز المحنك على صناعة الشاوشاو دون أن يسأل أو يستطلع عن أحوال النجار فى بيته برغم الشائعات التى بلغت مسامعه عبر العجائز والفتيات والشعراء ، خاصة ابن عمها جاسر الشاعر والمنشد وضارب الدف الذى لخص أسطورة فاطمة فى كلمات أصبحت على كل لسان :

هـــــل رأيتها ؟! لا !
هــل سأراهـــا ؟! لا !
لكننى أبكــى فى حيــاتى
وأذبـــل حتـــى مماتى !

كانت الشائعات والأقاويل تصل إلى مسامع فاطمة من خلال أحاديث أبيها وأمها على مائدة العشاء بهدف تسليحها بالوعى إذا ما حاول أحدهم التجسس عليها أو اكتشاف وجودها بطريقة أو بأخرى . لكن أحاديث الأب والأم أتت بنتيجة عكسية . لم يسر الخوف فى قلب فاطمة من ذلك العالم الخارجى الغامض المثير الذى يتكلم عنها وكأن القرية قد خلت من كل الفتيات إلاها ، وهى التى ليست لها وجود كبقية الفتيات اللاتى يتبخترن على شاطئ النيل تحت وهج الشمس ! هفت بروحها إلى ذلك العالم ، وأحيانا كانت تحاول أن تتسمع أقوال السائرين عند سفح الربوة خلف خصاص النافذة ، وكثيرا ما اجتاحتها أمواج الإثارة عندما تتقافز إلى مسامعها كلمات مثل : فاطمة الجميلة .. سنراها يوماً ما !! إذ يبدو أن الصائغ الذى صنع الشاشاو لم يستطع أن يكبح جماح لسانه ففلت باسمها فى غفلة منه !

لم تخلف فاطمة وعدها لأبويها بالاختفاء بعيدا عن العيون وإن كانا قد سمحا لها أخيراً بالتريض حول البيت قبل بزوغ أول شعاع للفجر ، وتنسم هواء النيل قبل أن تسعى الأقدام على الشاطئ . كم سعدت فاطمة بهذه اللحظات التى لم تكن تتمنى أن تنتهى ، لكن عيون الفجر المتلصصة كانت تجبرها على دخول حصنها قبل أن يفتضح أمرها . لم يركبها الغرور لجمالها الدافئ وسحرها الأسمر اللذين يتكلم عنهما الجميع ويحلمون ! كانت متواضعة ، مطيعة ، ماهرة فى أعمال البيت ، خاصة الطهى الذى تفوقت فيه على أمها نفسها ، مما أعطى لأمها الفرصة لزيارة الأقارب والأهل والقيام بالعمل فى مزرعتها الصغيرة التى تمتد ما بين البيت والشاطئ .

كذلك كانت فاطمة ذكية ، لماحة ، راجحة العقل ، تشارك أباها فى حل مشكلاته . ولذلك لم يخف عليها عند خروجها كل فجر والناس نيام إلى الشاطئ لاستقبال النسمات الندية العطرة وعودتها قبل أن يلمحها أحد . كان يتعجب

لتلك الحكمة المبكرة التى اكتسبتها ابنته برغم انعزالها عن العالم ! وكان يبرر ذلك لنفسه بقوله من حين لآخر : لله فى خلقه شئون .

أما عن زواج فاطمة فلم يحمل أبوها أو أمها همه إذ كانا مؤمنين بأن نصيبها لابد أن يصيبها حتى لو وضعاها فى قمقم . لكن الأنثى النامية داخل فاطمة أشاعت القلق المثير والتوتر اللذيذ داخلها فلم تدر ماذا تفعل بجسدها الذى لا تزال قادرة على الإمساك بلجامه ، خاصة كلما زارها طيف جاسر ابن عمها الذى لم تره مرأى العين وإنما رسمت صورته بخيالها المتقد مما سمعته عنه وعن سحره وفتوته وطيشه من أبويها . فى تلك اللحظات الجامحة لم تكن تملك سوى اعتصار الوسادة فى أحضانها والتقلب بجسدها الرقيق المشدود على حشية من جمرات متقدة بسؤال ملح لم يفارق عقلها وقلبها :

ـــ هل يمكن أن تستمر بها الحال هكذا إلى ما لا نهاية ؟!



(٣)

كاد إدريس أن يجن بحثا عن إجابة شافية لسؤال شائك ملتهب :

ــ لماذا يصر دهب وزوجته على زيارتنا بالمنزل ؟!

أجابت فاطمة وهى منهكمة فى جلستها فى صناعة طبق من الخوص بألوان متناسقة متماوجة وهى تنظر بإعجاب إلى الجدار المقابل الذى نقشته ولونته بنفس وحدات طبق الخوص المتكررة :

ــ من الطبيعى أن يزور الأخ أخاه !

نظرت إليها أمها نظرات ذات مغزى وهى تضع مربى البلح فى القدور الفارغة فى حين انتهى إدريس من كوب الشاى قائلا :

ــ لكننا لم نعتد مثل هذه الزيارات !! طول عمرنا كنا فى حالنا !!

قالت الأم وهى تحكم إغلاق أول قدر :

ــ أنت لا تستطيع أن تمنع أخاك وزوجته من زيارتنا !!

ــ لكنه لم يطلب مثل هذا الطلب من قبل ؟!

تدخلت فاطمة وهى تجدل الطبق بشرائح ملونة من السعف :

ــ بعد قليل سنعرف السبب من الزيارة !

ثم استدركت :

ــ ربما كانت للسؤال والاطمئنان !

وجه إدريس إليها كلمات قاطعة حاسمة :

ــ الزيارة ليست من شأنك على الإطلاق .. وعليك أن تلزمى حجرتك من الآن .. لا حس ولا خبر !

أضافت زوجته على سبيل طمأنته :

ـــ سنستقبلهم فى الشرفة .. نسمة العصارى أجمل من سخونة البيت !

نهضت فاطمة وفى يدها طبق الخوص إلى حجرتها الصغيرة وقد أغلقت الباب خلفها . قالت له زوجته فيما يشبه الهمس :

ـــ لا داعى لأن تنهرها بهذا الشكل ؟!

ـــ أعصابى مشدودة منذ أن فرض علىّ دهب هذه الزيارة !!

ـــ ليس هناك ما نخشاه !

ـــ أتفكرين فيما أفكر فيه ؟!

ـــ وافرض .. نحن أحرار فى أسرتنا .. وليس من حق أحد أن يطالبنا بشىء لا نرتضيه !

لم يكن يحب فى زوجته أكثر من حكمتها وصلابتها وإرادتها وقوة شخصيتها ، ويبدو أن فاطمة قد ورثت عن أمها كل هذه الخصال . كان على وشك أن يفتح فمه بكلمات لم تخرج مع دقات الباب . نهض وخلفه زوجته ليفتح الباب مرحبا بأخيه وزوجته وليجلس أربعتهم على الأريكة المنخفضة المطلية بالجير ونظراتهم مركزة على النهر الذى اختفت ضفته الأخرى تحت النخيل ، باحثين عن كلمات مناسبة لقطع حبال الصمت . قال إدريس :

ـــ خطوة عزيزة يا دهب .. كم شغلتنا الحياة عن بعضنا بعضا !

علق دهب وهو يحكم العمامة البيضاء حول رأسه :

ـــ صناعة الساقية والمركب والبيت والأثاث من قرية لأخرى لا تترك للنجار وقتا للزيارة وجلسات الأنس !!

ارتاح إدريس للحجة التى قدمها أخوه إليه على طبق من فضة ، فى حين دخلت زوجته دارية البيت وأغلقت الباب خلفها بحيث لم تترك فرصة لنظرات آشا زوجة دهب كى تتلصص خلفها . ضم إدريس جلبابه الناصع البياض حول ساقيه

النحيلتين قائلا :

ــ عموما الود فى القلب !!

أضافت آشا :

ــ الدماء لا يمكن أن تتحول إلى ماء !

قال دهب :

ــ طبعا .. نحن أسرة واحدة !

حاول إدريس أن ينطلق إلى موضوعات عامة :

ــ كلما استمعت إلى الكلام الدائر فى هذه الأيام حول البدء فى مشروع السد العالى وتحويل مجرى النيل الذى سيغرق بلادنا .. وكأنها لم تكن .. يصيبنى حزن مر !!

علق دهب بكلمات انتقلت إليها المرارة :

ــ أرض الآباء والأجداد لا تهون على أحد ! لكن ما العمل إذا كانت مصر كلها فى انتظار الرخاء الذى سيجلبه السد ؟!

تنهد إدريس سعيدا بمجرى الحديث الجديد :

ــ هيه !! ستصبح أيام النوبة القديمة كالأحلام والأساطير !!

اقتنص دهب فرصة الحديث عن الأساطير :

ــ لا تزال حياتنا زاخرة بالأساطير التى تعيش بالفعل بيننا وفى داخل بيوتنا !!

أوشكت كل شكوك إدريس ومخاوفه على التحقق لكنه قاوم :

ــ هل تصدق حكايات الراوية التى تخدع بها السذج كل ليلة !؟

فتحت دارية الباب وأغلقته خلفها برغم حملها للكاراج الذى وضعت عليه الفشار والبلح والقمح المشوى والترمس . استوى الكاراج أمامهم على مائدة صغيرة من الخيزران المجدول باللوف . أسرع إدريس بتقديم عينات منها لأخيه وزوجته آشا حتى يمتلئ الفم بها بدلا من الكلمات الشائكة .

انشغل الضيفان بالطعام فى حين كانت الشمس تميل إلى الغروب وقد صبغت صفحة النهر بحمرة قانية امتزجت بسمرته الداكنة وسكونه المهيب الذى لم يقطعه سوى محركات بعض السفن الصغيرة البعيدة وصيحات بعض النوتية وهم يمدون قلوع بعض المراكب التى لم تبتعد عن صخور الشاطئ كثيرا .

خرج صوت دهب متأنيا وهو يتحسس كلماته :

ـــ أنا من المؤمنين بالمثل القائل : زيتنا فى دقيقنا !!

تبادل إدريس مع زوجته نظرات سريعة لتلمح دارية صفين من الجاكيد وما شاء الله وتحتهما صف من فرج الله وبيبى حول جيد آشا . قالت لها :

ـــ لم أر أجمل من هذا الجاكيد من قبل !

شكرتها آشا فى اقتضاب لكن دارية لم تستسلم :

ـــ وهذا الحلق الكبير فى أعلى الأذن .. والآخر أسفله .. والثالث بينهما .. تبدين فتاة فى مقتبل العمر !

لم تخرج آشا عن اقتضابها وهى تنظر إلى زوجها :

ـــ عين المحب دائما تبالغ !

واصلت دارية زحفها :

ـــ وهذا الخلخال الفضى حول ساقك .. والخواتم الفضية حول أصابعك .. تكاد تأكل منها حتة !

حاولت آشا إيقاف زحفها والإمساك بزمام المبادرة :

ـــ لن نأخذ زماننا وزمان غيرنا !! فهذا زمان أبنائنا ولهم أن يأخذوا دورهم فى التمتع بالحياة !

أضاف دهب بسرعة حتى لا تفلت الفرصة :

ـــ لا يحق لنا أن نحرم أبناءنا من حظهم فى الحياة !!

تجاهل إدريس تلميحات دهب التى توشك على المصارحة :

ـــ على كل حال .. نحن لا نعانى من هذه المشكلة !! ولا أنت أيضا .. فابنك جاسر يعيش حياته بالطول والعرض أكثر من اللازم !!

حكت آشا خط الوشم من الشفة إلى أسفل الذقن بعصبية وهى تقول :

ـــ جاسر .. سيد شباب القرية .. وأى بنت من بنات كلابشة تتمنى تفوز به زوجا لها .

توغلت دارية فى حومة الوغى :

ـــ جعله الله من أبناء السعادة .. وحقق له كل ما يتمناه !

جس دهب نبض أخيه :

ـــ حب جاسر للشعر والإنشاد وضرب الدف لا يعيبه !

أمن إدريس على كلامه :

ـــ لم يقل أحد مثل هذا الكلام !

واصل دهب حديثه كأن أخاه لم يقل شيئاً :

ـــ وعموما .. فعمله الأساسى هو مساعدتى فى الزراعة كما تعلم !

ـــ وفقه الله ! فنحن لا نتمنى له سوى كل خير !

ـــ كان يريدالرحيل إلى مصر للعمل هناك وادخار ما يمكن أن يؤسس به حياة زوجية مريحة .. لكننى قلت له : ليس قبل أن تكمل نصف دينك !!

ابتسمت دارية فى دهاء قائلة :

ـــ لو أشار بيده إلى أجمل فتاة فى كلابشة الآن .. لأصبحت غدا زوجته !

غمرت أمواج الجدية الصارمة وجه دهب :

ـــ لا أحد يستطيع أن يتعدى أو يعتدى على تقاليدنا التى ورثناها أبا عن جد والتى تفرض علينا ابن العم بصفته أحق الناس بالزواج من ابنة عمه .. ولا يعيبه إلا الفقر لدرجة لا يمكن معها أن ينفق عليها .. والحمد لله .. جاسر خير من يطبق تقاليدنا !

استأنف إدريس الصمود والتصدى :

ـــ هذا لو كانت لجاسر ابنة عم !!

اقترب دهب من إدريس فى جلسته على الأريكة الحجرية ومد ذراعه على كتفه وهو يربت فى ود متدفق :

ـــ اسمح لى يا أخى أن أصارحك بشىء كنت أتمنى أن أفاتحك فيه منذ زمن طويل لكن القوقعة التى حبست فيها نفسك وأسرتك وقفت عقبة فى طريقى !

ابتعد إدريس حتى قبع فى نهاية الأريكة لكن يد دهب لا تزال ممسكة بكتفه وهو يواصل حديثه الشائك :

- ـــ أنت نفسك لم تعد تؤمن بالأساطير .. فلماذا تصر على أن تجعل من ابنتك أسطورة غامضة خفية ؟! إن زمن أسطورة فاتما بنت النجار قد ولى واندثر .. فلماذا تسجن ابنتك خوفا عليها من الحسد ؟! إنك بهذا تتصرف كالدبة التى قتلت صاحبها بإلقاء حجر على وجهه وهو نائم لطرد ذبابة حطت عليه !!

تضايق إدريس من تشبيهه بالدبة فأنزل يد دهب من على كتفه قائلا فى عصبية :

ـــ لا تردد الشائعات التى يتناقلها من ليست لهم شغلة ولا مشغلة !!

ـــ إنكار النعمة التى منحها لك الله هو كفر بها !

ـــ أنا أحمد الله فى كل لحظة من لحظات حياتى !

ـــ لا تظن أن الأهالى مغفلون .. فهم يحترمون عزلتك وحريتك فى أن تحيا الحياة التى تريدها .. لكننا فى بلد إذا عطس أحدهم فى الشرق سمع الجميع عطسه فى الغرب .. فليست هناك أسرار كما تعلم .. والسر الذى حاولت أن تحتفظ به منذ سبعة عشر عاما أصبح على كل لسان منذ مولد فاطمة !

انتفض ادريس كمن لدغه عقرب :

ـــ لا أدرى عما تتكلم !

واصل دهب الهجوم على المعاقل الأخيرة :

ـــ لقد ذهبت أنا وغيرى إلى السجل المدنى .. وقمنا برشوة كاتب السجل الذى رشوته أنت من قبل للاحتفاظ بسر ابنتك .. وعرفنا اسم المولودة وتاريخ ميلادها .. كذلك عندما ذهبت إلى الصائغ العجوز فى دندور لصنع الشاوشاو باسم فاطمة عليه .. كان الصائغ يعرف اسم ابنتك مقدما لكنه تظاهر بالجهل ليكتسب ثقتك !! إنك الوحيد فى كلابشة الذى يظن أن سر ابنته لا يعلمه أحد !!

تصلب جسم إدريس النحيل وهو يتساءل فى حدة :

ـــ لا داعى لكل هذه الثرثرة !! ماذا تريد بالضبط ؟!

ـــ أريد يد ابنتك فاطمة لابنى جاسر !

ـــ وأنا ليس عندى عروس لابنك !

دقت آشا بيدها على صدرها فعلا رنين الجاكيد وما شاء الله وفرج الله وبيبى وهى تكاد تشهق :

ـــ ابنى جاسر ذو الحسن والطلعة البهية .. الذى تتمنى فتيات كلابشة ودندور ودار موسى وبيت الوالى وسباجوره وجرف حسين تراب رجليه .. وجد أخيرا من يرفضه عريسا لابنته !

فتحت دارية المعركة فلم يعد هناك ما تخفيه :

ـــ نحن نعلم أيضا كل شىء عن جاسر .. شطحاته وغرامياته وغروره الذى يزين له أن كل فتيات القرية رهن إشارته وتحت رحمته .. وهو لا يفعل شيئا سوى الإنشاد وضرب الدفوف !!

كادت آشا أن تصرخ :

ـــ الرجل لا يعيبه شىء !

استعاد إدريس بعضا من زمام المبادرة :

— صحيح أنه جميل الطلعة والصوت وساحر الشعر .. لكنها مؤهلات لا تصلح للزوج الذى يتمناه أى أب لابنته البكر التى لم تلوثها ملذات الحياة التى غرق فيها جاسر حتى أذنيه !

دق دهب كفا بكف :

— إذاً .. فأنت تعترف بأن لك ابنة ترفض تزويجها من ابن عمها ؟!

أمسك إدريس بلجام الدهاء مرة أخرى :

— لم أتكلم عن نفسى .. وإنما قلت أى أب !!

— لن أعود إلى اللف والدوران معك ! قل بصراحة إنك ترفض طلب جاسر ليد ابنتك فاطمة !

— كيف يطلب يد بنت لم يرها ولم يعرفها !

ابتسم دهب فيما يشبه الانتصار :

— هذه ليست مشكلة على الإطلاق .. يمكنه أن يراها وأن يعرفها !!

ندم إدريس على زلة لسانه :

— إنك تضيع وقتك فى موضوع لا جدوى منه !!

— إنك تجنى على ابنتك جناية لا حدود لها !!

— الزواج قسمة ونصيب !

— تظن فى نفسك القدرة على التحكم فى القسمة والنصيب .. ثم تتمسح بهما !! ذنبها فى رقبتك !

نهض دهب ومعه آشا ثم إدريس ودارية التى قالت :

— لم تشربا الشاى بعد !

أضاف دهب وكأنه ينهى الموضوع :

— نحن متأكدون أن ابنتك فى الداخل .. أكبر دليل على ذلك أنك لم تسمح لنا سوى بالجلوس فى هذه الشرفة !!

مطت آشا شفتيها فى ضيق :

ـــ لم أكن راضية منذ البداية عن طلب جاسر ليد بنت لم يرها و لم يعرفها . فربما لو رآها لغير رأيه !! البنت الجميلة فخر لأبيها وأسرتها .. أما القبيحة فيخفيها عن الأنظار خوفا من الألسنة !

لاذ إدريس ودارية بالصمت فى حين هبط دهب وآشا على درجات السلم الحجرية دون إلقاء السلام فى طريق عودتهما إلى البيت .

كانت الضفة الوعرة قد تلفحت بأردية المغيب وسمرة النهر تمتزج بسمرة الأفق فى حين خب دهب المسير مع زوجته فى سكون قطعته بكلمات حادة :

ـــ لم يعتد جاسر أن يفشل فى الحصول على شيء أراده !!

أجاب زوجها فى عصبية لم تلطفها نسمات المغرب بعد ظهيرة قائظة :

ـــ لم يفسده أحد بالتدليل مثلك !! هل فاطمة مجرد شيء طلب الحصول عليه ؟! هل نقتحم البيت ونختطفها لنقدمها هدية له ؟! مثل كل الهدايا التى كان يحصل عليها بمجرد طلبها منك ؟!

أشاحت بوجهها بعيدا :

ـــ ليس لنا سوى جاسر ! حفظه الله وصانه !

ـــ إذا كان مصرا عليها فليتقدم بنفسه !

ـــ إنها لن تستطيع الزواج من آخر إذا أرادها ابن عمها .. وسيعرف الجميع أنه طلبها ! بل إنه يستطيع الزواج من أية فتاة أخرى .. وتظل ابنة عمه تنتظره رهن إشارته .. هذه هى تقاليدنا !

اتسعت خطى دهب :

ـــ أصبح الموضوع مملا وسقيما .. ولن أخسر أخى بسببه !

ـــ ربما انتهى الموضوع تماما لو رآها واكتشف أنها فتاة عادية وأقل من العادية !

ـــ لن أسمح له بالتعدى على حرمة البيوت والتلصص حولها !

ـــ لا تحمل هما .. لابد أن تثور فاطمة على هذا السجن !!

طاش صواب جاسر وجن جنونه وهاج وماج . لم يكن يتصور أن تمر به اللحظة التى تشهد رفض عمه لطلبه يد ابنته وهو معبود كلابشة الساحر الذى تتمنى العذارى نظرة أو لفتة أو لمحة أو ابتسامة منه ! هل يعقل أن يمر الموضوع بمنتهى البساطة هكذا ؟! لقد سرى النبأ فى أزقة القرية وطرقاتها مسرى الريح الهوجاء المحملة بالأتربة والرمال التى يمكن أن تجعل منه مسخة القرية والقرى المجاورة بعد أن كان معبودها ! لأول مرة فى حياته تسبب له فتاة كل هذه الدوامة العاتية من الحيرة والقلق والاضطراب وهو الذى كان مصدر الحيرة لكل الفتيات المتطلعات إليه فى شوق حارق ! كم تهامست الفتيات كلما مر بهن وهن يملأن الأوانى بماء النهر عند العصر ، أو يجمعن القش لطعام الدواب ، أو يسقن خرافهن بحذاء المزارع فى صحبة صديقاتهن ، أو يجلسن تحت أشجار الدوم والكافور فى سمر وأحاديث هامسة يفلت منها أحيانا اسمه ، أو فى عودتهن عند الغروب إلى البيوت . وحتى بعد العشاء عندما يجلس الرجال على الرصيف الكبير وتجلس الفتيات على الرصيف المقابل ، كان يمر بهم كالحلم الذى يلقى عليهم السلام ثم يمضى !!

ثم تأتى هذه الفتاة الغامضة الخفية كى تحطم هذه الهالة التى لا يعيش على شىء سواها ! وربما كانت قبيحة كالبومة كما تقول أمه ! فى حين نفض أبوه يده من الموضوع برمته ! لكن كيف يتقدم بنفسه إلى عمه ؟! وهل يستطيع أن يفعل ما عجز أبوه عن فعله ؟! هل يهاجم البيت ويختطفها ؟! لكن كيف والتقاليد النوبية لم تعرف مثل هذه الفضائح ؟! ومع ذلك فإن شيئا غامضا ، محيرا ،

ممضا ، مثيرا ، مقلقا ، مؤلما قد استقر فى أعمق أعماقه من فاطمة هذه !

هل يعقل أن تعيش فتاة مثلها فى مقتبل العمر وفورة الحياة وهى لا ترى حتى النور المنبعث من خصاص النافذة ؟! إنها فى النهاية فتاة مثل كل الفتيات ولابد أن لها أحلامها وأشواقها ! لكن هل سمعت عنه أم أن أباها منع عنها أخباره كما منع عنها ضوء الشمس ؟! لماذا لا يصرف نظره عن هذا الموضوع الممل السخيف ؟! وحتى لو فاز بيدها واكتشف قبحها بعد ذلك ، ألن يصبح أضحوكة القرية الذى صام ثم أفطر على بصلة ؟! كيف تطارده الرغبة المحرقة للزواج من فتاة لم يرها و لم يعرفها على حد قول أبيها لأبيه ؟!

إن الشىء الوحيد المؤكد الذى يعرفه أنه لن يستريح له بال إلا إذا حسم هذا الموضوع بطريقة أو بأخرى ، خاصة بعد أن علمت القرية بزيارة أبيه وأمه التاريخية !! سيحاصر البيت آناء الليل وأطراف النهار برغم تحذير أبيه له من التلصص والتجسس ! أفضل له أن يتهم بالتلصص والجاسوسية من أن يوصف بالتغفيل والبله ! خاصة وأنه سمع أحد الفلاحين ذات مرة وهو يقول إنه لمح شبح فتاة جميلة فى غبش الظلام قبل انبلاج الفجر بالقرب من الساقية عند سفح الربوة الصخرية التى يقع عليها بيت إدريس ! فربما كانت هذه الفتاة هى فاطمة ! وحتى إذا لم تكن هى ، فلابد أن تفتح نافذتها التى تطل على النيل ! فليس هناك مخلوق يستطيع أن يطل على النيل ويرفض أن يراه ! وهى ليست منيعة كالقلعة وإنما مجرد حلم بين الناس يستحيل الإمساك به ! لكنه وهو الشاعر الذى يمسك بأحلام الناس ليصنع منها أشعاره سيعرف كيف يمسك بها !

لم يخفق قلب جاسر لأية فتاة حتى الآن ، فهل يخفق لفتاة لم يرها و لم يعرفها ؟! أدرك الآن أن حب الاستطلاع والبحث عن الحقيقة الغامضة المثيرة ، وليس الوجد والغرام ، هو الذى يكاد يقتله بلوغا لسرها ! قد يكون ما قيل عنها من مبالغات الشعراء وهو فى مقدمتهم ، لكنه لا يزال مصرا على الإمساك بالحلم

وتحويله إلى واقع . وهى ليست الحلم الوحيد للشباب والأنشودة المثلى للشعراء ، بل هو أيضا . فهو حلم كل الفتيات وشاعر يكتب عنه الشعراء الذين قالوا فيه على لسان فتاة من صريعات هواه :

الفتى المختال ها هو يمشى متبخترا
يبزغ فى مشيته والوجد حوله متبعثرا
يتهادى أمام بيتنا بعمامة بيضاء ذات أطراف بارزة
أراه فيصير قلبى غريقا لاهثا بين أمواج هادرة
يتطلع معى إليه وروحى تحوم مرفرفة
تقف على أعلى نخلة قبالته حائرة
أنتظره خارج البيت ممسكة بصحفة من سعف النخيل
عليها هدية من الفشار والبلح والقمح المشوى الجميل
وأرش رصيف بيتنا الكبير بالرمل المندى العليل
أراه مقبلا من بعيد عند خط الأصيل
فأجرى وأختبئ فى طيات خجلى الذليل
وقلبى يخفق بحبه الهادر كالصليل .

وكان جاسر يمر ذات مرة أمام فتاة تطحن الغلال وأمامها صديقتها تساعدها فى إدارة الرحى ، فإذا بكل منهما تنشد مقطعا من هذه الأغنية بصوت عال لعله يتفضل عليهما بابتسامة أو يحن عليهما بكلمة !

فتى هذا حاله ، فهل يرضخ للتحدى ؟! رابط حول البيت من زوايا متعددة دائما وخفية غالبا ! والبيت يطل على النيل ومن حق أى إنسان أن يتريض على شاطئه فى أى وقت يشاء دون أن تحوم حوله شبهات التجسس ، خاصة إذا كان قويا جريئا مثله لا يخشى الذئاب ولا الجن ولا العفاريت ولا سكان البحر الأشرار ، وهو الشاعر الذى يحركه شيطان الشعر الى أى مكان وفى أى وقت

لتجرى بعد ذلك أشعاره على كل لسان !

بعد أسبوع من جولاته المحمومة قبل بزوغ الفجر على شاطئ النيل رأى فجأة بدرا أسمر أضاء الأفق بخيوط فضية نسجت نفسها حول عينيه . كانت فتاة رائعة الحسن والجمال وقد أسندت ظهرها إلى عامود الساقية الخشبى وتطلعت بوجهها الرقيق الدقيق إلى خط الأفق الذى لا يزال يطبق على خيوط الفجر ، وهى تدندن ببعض نغمات لا تفصح عن كلمات وإنما تشبه فى إيقاعها بعض أغنياته ! فاحت أطراف ردائها بعطر الصندل ، وتوهج وجهها حسنا واشتعالا كشظايا اللهب ، وتألقت الابتسامة على وجهها كما يلمع الهلال فى ظلام الليل ، وتلألأت أسنانها مثل حبات القرطم ، وتراقص على صدرها الندى عقد الشاوشاو الفضى . تماما كما أنشد الشعراء وهو مقدمتهم :

حلوة كعصير الفاكهة الفوار
رطبة كطلع النخيل النوار
نقية كسنابل القمح الذهبية
حانية كخيوط الفجر الفضية

تمالك جاسر نفسه فلم تنم عنه حركة أو شهقة تنبئ بوجوده ! لو كانت هذه فاطمة فلن تصلح لها الأغانى وإنما عليه أن يكتب أول ملحمة فى حياته ! وإذا لم تكن هى فعلى فاطمة أن تبحث عن أقرب قبر لتدفن نفسها !

ذات فجر وليد لمح الشاعر قصيدة من لحم ودم !
هل يعقل أن يصبح الشعر إكليلا من الشَعر ؟!
ويتحول البحر إلى قوام هو غصن البان؟!
وتتفجر الكلمات الفائرة بعروق الدم ؟!
وتتخيّر القوافى عن ابتسامة وضيئة فى الثغر ؟!
ويدير الشاعر عجلة الزمن بنشوة السكران ؟!

تحرك الطيف الأسمر الداقئ وأمواج النهر تتراقص جزلى عند رفيف قدميه . وأصبح الكون جزيرة مسحورة ببريق عينيه . والأسماك تقفز راقصة ثم تغوص منتشية . سار جاسر خلف طيفها وخطواته تكاد لا تلمس الأرض ، وإذ بها تصعد على الربوة الصخرية حتى بلغت باب بيت عمه لتفتحه فى سكون وتختفى داخله فى صمت . حمد الله أنها لم تنظر خلفها وإلا لأسرعت الخطى تعبيرا عن شعورها بمتابعته .

كانت فاطمة من الذكاء بحيث لم تشعره بأنها لمحته فى حين أسرعت إلى فراشها لتقبع فيه وهى فى انتظار استيقاظ أمها وقيامها بصلاة الفجر وإعدادها طعام الإفطار لأبيها قبل أن يخرج إلى عمله . كانت تقاوم خدرا عجيبا يسرى فى جسدها فيكاد يدخلها فى كهوف مسحورة بالجن والعفاريت يصعب الخروج منها ! من هو هذا الشاب العجيب الساحر الذى هبط عليها من بين السحب الشفافة المتناثرة ؟! هل يمكن أن يكون ابن عمها جاسراً ؟! قلبها يحدثها بذلك ! وحتى إذا كذب قلبها فالأسماء لا تهم كثيرا ! لقد امتد بينها وبين هذا الشاب أحد خيوط الفجر ، وهى تعلم أنها خيوط من صنع الرحمن !

بمجرد خروج أبيها إلى عمله أسرعت فاطمة إلى أمها وهى تحاول بقدر إمكانها الإمساك بلجام قلبها الذى يكاد يقفز من بين ضلوع صدرها الناهد ليلهث فى أعقاب الفتى الرائع الحسن الذى تبعها إلى باب بيتها ونظراته سهام حارقة تخترق ظهرها . كانت الأم منهمكة فى ترتيب السريرين السودانيين المجدولين باللوف ، وتسوية الأغطية ذات الخطوط الملونة التى تشكل وحدة زخرفية على شكل الماس ، وتهوية الغرفة . أسرعت الأم بمواربة خصاص النافذة بمجرد دخول ابنتها التى بدا عليها وكأنها تعانى من وطأة حمل ثقيل تريد التخلص منه .

بنبرات سريعة متقاطعة متداخلة على غير عادتها قصت فاطمة على أمها ما جرى لها قبل انبلاج الفجر . علقت الأم وقد احتوت ابنتها بين ذراعيها فى لهفة :

— إنه شاب مغرور وجرئ أكثر من اللازم .. وقد يعتدى عليك أو يخطفك .. ومن الآن لا داعى للخروج من البيت .. والحمد لله أن أباك لم يعرف شيئاً عما جرى !

بكت فاطمة على صدر أمها :

— لكن هل سأظل هكذا إلى الأبد ؟!

أدركت فاطمة بحسها الفطرى أن هذا السؤال الذى تلقيه ابنتها لأول مرة فى حياتها بهذه البساطة لا يعنى سوى أن نقطة تحول جديدة قد بدأت ولابد من مواجهتها . سألتها بدورها :

— ما أوصاف هذا الشاب ؟!

— إنه كامل الأوصاف ! فتى الفتيان !

— هذا ليس وصفا !

— طويل .. رشيق .. وجهه منحوت من صخور النوبة لكن عينيه تشعان بضوء الفجر .. أنفه شامخ ودقيق .. وعِمته ذات أطراف بارزة ..

ثم اجتاحها الخجل فتلعثمت :

— لم أر سوى ذلك !

شهقت الأم وهى تدق بكفها على صدرها :

— هو بعينه !

لهج لسان فاطمة دون أن تدرى :

— جاسر ! ابن عمى ! الذى لا يجرؤ إنسان على التقدم لطلب يدى قبله !

أمسكت الأم بالمكنسة المصنوعة من سباط البلح المفتول الخيوط لتنظف الغرفة :

— الحمد لله .. الأمور لم تتعد هذا الحد .. لو علم أبوك بما جرى لأقام الدنيا ولم يقعدها !

غمر فاطمة شعور خانق فأجهشت بالبكاء وانطلقت إلى غرفتها لتحتضن وسادتها الأثيرة وهى تتمنى فى حرقة أن تصبح الوسادة جاسراً بين غمضة عين وانتباهتها ! لكن كيف ؟! فالأحداث السابقة لم تكن تبشر بأى خير !

وفى الخارج سطع وهج القرص الذهبى ليلسع الرؤوس والظهور والوجوه والصدور بسياط من نار تسللت بشظايا عبر شقوق النافذة فأضاءت غرفة فاطمة المعتمة .



(٥)

واظب جاسر فى الأيام التالية على قضاء الليل بطوله على الشاطئ فى انتظار وصولها قبل الفجر عسى أن يقابلها ويفاتحها فى موضوع التقدم لطلب يدها بعد أن أعيته كل الحيل فى التقدم لها ، لكن أمله ضاع و لم تتحقق أمنيته . لم يدرك حقيقة ما جرى له فعاف الطعام والشراب و لم يعرف النوم إلى عينيه سبيلا . لم يشعر بمثل هذا الضعف والوهن والاستسلام من قبل . فهو القوى الرشيق المتألق انهد جسمه فلم يعد قادرا على مغادرة بيته إلى الشاطئ لعله ينعم بمجرد رؤيتها .

لجأ أبوه وأمه إلى الطب فكان رأى الطبيب المعالج : إذا عرف السبب بطل العجب ! السبب معروف والعلاج معروف ! كررا المحاولة بالذهاب إلى إدريس الذى أكد لهما أن ابنهما يعيش فى وهم كاذب ولابد من علاجه ! وهكذا فشلت كل المحاولات لإعادة الصحة إلى فتى القرية الجميل المعشوق الذى أصبحت قصته غذاء القرية المفضل خاصة على مائدة العشاء ، وتساءل الكبار والصغار :

ـــ لماذا لم يلجأ دهب وزوجته إلى شالوية ذات السر الباتع الذى لا يخيب أبداً ؟!

كانت فى كلابشة عجوز تدعى شالوية تقرأ الفنجان ، وتضرب الودع ، وتقوم بدور الخاطبة ، وتفضى بنصائح لا تخيب أبداً ، ويقال إنها تمارس السحر ، وتتصل بالجان ، وتصنع الأحجبة والتعاويذ لإتمام زواج مرغوب أو منع زواج مرفوض ، وحل عقدة الصديق وتأمين حياته وشفائه ونجاته ، وجعل المرأة تتبع الرجل وتأتيه طائعة خاضعة ، كما يأتى الزبون إلى التاجر ، وتخرج الأرض الثمار الطيبة !

لكن أسرة فاطمة وجاسر تجنبت هذه المرأة خوفا من شرها إذ قيل إنها تعتمد على القوى السفلية ، كما أنها منذ عشرين عاما حاولت إن تخطب أم فاطمة لرجل ثرى يعمل فى تهريب الآثار وكان من سلالة جنود البوسنة الذين نسى العثمانيون حاميتهم فى النوبة عندما أرسلوها هناك لترسيخ نفوذ إمبراطوريتهم المترامية الأطراف ، فاستقروا فيها واختلطوا بأهلها لكنهم احتفظوا بملامحهم المتمثلة فى الشعر الذى يميل إلى الاصفرار ، والبشرة التى لا تزال تقاوم السمرة ، والعيون الملونة بألوان البحر الأبيض المتوسط .

أصرت أم فاطمة على حبها لإدريس ، مستغلة فى ذلك حرية اختيارها لرفيق العمر إذ لم يكن لها ابن عم يحد من حركتها ، ورفضت الزواج من مهرب الآثار ذى الأصل التركى والذى استعاد العربون الكبير الذى كان قد دفعه لشالوية قبل الزواج الذى لم يتم ، مما جعل شالوية تضمر السوء لدارية برغم أنها كانت تتظاهر بكل الحب والصفاء !

انتظرت شالوية لجوء دهب وزوجته إليها لحل معضلة جاسر على أحر من جمر ، لكن انتظارها طال فلم تجد بدا من أن تذهب بنفسها وتدق على الباب ليفتح لها دهب الذى فوجئ بها فلم يملك سوى أن يقول مرحبا :

— أهلا خالة شالوية !

لم ترد السلام وإنما تظاهرت بعتاب الأحباب الحار :

— لا سلام ولا كلام .. ابنى جاسر حبيبى مريض ولا يطلبنى أحد لعلاجه وأنا التى عالجت أباءكم وأجدادكم .. لا تخافوا فلن أطالبكم بمال وهدايا .. هديتى الحقيقية شفاء جاسر وزواجه ممن يحب !

جاءت آشا على صوتها وهى تتظاهر بالترحيب الحار بها لكن شالوية لم تلتفت إليها بل رفعت ذراعها المعروقة متسائلة :

— أين جاسر ؟!

أجابت آشا وهى تشير إلى الباب المقابل المغلق :

ـــ راقد يا حبة عينى !!الله يجازى من كان السبب !!

نهر دهب زوجته بنظرة ملتهبة فى حين اندفعت شالوية لتفتح الباب وتدخل وهما فى أعقابها لكنها أمسكت بضلفة الباب :

ـــ اتركانى وحدى معه ! إلا إذا كنتما لا تثقان فى !

لم يملكا سوى التراجع لتغلق الباب وتذهب إلى فراش جاسر وتجلس على حافته وتمسك بيده :

ـــ قم يا رجل !! عار عليك أن ترقد هكذا من أجل امرأة لا راحت ولا جت !!

نهض جاسر جالسا وقد أحالته النحافة إلى شبح بعينين غائرتين وصوت واهن :

ـــ لا تقولى مثل هذا الكلام يا خالة شالوية ! فهى أجمل من أن توصف !

ـــ هل رأيتها رؤية العين أم بعين الخيال ؟!

ـــ رأيتها كما أراك الآن أمامى !

حكت العجوز أنفها المعقوف بأظافرها الطويلة :

ـــ كيف لفتى كلابشة الساحر أن يقع صريع ابنة دارية ثم تعزها عنه ؟! عشنا وشفنا !! لو كنت مكانك لحل الانتقام محل الغرام ! فمن يدوس على كرامتى أدوس على عنقه !!

أشاح بوجهه بعيدا صوب الجدار المواجه الذى علقت عليه بعض الصور لنجوم الأفلام الأجنبية والمصرية ، المنزوعة من الصحف ، إلى جانب صور بعض الخيول ، وصورة زاهية اللون للملاك جبريل وهو يهبط على أرض القاهرة ممتطيا جوادا أبيض اللون ذيله على هيئة ذيل الطاووس :

ـــ لم أعد أعرف الفرق بين الحب والانتقام ؟! اختلطت كل الأمور علىّ !

لملمت رداءها الأسود حول ساقيها :

— ألا تستطيع إهمالها تماما وصرف النظر عنها ؟!

— لم أتعلم الكذب فى حياتى ! لا أستطيع !!

— ماذا سيكون جزائى لو جعلت عمك يعترف لك بأن له ابنة ؟!

— لك ما تطلبين لو فعلت هذا ؟!

— إذا كان الأمر كذلك فإن سحرى قادر على إحضار فاطمة هذه إلى بيتك تفعل بها ما تشاء .. لتنتقم لكبريائك وكرامتك .. عندئذ سيأتى أبوها ضارعا إليك منتظرا شروطك ليقبلها !

كان هذا أكثر مما تمنى جاسر الذى أصبح مستعدا للتحالف مع الشيطان نفسه لاسترداد نفسه الضائعة . كان يثق فى قدرتها على تنفيذ كلمتها وسرها الباتع الذى لا يخفى على أحد . عادت الدماء الساخنة لتسرى فى عروقه وهو يقفز من فراشه واقفا على الأرض ليخرج من درج مجاور مبلغا مرموقا من المال دسه فى يدها :

— هذا مجرد عربون بسيط ! وعندما يتم المراد اطلبى ما تشائين !

دست المبلغ فى جيب ردائها :

— عدنى بأن ما دار بينى وبينك سر لن يعلمه أحد !

— أعدك بكل ما تطلبين !

— انهض الآن لتستحم وتأكل ! عد إلى قلوب العذارى لتتربع على عروشها !! وعندما تقع فاطمة بين يديك ستدرك أنها مجرد واحدة منهن !! ليست على رأسها ريشة ولا تاج !

نهضت العجوز فأسرع جاسر خلفها . استدارت لتسأله :

— ألا تزال أمك تساعد أباك فى المزرعة ؟!

— نعم !!

— وتبقى أنت بمفردك فى البيت نهاراً ؟!

— نعم !!

ضحكت العجوز ضحكة مقتضبة كصرير الباب :

— كما خططت تماما !! ستأتى إليك على طبق من فضة !!

فتحت الباب لتخرج وعيون دهب وآشا تتابع جاسراً فى ذهول وهو يهرع خلفها ليفتح لها باب البيت مودعا إياها فى حرارة ! أغلق الباب خلفها ليواجه الأسئلة المنهمرة :

— ماذا فعلت بك ؟!

— كيف تغيرت هكذا من حال لحال ؟!

— هل سرها باتع كما يقولون ؟!

نظر إليهما جاسر مبتسما :

— إن غدا لناظره قريب ! إلىّ بالعشاء فإنى أكاد أموت جوعا !

أسرعت الأم إلى المطبخ على أجنحة السعادة المفاجئة والأب يتابعهما بنظرات الرضى التى افتقدها أياما عديدة !

أما فى الخارج فكانت شالوية تشق طريقها تحت جنح الظلام صوب البيت القابع على الربوة الصخرية التى صعدت عليها لتدق الباب ! كانت شالوية سعيدة بأن أحداً لم يرها فى غبش الظلام وهى فى طريقها إلى بيت دهب أو وهى عائدة منه . لم يرد أحد و لم يفتح الباب فأعادت دقاتها بمقبض عكازها الأبنوسى فجاء صوت إدريس مترددا من الداخل :

— من يدق علىّ الباب ؟! من ؟!

خرج صوت شالوية مشروخا وهى منحنية على عكازها :

— افتح يا إدريس .. أنا خالتك شالوية !

لم يستطع أن يكتم مشاعره وكلماته المسموعة من الداخل :

— خيراً .. اللهم اجعله خيراً !

ثم فتح الباب لتبدو قامة إدريس فى ضوء المصباح ورأسه يتأكد من القادم .

(نزوة نوبية)

قال بلهجة قلقة ذات نبرات متآكلة :

— تفضلى يا خالة ! تفضلى !

دخلت شالوية من الباب الذى أفضى بها مباشرة إلى غرفة الضيوف حيث جلست ووميض نظراتها الخابية مسلط على ما يدور خارج الغرفة التى سدت بابها دارية بدخولها وإغلاقها الباب لتجلس إلى جوار زوجها على الأريكة الخشبية المجدولة باللوف فى مواجهة المرأة العجوز المخيفة :

— قلت لنفسى : لا تعامليهم بمعاملتهم .. نحن أسرة واحدة وأنا الكبيرة .. ولهذا جئت !

ران صمت سدت دارية فراغه بكلمات جاهزة :

— بيتك ومطرحك !

وضعت العجوز عكازها على يسارها .

— سأدخل فى الموضوع مباشرة .. فالحب والود والوفاء والإخلاص عندى عمل وليس مجرد كلام !!

ثم وجهت سؤالها مباشرة إلى إدريس :

— هل سمعت عن آل مبروك فى دار موسى ؟!

أجاب إدريس متعجبا :

— طبعا .. إنهم من خيرة الناس وكرائم العائلات !!

— كنت فى زيارة لهم .. فأحبابى ليسوا فى كلابشة فقط .. وفى أثناء الزيارة تحطم لهم مركب وغرق بحمولته من البلح والتمر .. وشرعوا فى البحث عن نجار فى دار موسى لصناعة مركب جديد بدلا من القديم الغارق .. نجار يثقون فى إتقانه وإخلاصه .. فقلت لهم : لماذا تبحثون عن نجار ماهر ولدينا إدريس .. إنه أفضل من يصنع المراكب والقوارب !

صمتت العجوز لالتقاط أنفاسها وهى تتأمل نظراتهما ، خاصة دارية التى علقت :

— لكن دار موسى بعيدة عن كلابشة .. ولا يستطيع إدريس أن يقطع المسافة بينهما يوميا !!

ابتسمت العجوز فى ثقة وسعادة :

— ومن قال إننا نريد أن نهلكه من التعب .. سيكون فى ضيافتهم آكلا شاربا نائما حتى الانتهاء من صناعة المركب !!

علق إدريس بلهجة الخبير :

— لكن مركبا من هذا النوع فى حاجة إلى شهر كامل على أقل تقدير ؟!

— سيمنحونك الأجر الذى تطلبه دون مناقشة !

خرجت كلمات إدريس مترددة :

— لم يكن هذا فى حسبانى !!

— هل يمكن أن تتردد فى قبول رزق أرسله الله إليك ؟!

أجابت دارية نيابة عنه :

— بالطبع لا ...

أضاف إدريس :

— ونعم بالله ..

حسمت العجوز وهى تنهض على عكازها :

— من الغد نتوكل على الله !

نهضا معها ودارية تقول :

— لا يصح أن تخرجى هكذا .. العشاء جاهز !

أضاف زوجها فى حرارة متصاعدة :

— بماذا نكافئك يا خالة شالوية ؟!

سارت العجوز نحو الباب المغلق لتفتحه وتجول بنظراتها الخابية فى أرجاء البيت :

ــ مكافأتى هى حبكم لى .. لا تحاولوا أن تنزعوه من قلبكم !!

سبقها إدريس إلى خارج الباب قائلا :

ــ لحظة واحدة يا خالة شالوية !

فى حين سدت دارية الباب أمام العجوز :

ــ لا يعقل أن تتجشمى كل هذه المشقة .. وأن تأتى إلينا بهذا الخير .. ثم تخرجى هكذا !! حتى العشاء ترفضين تناوله !!

كانت العجوز منهمكة فى رصد أبواب الغرف المغلقة فى حين عاد إدريس وقد دس فى يدها مبلغا من المال حاولت رفضه بإباء شديد لكن يد إدريس كانت أقوى ، فاستسلمت العجوز فى حرج بالغ :

ــ فعل الخير عندى مكافأة فى حد ذاته ..

ثم التفتت إلى دارية :

ــ وأنت لا تترددى فى طلب أية خدمة منى .. خصوصا فى غياب زوجك .. فأنا أمك مهما وقع بيننا من ابتعاد ! أراكما بخير !!

ثم شقت طريقها إلى الخارج محاطة بإدريس ودارية التى فتحت لها باب البيت ليبتلعها الظلام فى حين سأل إدريس زوجته :

ــ هل كان من المفروض أن أوصلها إلى بيتها ؟!

أجابت دارية بثقة :

ــ إنها معتادة على التجول فى الظلام بمفردها .. كما أنها حصلت على أجرها !

ــ أتشكين فى نيتها ؟!

ــ لا أرتاح للتحولات المفاجئة !!

— السبب واضح .. فهى مشهورة بأعمال السمسرة !

— هل رأيت نظراتها وكأنها تحاول البحث عن شيء ما فى البيت ؟!

— الشائعات تملأ البلد .. ولابد أنها أثارت حب استطلاعها !

— أرجو ألا تغيب عنا طويلا فى دار موسى !

— أخائفة ؟!

— مشتاقة أكثر !!

— سأنتهى من المركب بأسرع ما يمكن !

ابتسمت دارية وأسرعت إلى غرفة فاطمة لتشاركهما طعام العشاء ، والإدلاء إليها بالنبأ الجديد .



(٦)

كانت شالوية سعيدة بخطتها التى نجحت فى معظم خطواتها و لم تتبق سوى الخطوة الأخيرة والكبيرة . سافر إدريس إلى دار موسى لترابط شالوية إلى جوار الساقية ، ونظراتها ترصد كل حركة وسكنة لدارية التى لم تلحظها ، إذ الطريق إلى سوق البلد وقلبها لم تكن تمر بالساقية الواقعة عند سفح الربوة الصخرية المطلة على النيل والتى ترفع المياه إلى شريط المزارع الضيق خلف بيت إدريس .

لم تكن دارية تغادر البيت يوميا بل كل يومين أو ثلاثة ، إما للذهاب للسوق أو للزيارة أو لتأدية واجب العزاء . وكانت شالوية تعرف نوع الزيارة من الملابس التى ترتديها دارية : أحيانا ترتدى الثوب الأسود الجرجار الذى يبدى من تحته ثوبا ملونا ، وتضع على رأسها وشاحا حريريا إذا خرجت للزيارة . وأحيانا يختفى الثوب الملون وتحل طرحة سوداء محل الوشاح الحريرى إذا خرجت للعزاء أو للسوق ! ثم تعود بعد ساعة أو ساعتين لتفتح الباب بالمفتاح تأكيدا لعدم وجود أحد بالبيت فى غيبتها !

كان اليوم يمر ثقيلا بطيئاً على شالوية وهى ترقب البيت من طلوع النهار حتى منتصف الظهيرة ، وفى الوقت نفسه كانت الأيام تكر بسرعة دون أن تتمكن من تنفيذ خطوتها الأخيرة قبل عودة إدريس من دار موسى . كانت تظن أنها لو قلدت صوت دارية ودقاتها على الباب فى غيابها فإن ذلك كفيل بأن تفتح لها فاطمة . لكن المفتاح فى جيب دارية أغلق الباب فى وجهها . ومما زاد الطين بلة إلحاح جاسر اليومى على شالوية عندما يزورها تحت جنح الظلام فى بيتها متذمراً من انتظاره كل يوم على أحر من جمر دون جدوى ، وكأنه كان يفقد الثقة فى كلمتها له يوما

بعد يوم !

لم يكن شيء يهز كيان شالوية قدر اهتزاز ثقة الآخرين فى كلمتها ووعدها ! ولذلك كانت على استعداد أن تفعل أى شيء حتى لا تفرط فى رأسمالها الذى لو فقدته فإنها ستفقد كل صفقات الزواج والسمسرة ، ويمكن أن يصبح سحرها نفسه كالأكاذيب والشائعات التى تسرى فى كلابشة مسرى الهواء فى الأنوف والصدور .

لم تجد بدا من الإسراع فى حسم المسألة برغم احتمالات الخطر والفشل . فالمحاولة الفاشلة يمكن أن تبرئ ساحتها ولو بعض الشيء فى نظر جاسر أما المراقبة المشلولة فمن شأنها أن تضيع كل شيء ! فى ذلك الصباح خرجت دارية للعزاء فأسرعت شالوية إلى الباب لتدق عليه دقات مسعورة ثم تصرخ وتلقى بجسدها المتصلب عليه . لكن أحداً لم يفتحه ! أعادت الصرخات مع دقات بمقبض عكازها فبلغ مسامعها تساؤلات مذعورة من الداخل :

— من ؟! من ؟!

أجابتها شالوية بتأوهات من يعانى من ألم ممض مع دقات خافتة على الباب الذى فتح فى حرص ليطل منه وجه كالهلال المشع بوميض الماس ورعب الوجدان ! نظرت إليها شالوية فى توسل وهى تمد يدها إلى قدمها لتقبلها :

— أنقذينى يا بنيتى .. فأنا أكاد أموت من الألم !!

انحنت عليها فاطمة وهى لا تدرى ماذا تقول أو تفعل :

— ماذا أصابك ؟!

انتابت العجوز رعشة عارمة سرت فى أعضائها مع نشوة طاغية بالانتصار

— كل ما أريده .. مجرد كوب ماء أو شاى !

تمالكت فاطمة نفسها ونظرت خارج الباب فى توجس ثم ساعدت العجوز على النهوض والاتكاء على عكازها لتغلق الباب خلفها وتجلسها على مقعد قريب .

و لم تشبع عينا شالوية من جمال فاطمة المشع : وجهها المتألق كشظايا اللهب فى الظلام ، وردائها الأبيض الفائح بعطر الصندل ، وأسنانها المتلألئة كحبات القرطم ، وعقد الشاوشاو الفضى المتراقص على صدرها ، وطيفها الأسمر الدافئ .
سألتها فى خبث :

ـــ أين دارية ؟! لم أعرف أن لديها ضيفة بهذا الجمال ؟!

ابتسمت فاطمة وقد ارتاحت لوصفها بالضيفة :

ـــ إننى مجرد ضيفة لبضعة أيام أعود بعدها إلى قريتى !!

أدركت شالوية حقيقة ذكائها الذى امتزج بجمالها فأمنت على كلامها :

ـــ فعلا .. سمعت أن لديها ضيفة من دار موسى ! هل أنت قريبة لها ؟!

ترددت فاطمة للحظات ثم أجابت سعيدة بثقتها المتنامية بنفسها فى حديثها إلى أول إنسان فى حياتها غير أبيها وأمها :

ـــ أنا ابنة أختها .. جئت لتأنس بى فى غياب عمى إدريس !

تذكرت شالوية أن عليها أن ترتعش وتتأوه فشرعت فى الأداء المتقن . هرعت فاطمة إلى المطبخ قائلة :

ـــ سأعد لك الشاى الساخن !

اختفت فى المطبخ فتوقفت شالوية عن الارتعاش والتأوه وهى تعد نفسها للخطوة التالية غير مصدقة نفسها أنها اقتحمت القلعة الحصينة بهذه البساطة . كان كل قلقها نابعا من احتمال عودة أمها وهى موجودة بالبيت دون مبرر مقنع . نهضت لتتوكأ على عصاها وقد عادت إليها الرعشة والتأوهات حتى توقفت بباب المطبخ :

ـــ جئت لإزعاجك وتعبك !!

صبت فاطمة الشاى فى الكوب :

ـــ أبداً .. أبداً !!

ــ لم أتشرف باسمك بعد !

فوجئت فاطمة بالسؤال لتتردد قليلا ثم تقول بثقة وهى تقرب الكوب من شفتيها الزرقاوين الدقيقتين :

ــ اسمى مرجانة !

ــ عاشت الأسامى !

رشفت شالوية الشاى رشفة رشفة وهى تقلل من الرعشة والتأوه حتى لا ينسكب من يد فاطمة . انتهت من الكوب بأسرع ما يمكن برغم البخار الكثيف المتصاعد منه حتى كاد لسانها أن يلتهب ! علقت فاطمة بقلق :

ــ أعتقد أنك أصبحت أفضل حالا !!

ــ بعض الشيء .. لكن يبدو أننى لن أستطيع الذهاب إلى بيتى بمفردى .. توشك ساقاى على الانثناء تحتى !!

بادرتها فاطمة دون تفكير :

ــ هل البيت بعيد ؟!

ــ خمس دقائق سيرا على الأقدام !

أرادت فاطمة أن تتخلص من العجوز بأسرع ما يمكن فارتدت ثوبها الأسود فوق الرداء الأبيض ، ثم تذكرت دروس الحرص والحيطة التى تلقتها على أيدى أبيها وأمها فأخذت مطرقة حديدية صغيرة من أدوات أبيها وأخفتها فى جيب ردائها الأبيض . هرعت تمسك بيد العجوز وتقودها لكنها توقفت قرب الباب :

ــ نسيت يا بنيتى غطاء وجهك ! لا أريد أن أسبب لك أى إحراج !

بسرعة البرق أحضرت فاطمة وشاحا حريريا أسود لتغطى به رأسها ووجهها ، كما أخذت مفتاح الباب فى جيبها بعد أن كانت على وشك أن تنساه ، وعدلت من وضع المطرقة الحديدية حتى لا تؤلم سنها المدببة بطنها ، ثم هرعت بالعجوز إلى الخارج حيث عشى وهج الشمس بصرها برغم الوشاح الأسود ،

ولفحتها السياط الذهبية الملتهبة ، لكن كان كل همها التخلص من العجوز والعودة إلى البيت قبل رجوع أمها من العزاء . أسرعت بالعجوز التى أدهشتها وهى تواكب خطواتها اللاهثة ، وكانت تظن أن انحناءها على عكازها ربما جعلها تنكفئ على وجهها .

تلاشى الارتعاش والتأوه لتنطلق العجوز كريشة تحملها الرياح حتى كادت فاطمة أن تستأذن لتركها تكمل الطريق بمفردها لكن أصابع العجوز على ذراعها كانت أسياخا من حديد ، برغم عودتها إلى الارتعاش والتأوه .

بدت الأشياء والبيوت والأبواب والأرصفة والطرقات عالما غريبا عجيبا فى عينى فاطمة السوداوين ببريقهما النافذ تحت الوشاح الأسود ، لكن لهفتها على التخلص من العجوز لم تترك لها لحظات للتعجب والتأمل ، وإدراك أبعاد المغامرة التى تورطت فيها دون أن تدرى ! ولذلك دعت الله من أعماق قلبها أن يعيدها إلى شرنقتها بأسرع ما يمكن ، خاصة عندما ألح عليها خاطر مرعب لبس ثوب سؤال انطلق إلى قلبها كطلقة رصاص :

ـــ ماذا يمكن أن يحدث لو عادت أمها إلى البيت فلم تجدها ؟!

سرت فى بشرتها الناعمة النضرة قشعريرة أوشكت على أن تصبح ارتعاشة لم تتغلب على بوادرها إلا عندما أشارت العجوز بذراعها المعروقة المرتعشة إلى بيت أبيض جميل ذى رصيف كبير ، من طابق واحد ، عظيم الاتساع ، كثير الزخارف والألوان وإن كان اللون الأحمر هو الغالب . والطيور ترفرف بأجنحتها فوق البيت . طيور ملونة وحمامات بيضاء تتهادى فوق الزخارف والفتحات الدقيقة الجميلة أعلى البيت . أما فى الفناء الجانبى فقد تبخترت بعض الدجاجات والأوز والبط حول وعاء ملئ بالماء حيث ارتفعت المناقير بقطرات متناثرة يمنة ويسرة .

فجأة أوشكت العجوز على أن تتهاوى عند الباب ، فتشبثت بذراع فاطمة متوسلة :

ـــ إننى أعيش وحدى فى بيتى .. فساعدينى فى الوصول إلى فراشى .. ثم توكلى على الله .. لن أنسى لك جميلك هذا !

أدارت العجوز مقبض الباب ففتح لتدخلا وتغلقه بسرعة مع كلمات فاطمة المتسائلة فى لهفة :

ـــ أين الفراش ؟!

عندئذ أتت الإجابة من صوت ذى رنين رددت الجدران صداه :

ـــ لا تتعجلى الفراش يا فاطمة !

نظرت فاطمة دون تفكير تجاه مصدر الصوت فوجدت جاسراً فى جلبابه الناصع البياض ، والواسع كالأجنحة المشرعة ، وعليه صديريه الملون ، وفى قدميه مركوبه الأحمر ! فى لحظات خاطفة مع ضحكات العجوز المكتومة دون تأوه أو رعشة أدركت فاطمة الفخ المنصوب لها . استدارت فوجدت باب البيت مغلقا بالمزلاج الأسود الكبير . عادت كلمات جاسر لتؤكد الكابوس الذى لابد أن تستيقظ منه بطريقة أو بأخرى :

ـــ أية صرخة أو استغاثة منك لا تعنى سوى فضيحة لك بجلاجل ! لم يجبرك أحد على أن تأتى إلى هنا !! ظن أبوك أنه يملك من الدهاء ما يستغفل به البلد كله !! لكنه لم يسأل نفسه : هل هناك دهاء يتحدى دهاء خالة شالوية وسحرها !!

انطلقت ضحكات العجوز هذه المرة دون حرج فى حين تركت فاطمة نفسها لغريزتها الأنثوية كى تقودها وهى تستعيد فى إصرار ثقتها فى إرادتها . فجأة ابتسمت فى عذوبة وهى تزيح الوشاح الأسود عن عينيها :

ـــ أعرف أنك جاسر ابن عمى الحبيب ! أحببتك منذ ذلك الفجر السعيد الذى رأيتنى فيه وتتبعتنى إلى بيتى ! رأيتك من طرف خفى فظننت أننى لم ألمحك ! منذ تلك اللحظات التى مرت كالحلم لم يغادر طيفك خيالى لحظة واحدة ! جننت

بك حبا .. بل جننت بك يأسا وبؤسا يوم تقدم أبواك لطلب يدى فأنكر أبى وجودى !

شعر فى وميض لحظة مبهرة أنها انضمت إلى قطيع المعجبات الولهانات ففقدت تفردها العجيب وسحرها الغامض . انتفخت أوداجه وقال وهو يجلس على مقعد مقابل :

ـــ كان يمكن أن تقتحمى الجلسة وأن تثبتى كذبهما بوجودك إذا كنت تحبيننى حقا !!

ـــ أنت تعلم سطوة الأب .. خصوصا أبى الذى عاهدته على الطاعة العمياء .. ولم يكن لى أن أخون عهده أو أن أخرج عن طوعه ؟!

ـــ والآن خرجت عن طوعه لتدخلى بيتى نفسه !! فماذا أنت فاعلة ؟!

أشارت إلى العجوز المبتسمة فى ازدراء واضح :

ـــ لو طلبت هذه العجوز أن تأتى بى إليك لأسرعت .. فهى ليست فى حاجة إلى مثل هذه الحيلة الساذجة !! كانت مشكلتى أننى لم أجد من يرشدنى إليك !! وهى لم تخدعنى ولم تخطفنى وإنما حققت لى أمنيتى التى طالما حلمت بها فى سهد الليالى .. لا أكاد أصدق نفسى أننى أمام معبود البلد وفتى أحلامى !!

ارتوى غرور جاسر وترعرعت نرجسيته :

ـــ الحب ليس كلمات معسولة وإنما أفعال ملموسة !

لم ترتح لغمزة عينه اليسرى :

ـــ كان وجودى مثل عدمه فى نظر أبى .. والآن أصبح وجودى فى نظرك الوجود كله !!

لم يتصور أنها بهذه القوة والرسوخ :

ـــ سنثبت هذا الآن !

أرادت أن تكسب وقتا لعلها تجد ثغرة تنفذ منها :

ـــ كم كنت أتمنى أن يأتى اليوم الذى يتغنى فيه الشعراء بسحرك وأن تمسك بمنجلك الفضى !

ثم راحت تغنى له كالمشدوهة المسحورة :

ـــ اصنع لك منجلا فضيا يا سليل الأخيار
وقف على حد أرض أبيك فى وجه الإعصار
وبالمنجل الصغير اقطع وهذب سعف النخيل
ولاعب به شباب القرية أيها الشاب النبيل

صفقت العجوز طربا لنجاح خطتها وحصولها على بقية المكافأة السخية . أما جاسر فكان يلتهم فاطمة بعينيه وهو يلوم نفسه على ظهوره بمظهر العاشق الولهان الذى كاد يموت من فرط حبه لها منذ رآها عند الساقية فى غبش الفجر المبكر ، فى حين أنه حصل عليها كوجبة شهية لم يكلف نفسه فى إحضارها إلى بيته . صاح فيها منذراً :

ـــ هل سنقضى النهار فى الغناء ؟!

نهض واقترب منها لكنها لم تهتز . قالت وهى تستجمع ما تبقى من شتات عقلها :

ـــ يا ابن عمى .. حبى لك لا جدال فيه .. لكننى أحب أن أكون لك فى الصورة التى أتمناها لنفسى ولك .. أن أكون جميلة أناسب سحرك .. طيبة الرائحة .. وقبل أن تأتى إلىّ العجوز كنت على وشك الاستحمام .. فلم أستحم منذ عدة أيام .. والآن أشم رائحة العرق خاصة بعد سيرى فى لهيب الشمس لأول مرة فى حياتى .. فلو أنى فزت بحمام ساخن لانتعشت وصرت كما أشتهى لنفسى أن أكون بين يديك !

قالت العجوز فى سعادة غامرة :

— أنت على حق يا بنيتى .. فالجسد النظيف المعطر يطير بالعاشق بين السحاب !

عندئذ صرخ فيها جاسر فى حماس ونشوة :

— تحركى يا خالة شالوية .. أعدى الماء الساخن !

وفى لحظات كان موقد الغاز يزأر داخل الحمام الصغير الذى دخلته فاطمة لتغلق الباب خلفها وقد تلفح وجهها بحمرة الخحل العذرى . من الداخل صدرت صيحات عالية لأوزة فقال جاسر لشالوية :

— أصرت أمى اليوم على ذبح ذكر الأوز هذا بحجة أنه بلغ من العمر أرذله .. ويقوم بنتف ريش الإناث وتعذيبهن بمنقاره ومخالبه .. ولذلك حبسته اليوم فى الحمام لتذبحه بعد عودتها مع أبى من المزرعة !!

ضحكت شالوية فى صرير مشروخ :

— وربما كانت تريد أن تحتفل بشفائك ؟!

— اليوم سيتم شفائى كاملا على يديك !

أطلقت العجوز صوتها الأجش بغناء منتش :

— إلى أن تطلع نجوم الفجر يا إدريس
ليلة زفاف ابننا وحبيبنا العريس
ستغمر الفرحة الحركة والسكون
ضع أطايب العطر المكنون
والبس قميصا أبيض مفتوحا
كى يبدو صدرك نافرا لحوحا
ضع على رأسك عمامة ذات أطراف
ترقص مع الهواء يا كامل الأوصاف
علق الخنجر على ساعدك الأيسر
وعلى يمناك احمل السوط الأسمر !!

صفق جاسر طربا وانطلق ينشد بصوته الرنان الجميل الذى طالما سحر الناس فى الليالى الملاح :

— يا أمى احملى الأجُلْ بيديك
وضعى فيه العطور بكفيك
بفرحة وزغاريد كتغريد البلابل
وادعى جاراتك ذوات الجمايل
لتطحنى معهن البذور الزيتية
ذات الرائحة السحرية قبل مزج المحلبية
بعطور القرنفل الملاح
ورشى عليه المسك الفواح
ما أسعدنا ما شاء الله
السعد وعد إن شاء الله .

ثم توقف كمن تذكر شيئا :

— منذ الصباح تلح علىّ قصيدة لم أتمكن من أوزانها بعد ... ومع ذلك تريد أن تخرج وتضرب بالأوزان عرض الحائط !

ربتت العجوز على ظهره :

— قبل أن ينزل عليك الوحى .. أنا فى انتظار نزول بقية المكافأة علىّ !! فقد قمت بتوصيل الطلبات إلى المنزل !!

ضحك جاسر وانطلق فى خفة الغزال ليختفى داخل غرفته لحظات ثم يعود ليدس فى يد العجوز مبلغا سمينا تحسسته دون أن تعده ثم دسته فى جيب ردائها .

أسرعت إلى باب الحمام لتدق عليه صائحة :

— أسرعى يا فاطمة !!

جاء صوتها ممتزجا بزئير موقد الغاز وصياح الأوزة ورنين عقد الشاوشاو

المعلق على صدرها :

— حالا .. يا خالة شالوية !

ثم غمزت شالوية بعينها وقالت لجاسر بصوت خفيض :

— أريد أن يتم المراد بأسرع ما يكون قبل عودة أبيك وأمك !!

— لا تخافى ! لدينا متسع من الوقت !

ثم وقف يناجى باب الحمام :

— مثل عود السيسبان

تأملوا خطوتها المختالة عند الدجى الهيمان .

ورقصة ضفائرها الطويلة كالبلبل الحيران

ما أجمل وجهها بالوشم والكحل

ولفتاتها عقدا منثورا من الفل

والحلى ترقص على صدرها كالسمك البلطى

وتسرع فى خطوات كالغزال

الجميلة الساحرة ذات الحجال

سلمت علىّ بيد مخضبة بالحناء

منذ لحظتها روحى تضطرب بالخوف والرجاء

تطاردنى فى ليل طويل نسجته أحلامى

لا تفارقنى صورتها فى يقظتى ومنامى

ليتنى لم أحبها كى أنجو من اللهيب

أصبحت عصفورا فى فخ صياد لبيب

إن حشاشة قلبى وروحى تحترقان

كحبات القمح المشوية على الموقد النعسان

وبقلوب غضة كأطراف أوراق الشجر

تنطلق ضحكاتها لترد الروح للحجر
على جبهتها وشم كالهلال
تقطر شهدا بنظرات الدلال
لا أعرف متى رأيتها وأين ؟
ولا من هى ولا من أنا !
اختلط علىّ الأمر وبها ارتهن
فما عدت أدرك الزمن !

مع نهاية الغناء أحرقت نيران الشوق قلب جاسر فأوشك بقبضته أن يحطم باب الحمام ، لكنه تمالك يده فى اللحظة الأخيرة . كان رنين عقد الشاوشاو على صدرها نغما للنشوة فى قلبه برغم زئير الموقد وصياح الأوزة . دق الباب طرقات خفيفة لكن أحدا لم يرد ! نادى بصوت كله نغم ودلال :

ـــ فاطمة ! فاتى ! فاتى ! فاتى ! فاتى !

لكن أحدا لم يرد ! أعاد الطرق والصياح فلم يسمع جوابا برغم رنين الشاوشاو المتواصل . صاحت العجوز :

ـــ ربما أغمى عليها ! حطم الباب يا جاسر ! أسرع ! لا نريد للفرح أن يتحول إلى مأتم !

انهال جاسر كالمجنون على الباب باللكمات والركلات الفولاذية حتى حطم المزلاج ليرى الأوزة تستحم فى الماء المعد لاستحمام فاطمة وقد التف عقد الشاوشاو حول عنقها وهى تضرب بجناحيها فى الطست سعيدة بالماء المتناثر ! مسح الحمام بعينيه فلم يجد أثرا لفاطمة ! غمرته أمواج الذهول المتصاعدة عندما ثبتت نظراته على نافذة الحمام الصغيرة فوجد الشبكة السلكية التى تسدها قد تمزقت إلى الخارج بعد أن خلعت بعض المسامير المثبتة لها . انطلق كالمسعور ليطل منها لكنه لم يجد أثرا لفاطمة ! كاد يلطم وجهه لكنه تماسك وانطلق إلى خارج

الحمام ليصطدم بشالوية التى سقطت على ظهرها ذاهلة . لم يعبأ بها بل فتح باب البيت يمسح الطريق بعينيه لكنه لم يجد أثراً لها . ترك ساقيه للريح لكن يبدو أنها سبقت الريح ! عاد منكس الرأس ، كسيف البال وهو يؤنب نفسه على غفلته أمام هذه الفتاة العجيبة التى لم ير مثلها من قبل ! كيف تمكنت من تحطيم الشبكة السلكية وهى التى تسير كالحلم ؟! هل يمكن أن تكون على صلة بجنيات البحر ؟! أو يمكن أن تكون هى واحدة منهن ؟! كيف تبخرت أحلام النشوة هكذا فى غمضة عين بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى لتتحقق فى دنيا الواقع ؟! صاح بصوت جريح :

— أنا المغفل الذى سمح لها بالسخرية منه ؟! وأنت أيضا .. تحمست لدخولها الحمام ؟!

خافت شالوية على المبلغ الملاصق لصدرها وقلبها من أن يسترده جاسر فقالت بنبرات هادئة بقدر الإمكان :

— ما زال الموقف فى يدك ! وستظل كعادتك سيد الموقف !

حدق فيها بدهشة متسائلة :

— كيف يكون الأمر بيدى وقد عادت إلى بيتها ونجت من المصيدة ووعت الدرس الذى سيجعلها أشد حرصاً من أن تقع فى يدى مرة أخرى ؟!

تدفق التساؤل المسموم من ابتسامتها الصفراء :

— هل نسيت العقد الفضى الذى لا يزال حول رقبة الأوزة وعليه نقش اسمها ؟! هل هناك دليل أقوى منه ؟!

لمعت عينا جاسر ودق فيه نبض الحياة ومضى يكز على أسنانه ويطرق الجدار بقبضة يده :

— نعم يا خالة شالوية .. ظننت أنها أفلتت منى !! سوف ترى من هو جاسر

.. لم يعد الأمر عشقا لها وإنما سعى حثيث للانتقام منها !! ما عاش من يحاول السخرية منى والاستهزاء بى !!

ثم دخل الحمام ليخلع عقد الشاوشاو الفضى من رقبة الأوزة ويقرأ نقش اسم فاطمة عليه . قبض عليه بكل قوة أصابعه وهو يقول للأوزة فى تشف :

ـــ كانت أمى على حق ! أنت تستحقين الذبح !

لكنها واصلت الصياح الجزل وضرب الماء بجناحيها ومنقارها !!



(٧)

جن جنون دارية وطاش صوابها عندما عادت إلى البيت من واجب العزاء فوجدته خاليا من فاطمة ! هل يمكن أن تصدق عينيها أم أنها ترزح تحت وطأة كابوس ثقيل لا تلبث أن تفيق منه ؟! هل يمكن أن يكون قد وقع لها مكروه ؟! اقتحم أحدهم البيت واختطفها أو قتلها ؟! جرت إلى الباب لتتحسسه فلم تجد آثار عنف ! لا يمكن أن تكون قد خرجت برغبتها وهى التى حرمت من مجرد رؤية الساقية والنيل منذ رآها جاسر ؟!

دون أن تدرى وجدت دارية نفسها وهى تلطم خديها وتكاد تصرخ وتولول لولا خوفها من انطلاق صرخاتها إلى خارج البيت ! أين أنت يا فاطمة ؟! أين أنت يا نور عينى ؟! ماذا يمكن أن يفعل إدريس إذا عاد من غيبته ليجد أمل حياته قد تبخر فى غمضة عين ؟ يا رب أخرجنى من هذا الكابوس ! هل تعاقبنا على إنكارنا للنعمة التى أكرمتنا بها فأردت أن تحقق لنا ما نقوله للناس ؟! هل كان دهب على حق لأننا كفرنا بنعمتك ؟! يا رب أعدها إلينا وسنعلن وجودها على الملأ فى عز النهار !

كانت تدور فى البيت كمن أصابها مس من شياطين البحر ! هل يمكن أن يكون هورين بتى جرين ساوجو الذى يحمل المخطوف فى كيس بظهره قد اختطفها وهى ذات الإيمان الضعيف بهذه المخلوقات الأسطورية ؟! فتحت الباب أكثر من مرة لعلها تلمح طيفها قادما لكنها لم تر سوى لهيب الشمس يلسع بسياطه ظهور بعض العجائز فى الطريق ! هل يمكن أن تنطلق فى الطرقات وتصرخ منادية عليها ؟! أوشكت صرخة على أن تشرخ حلقها وتنطلق لكنها سرعان ما كتمتها !

لن يرضى الله بعقابهما هكذا ! فلم يكن هدفهما سوى الحفاظ على نعمته وصونها !

لفحتها فكرة محمومة كلهيب الشمس على الطريق ! هل يمكن أن يكون جاسر قد اختطفها ؟! خاصة وأن فاطمة لم تخف عليها ميلها الدفين إليـه ؟! لكن كيف ؟! هل يجرؤ على مثل هذه الفعلة الشنعاء وهو ابن عمها المفروض فيه أن يصونها ؟! هل اتفقت معه على الهرب خاصة وأنها كانت تتركها فى البيت ساعات بأكملها ؟! هل أغراها أم خدعها وهو الذى أتقن فنون الإغراء والخداع مع الفتيات اللاتى اختبرن الحياة ؟! فما بالك بفاطمة التى لم تر الحياة ؟! لكن ليست فاطمة المطيعة النقية الطيبة هى التى تترك نفسها للمجهول هكذا وهى التى تشربت قيمهما بذكاء فطرى تحسد عليه ؟!

ومضت عينا دارية بشعاع أسود خارق ! جرت لتبحث عن المفتاح الآخر الذى اعتادت أن تتركه تحت الوسادة أو فى المسمار المعلق خلف النافذة فى غرفة النوم فلم تجده ! وفاطمة كانت دائما على علم بمكان المفتاح فلم يكن هنا سر يخفى عليها أو يخافان عليها منه ! لابد أنها خرجت والمفتاح معها ! لكن كيف ومتى وإلى أين ؟! أطفأ اختفاء المفتاح بعضا من السعير الذى يشوى قلبها ! لا يوجد إنسان على وجه البسيطة غير جاسر الذى أغراها بالهرب لوضعهما أمام الأمر الواقع !! لن تظل هكذا فى البيت كالوحش فى القفص !

فتحت الباب وأطلت على الطريق فإذ بها ترى شبح فتاة تخفى وجهها بوشاح أسود وتتسلل فوق الرصيف الكبير بخطوات خفيفة مهتزة ! حدقت دارية مع اقتراب الشبح لتتبين فاطمة ! فابنتها لن تخفى عليها مهما تخفت ! وجدت لسانها يلهج : الحمد لله ! الحمد لله ! كانت على وشك أن تهرع إليها لتحتضنها لكنها خافت من العيون الخفية ، فلهفتها الحارقة يمكن أن تنتظر للحظات أخرى ! لكن خطوات فاطمة المهتزة كانت تتحول إلى ارتعاشة كلما اقتربت من البيت وكأنها

على وشك السقوط إعياءً أو رعباً !

بلغت الباب فأمسكت أمها بيدها وجذبتها إلى الداخل وأغلقت الباب لتنهال عليها بأسئلة محمومة كأسنان الحراب المحماة وهى تخلع الوشاح من على وجهها :

— ماذا جرى يا فاطمة ؟! أين كنت ؟! وما هذه الجروح فى خدك وذراعيك ؟! وما الذى مزق رداءك هكذا ؟!

أمسكت ذراعيها وهزتها بعنف :

— أجيبى بالله عليك !

انفجرت فاطمة باكية فى حرقة وارتمت فى أحضان أمها التى احتوتها فى حنان دافق وسارت بها إلى غرفة النوم لتجلس بجوارها على حافة الفراش وهى لا تزال تنتفض كريشة فى عاصفة رملية ! قبلت أمها رأسها فى تساؤل ملح :

— هل اعتدى عليك جاسر ؟!

خرج صوتها متقطعاً مع انتفاضاتها :

— قلبك دليلك يا أمى !!

شهقت دارية ودقت على صدرها صارخة :

— شرفك يا إدريس تمرغ فى الوحل !

قاطعتها ابنتها كالمسعورة :

— لا تقولى هذا !! شرف أبى فى الحفظ والصون !!

— بالله عليك !! احكى لى كل شىء ! كفى ما جرى لى اليوم !!

— كان كل همى أن أصل إلى البيت قبل عودتك من العزاء !

— ليس هذا وقته ماذا جرى ؟!

حكت فاطمة لأمها كل ما جرى وكيف حاصرها ابن عمها ، وما فعلته لتنجو بأن وضعت عقد الشاوشاو فى عنق الأوزة ليوشى رنينه بوجودها فى الحمام ، ثم خلعت المسامير المثبتة للشبكة السلكية فى النافذة وعندما عجزت المطرقة عن خلع

المسامير التى أصابها الصدأ مزقت جانبى الشبكة لتقفز من النافذة وتهرول خارجا غير عابئة بجروح وجهها وذراعيها وتمزقات ردائها ووشاحها !

انهالت دارية على ابنتها بالقبلات المبللة بالدمع الحار والعرق الساخن ثم تركتها لتحضر لها كوبا من الماء المحلى بالسكر وتهدئ من روعها :

ـــ سيكون كل شىء على ما يرام !!

ـــ كيف وعقد الشاوشاو الفضى عنده ؟!

عادت إلى الأم طبيعتها العملية الحاسمة وسيطرتها المعتادة على مقاليد الأمور بعد أن قهرت فى داخلها الخوف والقلق :

ـــ لا تخافى .. سأذهب غداً إلى الصائغ وسأمنحه ما يطلب لصنع صورة طبق الأصل من الشاوشاو وعليه اسمك لتعلقيه مرة أخرى على صدرك وكأن شيئا لم يحدث !

ـــ وإذا حاول أن يستغل العقد الأصلى لإذلالى ؟!

ـــ ساعتها سيكون ابن العم الذى يحاول تلويث شرف الأسرة كلها ! فلن يستطيع أحد التفرقة بين العقد الأصلى والعقد التقليد !

ـــ وبالطبع سيظن الجميع أنه هو الذى ذهب إلى الصائغ لصناعة العقد التقليد !!

ـــ أى صائغ يمكن أن يقلده ويمكن أيضا أن ينكر قيامه بهذه العملية لقاء رشوة من جاسر !!

ـــ وهل ستخبرين أبى بما جرى ؟! أنت لم تعتادى أن تخفى عليه شيئاً !!

ـــ لا أدرى ماذا أفعل بالضبط يا فاطمة ! أنت أدرى بطبيعة أبيك فيما يتصل بهذه الأمور ! الشرف عنده أغلى من الحياة ! ومجرد إغراء جاسر أو خديعته لك لابد أن يرى فيه تلويثا لشرفه حتى لو كانت العواقب سليمة !

انتهت فاطمة من رشف الماء المحلى بالسكر لتضع الكوب الفارغ فى ثنية الرداء

بين ساقيها :

ـــ وماذا لو أشاع جاسر الخبر على سبيل الانتقام ؟!

ـــ ذنبه على جنبه ! فليس لديه أى إثبات أو دليل !!

ـــ شالوية يمكن أن تشهد علىّ !!

ـــ لا يوجد مجرم على استعداد ليشهد على جريمته !!

ـــ كم كانت هذه العجوز كريهة ومقززة ؟!

ـــ لم أكن لها فى حياتى سوى مشاعر الريبة والشك والضيق ! حتى عندما فاجأتنا بزيارتها إياها قلت فى نفسى : هذه المرأة لا تفعل شيئاً لوجه الله أبداً ! وسرها الباتع ليس سوى خداع وتآمر وخسة ونذالة !

ـــ كان كل همها أن تبعد أبى عن المنزل أطول مدة ممكنة لتنفيذ خطتها الدنيئة !!

ـــ الله لا ينسى عباده الطيبين !!

غمرت مسحة من الأسى والحزن وجه فاطمة :

ـــ ما يحزننى حقا .. كيف سمح جاسر لنفسه أن يتآمر مع هذه العجوز الكريهة على ابنة عمه التى لا تكن له سوى كل حب واحترام ؟!

عادت دارية إلى احتضان ابنتها :

ـــ وهل تحبينه حقا يا فاطمة ؟!

ـــ لا أدرى بالضبط .. لكننى حزينة حزنا مريراً !!

أدركت دارية أن حب جاسر متربع على عرش قلب ابنتها برغم كل ما جرى منه :

ـــ إنه طفل مدلل لا يحتمل الفشل فى الحصول على أى شىء يريده !!

ـــ وهل أنا مجرد شىء ؟!

ـــ هكذا الأطفال المدللون .. يطيش صوابهم ويركبهم الجنون لأنهم لا يدركون الحدود بين ما هو لائق ومعقول وبين ما هو سخيف وطائش ! بين

البشر والأشياء !

ــ هل يعنى ما جرى اليوم أن يرفض الإنسان صنع الخير للآخرين ؟!طالما أن الدنيا لم يتبق فيها سوى الغش والخداع !!

ــ الخير ضرورى .. والحرص ضرورى أيضاً !!

ــ لولا الحرص لما أخذت معى المطرقة ولعجزت عن الهرب ووقعت الكارثة !

تحسست فاطمة المطرقة فى جيب ردائها بحنان وإعزاز شديدين :

ــ أضعت الشاوشاو وعدت بالمطرقة !

ربتت الأم على رأسها :

ــ بعد يومين سيكون العقد عندك ! هيا إلى الحمام .. سأعده لك .. أريدك أن تغتسلى من كل ما جرى اليوم !

بدا شبح ابتسامة متسللا إلى ملامحها الدقيقة الرقيقة :

ــ أصبحت أخاف الاستحمام !!

لكزتها أمها فى ذراعها ضاحكة :

ــ لم ينقذك شيء غيره !!



(٨)

على أحر من جمر انتظر جاسر عودة عمه الغائب ، لكن الأيام مرت بطيئة متثاقلة فى حين كانت الشائعات تسرى فى الأزقة والنواصى والحقول والبيوت مسرى لهيب الشمس فى النهار ووميض القمر عندما يرخى الليل سدوله . لم تلتزم شالوية الصمت، إذ كانت أشد حرقة من جاسر من جراء خروج فاطمة من الفخ المحكم مثل الشعرة من العجين ! أشاعت أن فاطمة لم تحتمل لواعج الهوى التى أشعلها جاسر داخلها فذهبت إليه بنفسها لتضع أباها عند عودته من دار موسى أمام الأمر الواقع ، بل إنها لم تكتف بوصالها بل منحته عقد الشاوشاو الفضى تذكارا لزيارة الغرام السعيد ودليلا دامغا لكل من يشك فى حقيقة الواقعة !

بلغت الشائعات مسامع دارية لكنها لم تبلغها لابنتها ، خاصة وأن عدم اليقين عند بعض الأهالى من وجود فاطمة أصلا جعلهم يتقبلون الأمر كله بشك وتكذيب وإن لم يمنعوا أنفسهم من خوض بحار الثرثرة خاصة فى مجالس المساء . كان كل هم دارية متمثلا فيما سوف تفعله عند عودة زوجها الذى لابد أن تبلغه الشائعات بطريقة أو بأخرى . صحيح أنها حصلت من الصائغ على عقد طبق الأصل من القديم الذى استولى عليه جاسر ، لكنها تعلم مدى ذكاء زوجها ودهائه ولذلك لن يمر الأمر ببساطة ، وكل ما تتمناه ألا يصبح شرف العائلة فى الميزان ، فهو المسألة التى يمكن أن يصل زوجها فيها إلى نهايتها مهما كانت نتائجها المأسوية .

كان السؤال الذى يطاردها فى صحوها ويضطهدها فى منامها هو : ماذا ينوى جاسر أن يفعل !! هل هو الهدوء الذى يسبق العاصفة ؟! الموقف حرج ومعقد

وينبئ بكوارث ، لكنها كلما تذكرت كيف أنقذ الله ابنتها ووحيدتها فإن برد الراحة يسرى فى جنباتها الملتهبة بتفاؤل حذر يوحى إليها بأن الله لن يتركها وسيتم جميله وفضله عليها . كذلك فإنه إذا كان جاسر طائشا ، مغرورا ، مدللا فإنه لا يمكن أن يكون نذلا خسيسا ، والدليل على ذلك أنه أنكر كل الشائعات التى أثارتها شالوية سواء أمام أبويه أو أصدقائه ، بل هدد بقطع لسان كل من تسول له نفسه أن ينشر هذه الشائعات الكاذبة المنحطة !

أخيرا عاد إدريس من غيبته حاملاً خبراً سعيداً لزوجته وابنته . ففى المساء بعد أن سرى الحمام الساخن بالاسترخاء فى جسم إدريس الذى جلس إلى مائدة العشاء مع أسرته الصغيرة ، قال لزوجته مبتسما فى سعادة :

ـــ ألم أقل لك يا دارية أن النصيب لابد أن يصيب صاحبه حتى لو وضعناه فى قمقم ؟!

استشعرت دارية بغريزتها خطراً داهماً لكنها تماسكت :

ـــ لم نر على يديك سوى الخير كله .

تناول إدريس ملعقة من مربى البلح :

ـــ صارحنى مبروك الكبير وأنا على وشك الانتهاء من صناعة المركب أنه سمع الشائعات التى تناقلتها الألسن عن ابنتى ..

توقف إدريس عن الكلام لينتهى من مضغ المربى التى يعشقها لأنها من صنع يدى زوجته ، فى حين تحولت عيون دارية وفاطمة الجاحظة إلى ومضات خوف وذهول لم يلحظها إدريس الذى استأنف حديثه :

ـــ قال الرجل إنه إذا كانت لى ابنة بالفعل فإنه يتشرف بطلب يدها لابنه الأصغر !

كانت كلمات دارية طلقات رصاص متسائلة :

ـــ وماذا قلت له ؟!

واصل إدريس حديثه المتأنى :

ـــ قلت له : هذا شرف كبير .. لكن ما العمل إذا كان ابن عمها جاسر يريد أن يتزوجها برغم أنه لم يرها وليس متأكدا من وجودها ؟! ومع ذلك أجاب الرجل الحكيم بأن هذا الوضع يشجعهم على أن يتم كل شىء فى دار موسى ولا من شاف ولا من درى !

لم تستطع دارية أن تلتزم الصمت :

ـــ وأنت ما رأيك ؟! ماذا قلت له ؟!

ـــ لم أحسم الموضوع .. طلبت منه أن أستشيرك أولا .. وآخذ رأى فاطمة أيضا ..

ثم نظر إلى فاطمة التى أرخت جفنيها لكن الصمت ساد فقطعته :

ـــ الرأى رأيك يا أبى .. لكننا لانعرف عنه شيئا .. كما أنه ليس ابن عمى .. ولن يظل الأمر سراً .. فماذا نحن فاعلون لو علم جاسر بالزواج ؟! هل سيتنازل عن حقه كابن عم ببساطة وهو الطفل المدلل العنيد ؟!

سعدت دارية بحكمة ابنتها المبكرة فاكتفت بما قالته فى انتظار رد زوجها الذى قال مستدركا :

ـــ هذا الولد لا يريد أن يحل عنا .. قابلنى اليوم بمجرد أن وضعت قدمى على الشاطئ وكأنه كان على علم بميعاد وصولى .. وأعرب عن رغبته فى مقابلتى لأمر هام وخطير !!

تساءلت دارية دون تفكير :

ـــ هل عاد لموضوع فاطمة مرة ثانية ؟!

ـــ سألته هذا السؤال لكنه قال إن الموضوع أخطر من هذا بكثير ورفض أن يفصح عنه إلا فى لقاء خاص بينى وبينه فى البيت !

ومضت عينا فاطمة ، كأنها على وشك أن تتفوه بكلمة لكنها التزمت الصمت

فتساءلت الأم :

— إنه ولد مريب .. وسمعته أصبحت على كل لسان !

— لا أخفى عليك إنه أثار قلقى .. خاصة وأنه طلب أن تكون المقابلة سراً .. وفضل أن تكون فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن يكون الناس قد استغرقوا فى النوم !

وقعت دارية بين شقى الرحى : بين ارتياحها لتأكدها أن الشائعات لم تضرب مسامع زوجها بعد وبين هجوم جاسر المفاجئ المباغت الجرئ ! تركت نفسها لأمواج التأمل تارة والشرود تارة أخرى حتى سألها زوجها :

— هل وقعت فى القرية أحداث فى غيبتى دفعته إلى طلب الزيارة ؟!

استجمعت دارية كل قدرتها على المبادرة فى مواجهة السؤال الذى اجتاح عقلها بإعصار من الشك :

— لم يحدث شيء على الإطلاق ! كما أنك لست العمدة حتى تكون مسئولا عن القرية ! يكفيك كفاحك ليل نهار وغربتك الطويلة من أجلنا !

— عموما قررت أن أحسم الموضوع وأقابله اليوم قبل انتصاف الليل !!

— أين ؟!

— هنا طبعا ! وسأقابله بمفردى !

— أود أن أكون معك ! حتى أقوم على خدمته !

— لن يخدمه أحد فى نصف الليل ! هى كلمة ورد غطاها !

— ربما يحاول أن يكذب عليك بأخبار ملفقة مستغلا فترة غيابك حتى يجبرك أو يغريك على الموافقة على زواجه من فاطمة !!

— أخبار ملفقة مثل ماذا ؟!

أحست دارية أن لهفتها أوشكت أن تمزق قناع الطمأنينة والثقة الذى ألصقته بوجهها فاستدركت :

ـــ أى أخبار !! فهذا الملفوت لا يملك سوى الشائعات والأكاذيب ـــ ولا أعتقد أن هناك موضوعا يمكنه الحديث فيه غير موضوع فاطمة .. فهو لا يعرف سوى اللهث وراء الفتيات محاولا الإيقاع بهن .. وكأن شرف البنات لعبة بين يديه .. وربما شوه سمعة بنت بريئة بأكاذيبه مما قد يعرض حياتها للخطر !

سكتت لالتقاط أنفاسها وأفكارها خوفا من فلتات اللسان فقال لها فى دهشة متسائلة :

ـــ أراك متحاملة عليه الآن أكثر من اللازم ؟! هل بدر منه ما يوجب إيقافه عند حده ؟!

حاولت دارية أن تتجنب العثرات فى اندفاعها المحموم :

ـــ إنه سادر فى غيه دون أن يوقفه أحد عند حده .. ولا يفعل الناس سوى التندر بمغامراته فى جلسات الثرثرة المسائية .. وكأنهم يساعدونه فى نشر شائعاته وأكاذيبه !! هل نسيت حكاية فاتى .. وحكاية سادا .. وحكاية زينب ..

قاطعها إدريس :

ـــ هذه كلها حكايات قديمة !!

ـــ وستظل جديدة إذا لم يرتدع !! أين نخوة الرجال ؟!

ـــ كل رجل مسئول عن شرفه !! وطالما أن فاطمة فى الحفظ والصون فأنا لست العمدة المسئول عن شرف كل بنات كلابشة .. أليس هذ كلامك ؟!

استسلمت أخيراً حتى لا تتوغل فى منطقة أكثر وعورة :

ـــ اللعنة على الزمن الذى جعله قريبا لنا !!

كانت فاطمة تتابع الحوار بخوف دفين من معركة قادمة لا يعلم مداها سوى الله . نهضت متظاهرة بعدم الاهتمام :

ـــ سأذهب لأنام .. فلتصبحا بخير !

ثم دخلت غرفتها وأغلقت بابها خلفها فى حين قال لزوجته :

— وأنت أيضا اذهبى لتنامى .. سأخرج لأجلس فى الشرفة حتى لا أمنحه فرصة لدخول البيت والتلصص علينا .

ذهبت دارية إل غرفتها وهى تدرك تماما أن النوم أو حتى مجرد النعاس لن يعرف طريقه إلى عينيها أو عينى فاطمة . فهما الآن لا تملكان إلا انتظار ما سوف تأتى به الأقدار . أما إدريس فقد خرج إلى الشرفة ليجلس على الأريكة الحجرية وقد انتشر جلبابه الأبيض الواسع ليغطى نصفها .

بدت البيوت مكعبات بيضاء فضية فى ضوء القمر وقد نامت القرية بين طيات السكون والنعاس . تألق القمر كقطعة من الماس وكأنه لم يجد بقعة على وجه الأرض يكشف فيها وجهه بهذا الوميض سوى هذه . كذلك تناثرت النجوم فى فضاء القبة المعتمة وهى تومض وتخبو كشظايا ماسية فى سكون أبدى .

كم أحب إدريس هذا السكون الذى يناجى فيه نفسه ويراجعها ! تذكر شالوية وفضلها عليه وكيف يرده لها ! لقد حصل من صناعة المركب على ما يزيد على تكاليف تجهيز عرس فاطمة التى قد يكرمها الله وتتزوج من آل مبروك وتذهب للعيش فى دار موسى ! لكن ما هو الأمر الخطير الذى طلب جاسر أن يأتى من أجله وفى عينيه بريق لم ير مثله من قبل و لم يفهم له معنى بل وأفقده الصبر فلم يطق أن يمر اليوم دون أن يعرفه ! إن القلق يتسرب إليه مع السكون ، خاصة بعد أن أحس بنذره فى حديث دارية معه ، وبعد أن رأى حزنا دفينا فى عينى فاطمة الجميلتين ! هل تهجم عليهما فى غيابه ؟! مستحيل !! فبلاد النوبة بأسرها لم تعرف فعلة مثل هذه من قبل ! وقد أنكر أن للموضوع علاقة بفاطمة ، فهو أخطر من ذلك بكثير ! عموما إذا سعى هذا الولد إلى المكر والخداع فلن يعود من مسعاه سوى بخيبة الأمل ! فلم يتبق سوى العيال كى يلغبوا بالكبار !

بدا شبح فى ضوء القمر يخب المسير فى جلبابه الأبيض وهو ينظر يمنة ويسرة . أمالت خطواته المتعجلة أطراف جلبابه الواسع إلى أجنحة مشرعة ، وعليه صديريه

الملون ، وفى قدميه مركوبه الأحمر . صعد على الرصيف الكبير ثم الدرجات الحجرية المؤدية إلى الشرفة فنهض إدريس لاستقباله ومد يده التى انحنى عليها جاسر لتقبيلها لكنه جذبها منه وهو يرد السلام بنبرة مقتضبة ثم يجلس وإلى جواره جاسر الذى واجه سؤال عمه دون مقدمات :

ــ خيراً ! ما هو الموضوع الخطير الذى جئت من أجله ؟!

لم يعبأ جاسر بنبرة السخرية فى سؤال عمه ! ضبط العمامة البيضاء على رأسه قائلا :

ــ أرجو ألا تتهمنى بالكذب يا عمى ! فقد قلت لك إنه أخطر من موضوع فاطمة .. لكنه متعلق بها أيضا !!

أدرك إدريس فى الحال مكر ابن أخيه فانحسرت أمواج القلق داخله لتطغى عليها هبات الدهاء الذى شرع أسلحته فقال بصوت خفيض متأن :

ــ أنت يا جاسر عندى بمنزلة الابن .. ولو كانت لى ابنة فأنت أحق الناس بها .. ألم أقل هذا الكلام مراراً من قبل لأبويك ؟!

نضح العزم والإصرار على كلمات جاسر :

ــ اعذرنى يا عمى .. فأنا لا أجرؤ على تكذيب حضرتك .. وأنا أعلم مدى حرص الأب على سلامة ابنته .. وهذا حقه الذى لا ينازعه فيه أحد .. لكننى أيضا ابن عمها .. ومن حقى أن أتزوجها .. وعندى الدليل على صحة كلامى .. فهى تشبهنى .. لكننى أطول منها .. فرأسها يصل بالكاد إلى كتفى !!

قرر إدريس أن يسحق بوادر التلاعب فقال بسأم لم يخفه :

ــ ظنك أو شكك فى غير محله .. فالبنات عادة أقصر من البنين .. ومن رأيتها لابد أنها واحدة منهن !

تدفق الحوار دون هوادة :

ــ وهى جميلة ولها نفس ملامحى تقريبا !

ـــ كل بنات كلابشة جميلات !

ـــ وهى لا تخرج من بيتها إلا قبل الفجر حتى لا يراها أحد .. وحضرتك تعلم أننى أعشق السير ليلا ولا أخاف الذئاب !

ـــ وطالما أنك رأيتها فى غبش الظلام فلابد أن الأمر التبس عليك !

كانت جرأة جاسر أكثر مما توقع إدريس :

ـــ أنت تعلم يا عمى أن شيطان الشعر لا يهبط علىّ إلا تحت جنح الظلام خاصة على شاطئ النيل .. حيث أرى فى غبش الظلام أفضل من وضح النهار !

أشاح إدريس بوجهه تجاه النيل :

ـــ لا تضيع وقتى ووقتك ! هذا أول يوم لى فى كلابشة بعد غيبة طويلة وفترة شاقة مضنية من العمل المتواصل .. واضطررت إلى السهر فى انتظارك وأنا فى أشد الحاجة للنوم والراحة !

تثاءب إدريس ووضع المركوب فى قدميه إشارة انتهاء الزيارة لكن جاسرا قال بلهجة حاسمة غريبة :

ـــ لقد قررت يا عمى أن أحقق أسطورة أنس الوجود مهما كانت العقبات ؟!

أحس إدريس بنبرة تهديد دفينة لكنه تجاهلها :

ـــ ماذا تقصد ؟! كلامك غير مترابط ؟! إذا كنت تهذى فالأفضل لك أن تذهب إلى دارك وأن تلزم عقرها !!

ـــ بالطبع يا عمى أنت تعلم أسطورة أنس الوجود الذى عاش فى جزيرة فيلة .. والذى أطلق الأهالى اسمه عليها !!

ـــ هل هذا هو الأمر الخطير ؟! أن تزورنى فى منتصف الليل كى تقص علىّ قصة أنس الوجود ؟!

ـــ لن تخفى القصة على ذكائك يا عمى ! فقد أحب أنس الوجود فتاة اسمها زهرة الورد ، ولما سمع أبوها بهذا الحب ، هاله الأمر وبعث بابنته إلى معبد إيزيس

القائم فى جزيرة أنس الوجود وسجنها هناك ليبعدها عن حبيبها الذى هام على وجهه يبحث عنها فى كل مكان ، وسار على ضفاف النيل يسأل الناس عن حبيبته .. وكان فى أثناء طوافه يعطف على ما يلقاه من حيوانات الصحراء .. مما جعلها تأنس إليه وتسعى لمساعدته .. ووصل فى طوافه إلى جزيرة أنس الوجود ليستعين بتمساح كبير عبر على ظهره من الشاطئ إلى الجزيرة حيث التقى بحبيبته .. واستطاع إقناع أبيها بأمر حبه .. فرضخ فى النهاية ورضى أن يزوجها له !

نهض إدريس فى تبرم غاضب :

ـــ لابد أنك مخمور الليلة يا جاسر ! إنها غلطتى لسماحى لك بهذا العبث والهزل ! تصبح على خير !

همّ أن يذهب إلى الباب لكن جاسراً أمسك بذراعه متوسلا :

ـــ أرجوك يا عمى !

نفض إدريس ذراعه وخطا نحو الباب ليفتحه ويتسلل منه ضوء المصباح من الداخل . فى تلك اللحظة أخرج جاسر فى سرعة البرق عقد الشاوشاو الفضى من جيبه موجها اسم فاطمة المحفور عليه إلى الضوء كى يومض فى عينى أبيها . شعر الرجل بصاعقة كهربية تشل مخه وكأنه سقط من قبة السماء على أسلاك الضغط العالى التى ستمتد من السد العالى عبر الصحارى والفيافى تمد وادى النيل بالنور . ومع ذلك كان عقله يجوس وسط أحراش مظلمة مليئة بالوحوش وضفاف تغطيها ظهور التماسيح ! سأله لسانه دون مشاركة من عقله :

ـــ ما هذا ؟! كيف حصلت عليه ؟!

ـــ لا تؤاخذنى يا عمى !! كان لابد أن أبرز الدليل الدامغ على حبى لفاطمة ورغبتى الحارقة فى الفوز بيدها !!

استماتت إدريس فى الإمساك بزمام عقله حتى لا تفلت الأمور من بين يديه ! ضغط بنطقه على ألفاظه المرتعشة كى تخرج واضحة وقورة بقدر الإمكان :

— فلنؤجل المناقشة فى هذا الموضوع أسبوعا آخر ! اعتدت ألا أبت فى أمر بغير استشارة زوجتى .. خاصة فى الموضوعات الحساسة الخطيرة !

تأكد جاسر أنه أصاب الهدف بطلقة فى الصميم . انحنى فى احترام وهو يعيد العقد إلى جيبه :

— وأنا فى انتظار قراركم على أحر من جمر ؟؟ والظفر لن يخرج من اللحم ! سلام عليكم !

هبط على درجات السلم ليبتلعه الظلام عند أول منعطف . دخل إدريس ليصفق الباب خلفه ويفاجأ بدارية واقفة وقد جسدت ظلال المصباح الخافت خطوط الرعب حول عينيها وشفتيها مع صرخات إدريس المتسائلة المحمومة :

— أين فاطمة ؟! إياك أن تنكرى ما فعلته باسمى وشرفى !! لابد أنك تعلمين أنها تعرف ابن عمها وتقابله فى الخفاء كل فجر بحجة تنسم الهواء .. بل إنها أهدته عقد الشاوشاو الذى صنعته لها أو ربما نسيته بعد لقاء لا تعلم أسراره سوى الشياطين !!

صمت إدريس ليلتقط أنفاسه المبهورة فانتهزت دارية الفرصة قبل أن تبتلع دوامة الغضب المجنون زوجها ، وتماسكت لتقول فى سخرية باسمة :

— أنت تعرف خبث ابن أخيك وطيشه ! هل كنت تتصور أن يتراجع ببساطة بعد أن رفضته وأصبح حديث القرية كلها ؟!

حاول مقاطعتها بفتح فمه والشروع فى الرد والتساؤل لكنها لم تمنحه الفرصة بكلماتها المتدفقة من فوهة بركانها كالحمم :

— إن الذى صنع العقد لها يستطيع أن يصنع غيره لغيرها !!

— لم ألحظ العقد على صدرها !!

— اسم الله عليك !! ولماذا النقاش ؟! ادخل إلى ابنتك وانظر إلى صدرها .. فقد اعتادت أن تلبسه حتى وهى نائمة لاعتزازها به وخوفها عليه من نسيانه

أو ضياعه .. فإذا وجدت الشاوشاو فابن أخيك كاذب وقلبه ملىء بالانتقام الأسود .. وإذا لم تجده فلا تزوجها منه بل اقتلها وارفع رأسك موفور الكرامة بين الناس !

ثم مدت يدها تمسك بسكين طويلة على المائدة المستديرة وتقدمها له ، لكنه تراجع إلى الخلف خطوتين فى تردد أضاع الحمية المتفجرة فى كلمات :

— سأرى الأمر أولا .. ويا ويل جاسر إذا ثبت كذبه وخداعه !

أعادت دارية السكين إلى المائدة فى حين دخل إدريس على ابنته ليجدها مستيقظة وقد قبعت جالسة فى ركن فراشها . كانت الغرفة مظلمة لكن الشعاع المتلصص من الباب الموارب انعكس على العقد الملتف حول رقبتها فاقترب منه إدريس ومضى يقلبه بين يديه فإذا به هو بعينه وبالنقش الذى طلبه وحدده بنفسه ! مد إدريس ذراعه ليحتوى كتفى فاطمة فى جلسته على الفراش ، فعادت فاطمة إلى دهائها تمسك بزمام مصيرها ! سألت أباها فى براءة الأطفال :

— ماذا تفعل يا أبى .. ولماذا تقلب الشاوشاو بين يديك هكذا وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟!

أجابها فى خجل مشوب بالحياء :

— إنه الشيطان يا بنيتى كاد يصيبك بمكروه .. أحضر ابن عمك عقدا طبق الأصل من عقدك هذا .. وبرغم أنه ... ماذا أقول يا ربى ؟!

وقفت دارية بالباب فحجزت الشعاع المتسلل منه وهى تقول :

— الآن آمنت أن شرفك بين السحاب فى السماء .. لا يمسه أحد !

كز إدريس على أسنانه :

— سأبحث عن الصائغ الذى صنع له هذا العقد حتى ينال جزاءه !!

قالت دارية وهى تشعر أن العاصفة الرملية على وشك الانقشاع :

— وما ذنبه ؟! أى صائغ آخر لابد أن يصنع ما صنعه !! أليست صنعته التى يرتزق منها ؟!

ـــ عندك حق .. الذنب ذنب جاسر !! غدا لى حديث مع أخى .. وإذا عجز عن تأديبه .. فسأتولى أنا هذه المهمة مهما حدث !

ارتمت فاطمة برأسها على صدر أبيها فاحتواها بين ذراعيه :

ـــ لا تحزن يا أبى .. فليس هناك حرج فى أن أكون زوجة لابن عمى جاسر .. وابن العم هو أحق الناس بالزواج من ابنة عمه !

ـــ لا يمكن بعد أن فعل ما فعله !

ربتت فاطمة على ظهر أبيها فى حنان بالغ :

ـــ ربما أخطأ الوسيلة لإصرارك على إخفائى .. لكنه فعل ما فعل لأنه يريدنى ويحاول الوصول إلىّ بأية وسيلة !!

ـــ حتى لو شوه سمعتك بالكذب والادعاء !! نحن لا نملك فى هذه الدنيا سوى شرفنا !!

ـــ لو كان يكرهنى لما احتاج إلى كل هذا الكذب والادعاء !

أضافت دارية معلقة على كلمات ابنتها التى كشفت لأول مرة حقيقة ما يدور داخلها :

ـــ إنه طفل مدلل طائش .. وإلا لكان أدرك أن شرفنا هو شرفه ! لكنه على كل حال طلب اللقاء خفية فى الليل حتى يظل الأمر سرا لا يعرفه أحد خارج الأسرة !

علقت فاطمة وهى تترك صدر أبيها :

ـــ وبذلك حافظ على شرفنا كلنا .. و لم يصل كذبه وادعاؤه إلى مسامع الآخرين !

أشاح إدريس بوجهه بعيدا فى ضيق :

ـــ لم أتعود أن يلوى أحد ذراعى من قبل !

قالت دارية :

ــ لا تجعل عقلك من عقله ! فأنت كبيرنا وحكيمنا !!

ــ الأمر ليس بهذه البساطة ! هذا لعب عيال !!

قالت فاطمة وهى تتعبد فى محراب أبيها :

ــ الرأى رأيك .. والقرار قرارك يا أبى .. لا حياة لنا بدون رضاك !

ربت على كتفها ونهض :

ــ أمامنا أسبوع لنفكر فى الأمر على كل وجوهه !

ثم تنهد :

ــ فليفعل الله ما فيه الخير !

ثم غادر الحجرة ودارية تفسح له الطريق . بدا وجهه مهموما وعيناه خابيتين وروحه ترزح تحت أثقال من رصاص سحقت أحلام العودة الوردية من غيبة طويلة عن الأهل والأحباب !



(٩)

ظن جاسر أن عمه سيرضخ له شخصيا وسيحسم الأمر كله معه دون تدخل حتى من أبويه ، وبذلك سيثبت للجميع انتصاره الكاسح واستعادته لصورته الأسطورية . يكفى أنه أخرج فاطمة من شرنقتها التى اختفت فيها منذ ميلادها بين مصدق ومكذب لوجودها الفعلى .

لم ينم جاسر ليلته ! نفخ النصر أوداجه فظل يذرع شاطئ النيل جيئة وذهابا ! لم يعد الأمر فى نظره حبا لفاطمة بل أصبح حبا لنفسه ! لقد قبل التحدى وانتصر بصرف النظر عن نوعية مشاعره تجاه فاطمة ! انطفأت لواعج الهوى التى اشتعلت يوم رآها فى غبش الفجر عند الساقية ، إذ أن فاطمة على وشك الانضمام إلى طابور المعجبات الولهانات الغارقات حتى رؤوسهن فى غرامه ، ولكن مع فارق بسيط يتمثل فى الزواج منها بحكم أنه ابن عمها . يكفى أنه انتزع زمام المبادرة والقرار من يد أبيها الذى فقد غطرسته على يديه !

لكنه فوجئ بأبيه وهو يؤنبه على ذهابه سراً إلى عمه ، فالأمور بين كرام العائلات لا تؤخذ بهذا الشكل المريب . حاول جاسر أن يبرر الزيارة لأبيه بطريقة أو بأخرى لكنه فوجئ بأنه على علم بكل تفاصيل الحوار الذى دار بينه وبين عمه باستثناء رأى إدريس بأنه زيف العُقد كى يضغط عليه ويضعه أمام الأمر الواقع . عندئذ لم يجد جاسر مناصا من أن يصيح محتجا :

ـــ لقد ربيتنى يا أبى على الصدق .. وأنا لا يمكن أن أكذب فى أمر كهذا يمكن أن يمس شرف ابنة عمى !!

ـــ إذاً .. كيف حصلت على هذا العقد ؟! ما حكايته بالضبط ؟!

نكس جاسر رأسه و لم يجب :

ـــ لماذا لا تتكلم ؟! هل هناك ما تخجل منه ؟!

واصل جاسر صمته وإطراقه :

ـــ سنعرف الأمر برمته يوم الذهاب إلى عمك !

تكلم جاسر بعد تردد :

ـــ إذا أصر عمى على تفجير الموضوع .. فلن يكون الذنب ذنبى !!

ـــ ماذا تقصد ؟!

ـــ حاولت أن أستعين على قضاء حاجتى بالكتمان .. لكن يبدو أن عمى مصر على أن يكون كل شيء على رؤوس الأشهاد !!

ـــ كفاك تلاعبا بالألفاظ ! ماذا تريد أن تقول بالضبط ؟!

عاد جاسر إلى صمته وإطراقه فنفد صبر أبيه :

ـــ لن أرجوك حتى تفصح .. سنعرف كل شيء عند زيارة عمك ! وإياك أن تمس ابنة عمك بكلمة !

ـــ لن أمسها بل سأتزوجها ! يكفى أنها ستفوز بالشرف الذى تمنته كل فتيات كلابشة وظللن يحلمن به دون جدوى !

ـــ كفاك غرورا .. وإياك أن تظن أنك حققت انتصارا مدويا إذا وافق عمك على زواجك من فاطمة .. فهو زواج تحت تهديد الفضيحة المحتملة .. وبهذا ستنال عقاب الله .. لن تتأكد من حقيقة حب فاطمة لك .. فربما كان موقفها رضوخا واستسلاما وليس حبا وهياما !

اهتزت رنة الثقة فى كلمات جاسر ومع ذلك قال :

ـــ لن تشذ فاطمة عن كل فتيات كلابشة !

ومرت الأيام ثقيلة خفيفة ، طويلة قصيرة حتى جاء موعد اللقاء حين هرع جاسر وفى جيبه عقد الشاوشاو وبصحبة أبيه وأمه التى جرفتها السعادة الغامرة

والثقة فى أن ابنها سوف يتزوج من الفتاة التى قرر اختيارها لنفسه دون أن يقدم أى صداق . ولن يجرؤ النجار على رفضه وإلا فالعار فى انتظاره ، وهو الذى ينظر إليهم من عل لمجرد أنه نجار يمارس أهم حرفة فى بلاد النوبة فينظر إليه الناس على أنه المخترع وعميد صناع البلد .. فهو الذى يصنع الساقية أداة الرى والزراعة ، والمركب أداة النقل النهرى ، والبيت والأثاث وغير ذلك . ومع ذلك كانت آشا سعيدة بأن الأوان قد آن لزوجة النجار المتكبرة كى تدرك أنهم جميعا قد أصبحوا تحت رحمة ابنها الوحيد وفتى كلابشة المدلل .

قام النجار وزوجته باستقبال الضيوف باحترام وتقدير وتحفظ فى المضيفة الداخلية هذه المرة . دارت أحاديث حول موضوعات كثيرة فى النجارة والزراعة والرى والحصاد ، إذ بدا أن كل طرف لم تواته الشجاعة أو الجرأة بعد كى يخوض بقدميه فى المنطقة الوعرة القابع فيها الموضوع الشائك ! لكن الضيوف فوجئوا بإدريس يصفق طالبا الشاى فى حين كانت زوجته تجلس إلى جواره . وتحولت المفاجأة إلى دهشة عارمة عندما استمعوا إلى طرقة ناعمة على الباب الموارب ، دخلت فاطمة على أثرها وهى تحمل أكواب الشاى منكسة الرأس ، مسبلة العينين وعقد الشاوشاو على صدرها يتأرجح بوميضه الناعم . ودارت على الحاضرين المحملقين فيها لأول مرة وفى عقد الشاوشاو ، وهى تتأود فى سيرها وترتج كالموج المداعب ، وضفائر شعرها الطويلة التى تبلغ سبع أذرع ، وعينيها الكحيلتين ، وخضاب يديها ، وقد اتشحت بالزردخان الحريرى ، ووشم شفتها السفلى ، وخلخال ساقها اللامع .

عندما انتهت فاطمة من تقديم الشاى الذى لم يرتشف أحد منه رشفة واحدة إذ كانت الشفاه مفتوحة والعيون جاحظة فى ذهول ، التفتت فاطمة لأبيها قبل أن تغادر الغرفة قائلة فى ثقة ضايقت جاسراً وحزت فى نفس أمه :

ـــ أهذا جاسر ابن عمى الذى حدثتنى عنه ؟!

ثم التفتت إليه وقد ازداد أنفها المشرئب إلى أعلى شموخا :

ــ أهلا ومرحبا بك فى بيت عمك !

ثم خرجت فى حين التفت إدريس إلى ابن أخيه يسأله فى تحد وتحفز ينذر بالعاصفة :

ــ أما وقد أصبح الآن كل شيء واضحا .. أريد أن أعرف من هو الصائغ وكم دفعت له ليصنع لك عقداً شبيها بعقد ابنتى ؟!

تردد جاسر بعض الشيء وارتعشت يده بكوب الشاى فأسعفته أمه بالكلام :

ــ جاسر لم يتعود الكذب فى حياته !

لم تستطع دارية أن تدارى دموعها وتمنع شهقاتها :

ــ ما كنت أظن أن يصل بك الغرور والكذب والادعاء إلى هذا المستوى الذى يمكن أن يودى بحياة ابنة عمك البريئة الطاهرة ؟!

كانت آشا على وشك الالتحام لكن زوجها أفحمها قائلا لابنه بصوت جهورى وحسم قاطع :

ــ إياك أن تظن أن ما يمس عرض عمك لا يمس أباك .. إن عرضنا واحد وكان من الممكن أن تلوثه فعلتك هذه !

لم يرضخ الطفل المدلل العنيد داخل جاسر للتحدى فتصدى له :

ــ لولا فعلتى هذه .. لظللنا كلنا مغفلين .. نصدق أن عم إدريس لم ينجب !

صاح إدريس غاضبا :

ــ أية فعلة تتكلم عنها يا ولد ؟!

لكن زوجته طغت على سؤاله حتى لا يجرف العناد الفتى المدلل فيفتح البركان :

ــ وما الذى تريد أن تثبته بالفعل ؟! نحن أحرار فى ابنتنا !!

لكن جاسراً واصل تحديه :

ــ وكذلك أنتم متأكدون من أن الشاوشاو الذى معى هو الأصلى .. أما الذى

على صدر فاطمة فهو تقليده المتقن !!

وضع أبوه كوب الشاى على المائدة وأوشك على أن يصفعه لولا إمساك إدريس يده :

ـــ اخرس !

ثم قال إدريس فى حسم لجاسر :

ـــ هل جئت اليوم لمناقشة قضية الشاوشاو أم لسبب آخر ؟! نحن نرفض أن نناقش لعب العيال .. أما إذا كان هناك سبب آخر فنحن على استعداد لمناقشته كالكبار !!

ـــ حضرتك تعلم يا عمى أننى جئت لطلب يد فاطمة !

نظر إدريس إلى أخيه فيما يشبه الابتسامة المعاتبة وقد أمسك بزمام مشاعره ليلقى القول الفصل :

ـــ كفى لوما لجاسر .. أرجو ألا تقسو على زوج ابنتى أكثر من هذا !

ثم التفت إلى جاسر فى حسم :

ـــ لقد رضيت بك يا جاسر زوجا لابنتى !

لكن جاسراً لم ينطق ببنت شفة إذ عبرت سحابة من الحزن تقاطيع وجهه الحادة وومضات عينيه الخارقة . دوت فى أذنيه كلمات أبيه : « إياك أن تظن أنك حققت انتصارا مدويا إذا وافق عمك على زواجك من فاطمة .. فهو زواج تحت تهديد الفضيحة المحتملة .. لن تتأكد من حقيقة حب فاطمة لك .. فربما كان موقفها رضوخا واستسلاما وليس حبا وهياماً » .

اكتشف جاسر أيضا فى تلك اللحظة الحادة أنه لم يحب فاطمة الحب الجنونى الذى خيل له لأول وهلة ، وإنما كانت فى حياته بمثابة التحدى الكبير الذى لابد أن يقهره ، إذ كيف تستعصى عليه وهو من لهثت الفتيات خلفه استجداء لنظرة

أو كلمة أو تحية أو ابتسامة ؟! لكنه الآن وقد قهر التحدى وأصبحت فاطمة ملك يديه على رؤوس الأشهاد فقد خمد البركان !

دون أن يدرى أحكم جاسر عمامته العالية ذات الأطراف حول رأسه ، وضم العباءة الشاهى على القميص الأبيض المفتوح من أمام وهو يشعر بالنظرات الباسمة المحيطة به تكاد تخترق جسده الفارع الممشوق ! كانت النظرات توشى بأن أصحابها قد آمنوا بأن الحلم الجميل الذى تحقق لجاسر فى لحظة خاطفة قد أفقده صوابه فغرق فى دوامة من الشرود المخدر الذى أفقده القدرة على الكلام أو حتى مجرد النظر إليهم !



(١٠)

كان زفاف فاطمة إلى جاسر عرسا لكلابشة كلها . أيام لم يعرف فيها الناس الحدود الفاصلة بين الحقائق والأحلام . تحول بيت إدريس الصامت ، الساكن ، المنعزل ، النائى فوق ربوته الصخرية إلى صخب وحركة وحياة مزقت كل أستار الغموض التى تلفح بها دهرا بأكمله . فالفتيات والنساء قد جئن من كل حدب وصوب يمتعن النظر إلى الفتاة الجميلة الغامضة التى استطاع أبوها أن يخفيها عن العيون كل هذا العمر ، والتى أراد ابن عمها أن يفضحها فألف حولها حكاية إفك ثبت بطلانها . وقمن بطحن الحبوب والعجن وصنع الخبز وعصر الزيوت وغير ذلك من أعمال البيت استعدادا ليوم العرس .

كانت العادة أن يجتمع أهل العروسين للاتفاق على موعد تقديم الشبكة ، وأن يعلن والد العروس على الحاضرين أنه قد أناب عنه أحد شيوخ الأسرة ، وأيضا يعلن العريس اسم وكيله ، ثم يجلس الوكيلان متقابلين . ويطلب وكيل العريس من وكيل العروس إيضاح طلباته فيجيبه الآخر بأعداد كبيرة من وحدات الذهب والفضة مقدم الصداق وكذلك مؤخر الصداق . عندئذ يرد وكيل العريس بأن هذا النسب الكريم يستحق أكثر من ذلك ولكن تكريم المجلس يتطلب التخفيض . فيبدأ وكيل العروس فى التخفيض إلى أن تتم الموافقة ويقدم الصداق وتقرأ الفاتحة ، ويتفق الجميع على نقل عفش العريس إلى بيت العروس .

لكن شيئا من هذا لم يحدث ! كان عرسا مختلفا فى كل شيء ! لم ينب إدريس عنه أحد شيوخ الأسرة بل كان هو وكيل ابنته كما كان دهب وكيل ابنه ، ولم تتعد طلبات إدريس سوى عقد الشاوشاو الفضى كشبكة ، ومبلغين رمزيين لكل

من مقدم الصداق ومؤخره بالإضافة إلى بعض الحلى الذهبية والمشغولات الفضية . أما بالنسبة لعفش العريس فقد قرر إدريس أن يصنعه بنفسه هدية له منه بحيث يصبح بيت فاطمة مستعدا لاستقباله ليلة زفافها .

خرج موكب الهدايا من منزل العريس يتقدمه دهب وكبار المدعوين من الرجال فى عباءاتهم الفضفاضة ، وخلفهم تسير الحمير المحملة بالغلال والدقيق ، ثم بنات يحملن أطباقا من الخوص صفت عليها الهدايا ، وخلفهم تسير السيدات يغنين ويزغردن وفى مقدمتهن آشا التى كانت فى أوج انتصارها .

قبل وصول الموكب إلى منزل العروس خرج كل من به وفى مقدمتهم إدريس ودارية لاستقبال الموكب ما عدا فاطمة التى استترت خلف البيت حتى تدخل الهدايا أولا ثم تدخل هى بعد ذلك خوفا من المشاهرة التى تعد عقوبة قدرية لمن يخالف طقوس الآباء والأجداد الذين وضعوا لائحة من الممنوعات والمحاذير التى تجنب النوبيين ضربات المخلوقات الشريرة غير المنظورة مثل الجن والعفاريت .

بعد انتهاء طقوس موكب الهدايا عاد جاسر ومعه المدعوون يحيطون به إلى بيته . جلس فى فناء البيت على نسيج من الخوص ليقوم الحلاق بحلق شعره . وضعوا أمامه ثلاثة أطباق ، فى الأول حناء والثانى بلح والثالث ماء ، فوضع بدوره سيفه وسوطه إلى جوار الأطباق . وتواتر عليه الأقارب ليعلن كل منهم عن الهدية التى قدمها له . بدأت عمته مهللة فى فرح :

ـــ لقد وهبت عريسنا الجميل النخلة التى عند الجسر .. .

وتتابعت إعلانات الهدايا وسط صيحات الفرح والتهليل ، لكن جاسراً لم يتجاوب معها إلا بابتسامات واهنة ونظرات خابية . لاحظ الجميع أنه يؤدى الطقوس بطريقة آلية كالسائر فى نومه ، لكن بعضهم أو معظمهم التمس له العذر ، إذ أن العرس لم يكن عرسا عاديا على الإطلاق .

كان يتمنى أن يخلو إلى نفسه ليستعيد تفاصيل موكب الهدايا . شعر أنه موكب

قائد تجرع كؤوس الهزيمة حتى الثمالة وقد اقتيد إلى قاهره ليقدم فروض الطاعة والولاء والذل أمام الجميع . كان الموكب يضم أجمل بنات الأسرة اللاتى لم تكن فاطمة إلا مجرد واحدة منهن ! كن فى أبهى الثياب يحملن أطباق القش الملونة والمنقوشة بزخارف جميلة وعليها الهدايا الكثيرة ، وخلفهن أمه فى مقدمة صفوف النساء اللاتى ينشدن إنشاداً جماعياً ، ويطلقن الزغاريد ذات اليمين وذات اليسار . وبوصول موكب الهزيمة والذل إلى بيت النجار خرج أبوها وهو فى كامل زيه ، وزهو الانتصار يشع من سمرة وجهه وسواد عينيه ؛ وبجانبه وقفت أم فاطمة بلا أى معنى للفرح أو الحزن على وجهها ، وإنما كان قلقها واضحا إذ أنها الوحيدة التى تعلم مع ابنتها حقيقة الشاوشاو . لا يعرف جاسر لماذا استراح لمرأى دارية ، ربما لأنه قرأ فى عينيها خوفها من احتمال انتقامه من ابنتها شر انتقام بعد أن تصبح زوجته وتحت رحمته !

كان يعلم عند وصول الموكب أن فاطمة مختبئة خلف البيت . فلم يملك سوى التخمين . لابد أن فى قلبها عواصف من العواطف المتناقضة والأحاسيس المتضاربة . لاشك أنها تحبه بجنون لكنها تدرك فى الوقت نفسه أن الحصول على قلبه أمر عسير ، فحوله غلاف صلب من العناد والكبرياء والأنفة وإن كان القلب نفسه رقيقا متدفقا بالحب والشعر والفن . لكنها لن تصل إلى هذا القلب بعد أن قهرته أمها بمكرها ودهائها ، ولولا دوامة العرس التى تجرفه الآن وتشده إلى قاعها لترك عقله نهبا لأنياب الثأر وأظافر الانتقام ومخالب الإذلال .

أخذ الرجال أماكنهم بالمضيفة أما النساء فقد ملأن حوش البيت حركة وصخبا وغناء ورقصات أخذت أشكالا هندسية جميلة حيث يقف الفتيان والفتيات فى جماعتين متقابلتين على شكل قوس ، ويفصل بينهما المغنون وحملة المشاعل التى أحالت ظلمة الليل إلى وهج ممتزج بالدخان ، وشدت سخونتها جلد الدفوف . وكانت الفتيات يرقصن وعلى رؤوسهم وشاح السردحان الملون ، وحول أعناقهن

وعلى صدورهن الحلى التى تمنع المشاهرة ، فى حين مرت فتيات أخريات بأكواب الشاى حينا وبالشراب الملون حينا آخر .

ثم كان يوم الحناء بكل طقوسه وتقاليده . فخلعت فاطمة ثيابها إلا ثوبا وحيدا وقامت الفتيات والصديقات يخضبن يديها وقدميها بالحناء غير مصدقات أن بين أيديهن فاطمة التى سمعن عنها من الأساطير ما جعلها شخصية خيالية ! كن فى قمة السعادة والنشوة وهن يتغامزن فى نزق وحيوية ، ويتحدثن عن الزواج والعشق والغرام والقبلات والأحضان والعرق واللهاث بين الأجساد العارية فى حين كان الخجل يلهب وجه فاطمة مع سحر الكلمات التى تدغدغ جسدها ولمسات الأصابع المخضبة بالحناء على كفيها وباطن قدميها .

فى الليلة نفسها ضج بيت جاسر بصخب وزغاريد امتزجت بإيقاعات الدفوف التى سمعت على مسافات بعيدة وسط فرحة الأهل والأصدقاء . وتقدمت العجوز شالوية إلى جاسر فخضبت يديه وساقيه بالحناء وهى تغمز له بعينها الكليلة وكأنها تقول له :

ـــ لولاى لما حققت حلمك الساحر الذى طاردك ليل نهار .

لكن جاسراً لم يعبأ بما يدور داخلها و لم يهتم بمنحها ما كانت تأمل أن يغدقه عليها . حاولت أن تتلكأ لكن أصدقاءه سرعان ما دخلوا ليدهنوا جسمه بالعطور وقام صديق شاعر لينشد معبرا عن رأى العريس الذى لم يشاركه الغناء برغم احترافه له . كان الحزن الدفين يسرى فى أرجاء نفسه المعتمة وصديقه الشاعر يغنى :

« الحلوة التى أحببتها عمرا حافلا
سوف نرقص أربعين يوما كاملا
صنعت لك حلى : أليسينى وقس الرحمن
ووحبسى فكى وما شاء الله

وسرجين نسم وبرتاوى وفرج الله
أحضرت الثياب واشتريت شالا أحمر
وعطر الصندل والمحلب يا غزال أسمر
وروح القرنفل تسرى فى الخلاء
وأطراف السردحان تتراقص مع الهواء
فأشعلى أعواد البخور بين يديك
وضعى الخضاب على كفيك وقدميك
واملئى وعاء الأَجْل بالعطور
يا من شحنت قلبى بالحبور
يا من أحبها أبد الدهور » .

لكن جاسراً لم يكن يفكر فى الثياب والعطور والحلى والبخور ، ولم يشأ أن يستمتع بالحياة المنتشية بأجمل فتاة فى الوجود بل كان مهموما بتلك التى أذلت كبرياءه فهربت منه وخرجت من فخه كالشعرة من العجين ، وردت الخديعة بخديعة أكبر وأخبث ، وأظهرته صغيراً خسيساً مخادعا أمام البلد ، وطائشا نزقا أرعن أمام أبيه وأمه ثم أبدت تنازلا بأن قبلته زوجا لها ، فى حين سعى هو للاحتفاظ بفضيحتها التى تورطت فيها ، فى طيات الكتمان حفاظا على سمعتها وشرفها وكان الأجدر به هو أن يتنازل بقبوله لها زوجة له ، لكنها قلبت المائدة على رأسه فلم يخل الأمر من نظرات السخرية أو الاستهزاء فى عيون البعض .

لم يترك الانتقام مكانا فى قلبه للحب برغم أن طقوس العرس ومهرجاناته الصاخبة وانضواء القلوب الساخنة تحت لواء الفرح ، كفيلة بأن تغسل أى قلب مما فيه من أحقاد ممسكة بخناقه . ففى اليوم التالى ركب جاسر فرسا انطلق به بين أرجاء القرية وبيده اليمنى سوط يعوى وهو يحركه فى الفضاء ويتمنى له أن يمزق به جسد فاطمة . كان هذا الإحساس يمنحه حيوية عارمة يظن معها من يراه أنه

نشوة السعادة التى أسكرته فلم يعد يلوى على شىء .

لم يحتمل جاسر أن يكمل الطقوس . رفض أن يتجه مع أصدقائه إلى النيل حيث يستحم الجميع ويحاولون مشاكسته وهو يقاوم فى عناد وبطولة وفروسية كما يفعل غيره من العرسان ، على أن يأخذ من الشاطىء نباتا أخضر ويعود ثانية إلى منزل عروسه حيث يظل مع صحابه لتناول العشاء قبل انصرافهم . رفض أيضا أن تصحب القابلة العروس إلى حجرة العريس حيث تتركهما معا ، على أن تترك العروس زوجها كل صباح لتقضى النهار بحجرتها بمنزل أبيها ثم تعود إليه فى المساء . وهى عادة تستمر حتى السبوع ومعها ذهاب العريس كل صباح إلى النيل ومعه فرع أخضر . وأيضا قيام العريس برفع يديه متقاربتين وتحت يديه بقليل ترفع العروس يديها للدعاء الصامت فى حين تأتى القابلة بكميات من القمح وتصبها على يدى العريس فيتدفق منهما القمح على يدى الزوجة ليكون كومة على الأرض دليلا للرخاء ورمزا للوفرة والخير العميم .

لم ير جاسر فى هذا الزواج أى رخاء أو وفرة أو خير ولذلك لم يحتمل طقوسه فرفضها ، فى حين ظن الجميع أن لهفته على لقاء فاطمة قد دفعته إلى اختصار الطقوس حتى يقفز فوق الساعات والدقائق واللحظات ليجدها بين أحضانه ! لكن معظمهم أشفق عليهما من المشاهرة . فهذه الطقوس لم تسن عبثا وإنما لحمايتهما من الأرواح السفلى الشريرة ! وإذا كان من علامات البركة والخير أن تترك العروس زوجها ينام وحده فى الأيام السبعة الأولى بعد عقد القران ، فإنه يبدو أنه هذه المرة قد قرر أن ينام وحده إلى أن يشاء الله أمراً كان مفعولاً !

فى يوم الزفاف وبعد صلاة العصر اتجه الجميع إلى منزل فاطمة وعلى رأسهم جاسر الذى ارتدى أبهى ثيابه واستوى على ظهر جمل شامخ وأمامه كيس مملوء بالهدايا من الثياب لأم فاطمة وصديقاتها . وعند الساقية كان والدا فاطمة بعيدا عن بيتهما يستقبلان الموكب ومعهما أقرباؤهما من أعمام جاسر وأخواله . وبعد

العشاء جلس إدريس ودهب متقابلين أمام كاتب العقد وتم الزواج رسميا ، ودارت على المدعوين أطباق البلح والأسلى (القمح) بين الزغاريد التى انطلقت من كل حدب وصوب ثم أقيمت حلقة ذكر صوفية .

فى حلقة الذكر تمايلت الأجساد وانطلقت أنغام التسبيح بلفظ الجلالة بوجد صوفى احتشد تحت الجفون المسبلة أو العيون المنطبقة . ورفع جاسر عقيرته بالحمد والتسبيح والنداء على الحبيب بدقات الدف بين يديه فكان يهز القلوب مع الآذان . حسده الشباب المنضوى فى الحلقة على تلك الساحرة التى فاز بها والتى سيختلى بها بعد لحظات ! هم يعيشون الآن لحظات كالحلم فماذا سيكون حاله هو عندما يحتوى الحلم فى أحضانه ؟!

انتهى الذكر فامتشق جاسر سيفه وسار شامخا والعرق يتصبب على جبينه بين أهله الذين اصطحبوه إلى داخل البيت حيث باب غرفة فاطمة المغلق عليها . طرق الباب بسيفه ثلاث مرات ثم دخل ليغلقه خلفه . كانت فاطمة قابعة على حافة الفراش وقد أخفت الطرحة وجهها وصدرها وظهرها لكنها كانت ترصد كل حركاته وسكناته برغم المصباح الذابل والطرحة المنسدلة . قام جاسر بأداء الصلاة ، وفاطمة تتوقع بعد الانتهاء منها أن يتقدم نحوها ليرفع الطرحة عن وجهها ورأسها ثم يمر بيده على جبينها فتهرع مسرعة كى تبيت عند أهلها ، وإن كان بيتها الجديد الصغير الذى أسسه وأثثه لها أبوها ملاصقا لبيته المنعزل فوق الربوة الصخرية التى تطل على النيل .

توقعت فاطمة أن يحاول جاسر أن يجعل عروسه تتكلم بتقديم النقود إليها ، ويظل يضاعف المبلغ حتى ترضى عنه وتكلمه كعادة كل عرائس النوبة . كانت قد عقدت العزم على أن تتمنع وتتأبى وترفض النطق وتصر على الصمت حتى يملأ السرير بكومة من النقود وكأنها تريد أن تعوض هزال مقدم الصداق ومؤخره ، لكن شيئا من هذا لم يحدث . فقد اكتفى جاسر بأن رمقها بنظرة جامدة باردة

ثم أدار لها ظهره لينام على حافة الفراش الأخرى وما هو بنائم ! وظلت هى قابعة كالتمثال تستحم بقطرات عرقها تحت الطرحة التى لم يرفعها و لم ترفعها هى بدورها إلى أن هدها الكمد والتعب فنامت بها على الحافة المقابلة ودموعها تمتزج بعرقها الذى سرى بملوحته فى عينيها وبمرارته فى شفتيها !

هل هذه هى الليلة التى حلمت بها عمراً بأكمله ؟! هل هذه هى الليلة التى حسدها عليها الجميع ؟! إنها تتذكر الآن كيف كانت الفتيات وهن يخضبن يديها وقدميها بالحناء يتغامزن ويتحدثن عن الزواج والعشق والغرام والقبلات والأحضان والعرق واللهاث بين الأجساد العارية ! فليأتن الآن ليرين كيف تنام وتلهث ؟! كيف كانت فى خلوتها بنفسها تستمتع بطيف الأحلام وخدر الرؤى وسحر الخيال الذى عندما أصبح واقعا جثم على قلبها كالكابوس فكاد أن يزهق أنفاسها ؟! هل كتب عليها أن تخرج من حبس أبيها لتدخل سجن زوجها ؟! وهذه المرة لا تحمل فى طياتها أى أمل للإفراج ! لقد أعلن عن نيته منذ اللحظة الأولى ، فهل كان لها أن تستسلم له يوم استدرجتها شالوية إلى بيته حتى يرضى عنها ؟! إذ كان مصراً على وضع كرامته و كبرياءه وعنجهيته فوق السحاب ، فستثبت له أن كرامتها فى السماء !

إنه يتململ الآن على حافة الفراش كطفل أوشك أن يختنق بعناده لرغبته الحارقة فى تحطيم اللعبة التى عافتها نفسه بمجرد الحصول عليها ! لكنها لن تسمح له بتحطيمها ! فهى وإن كانت قد عاشت حبيسة جدران بيت أبيها فقد تعلمت على يديه الحكمة كما لقنتها أمها الدهاء ! بل إن تجربة الحبس علمتها كيف تروض نفسها ، وكيف تحب ما تملك لا أن تلهث وراء امتلاك ما تحب ، وكيف تصنع من دنياها الضيقة الخانقة عالماً يحوى الوجود كله ؟! كيف برعت فى صناعة الدمى من القماش أو الطين ، والمركب ومنقار الغراب من الورق ، وطبق الخوص الصغير الذى تخرقه فى المنتصف قطعة من الخشب تدخل فى قضيب من خشب

الغاب المثقوب بحيث تدار بالشد والإرخاء . وعندما مضت أيام طفولتها تعلمت فى صباها المبكر على يدى أمها أساليب الطهى حتى بزتها فيها . بل إن أمها كان يلذ لها أن تشاهدها وهى تصنع مربى البلح عندما تأتى بكمية كبيرة من العسل الأسود وتتركها تغلى على النار فترة طويلة حتى تتكون عليها طبقة دهنية ، عند ذلك تصفى العسل وتبرده وتصبه على العجوة المنزوع منها النوى ، وتقلبه جيدا . أما أبوها فكان يستمتع بمتابعتها وهى تحرك العجينة برفق براحة اليد عندما تصنع الشعرية . فهى تجمع خيوط العجينة فوق الحصير الملون حتى تجف ثم تقدمها إليه باللبن والعسل .

لم تكن حياتها خاملة كما ظن من اعتقدوا فى وجودها ، كانت تنهض من نومها فتكنس الشقة بمكنسة مصنوعة من سباط البلح المفتول الخيوط ، فتبدأ بغرفة النوم والمطبخ وحجرة الخزين ثم تنتهى بتنظيف المضيفة . وفى الفترة الأخيرة اعتمدت أمها عليها اعتمادا كاملا لدرجة أنه لم تتبق لها وظيفة أخرى سوى الذهاب إلى السوق لابتياع حاجيات البيت أو أداء واجبات العزاء . ولولا الحرص الذى تعلمته لما أخذت معها المطرقة الحديدية ولما حطمت الشبكة السلكية التى تسد نافذة الحمام لتهرب من بيت جاسر فى ذلك اليوم العصيب ، ولتنجو من مصير ربما ألقاها بعده للكلاب !

والآن يتململ على حافة الفراش متظاهرا بالنوم لأنه فشل فى أن يجعل منها لقمة سائغة له فى ذلك اليوم العصيب ! أى أنه يحاول إذلالها بالزواج بعد أن فشل بدونه ! لكنه لا يدرك أنه سواء بالزواج أو بدونه فهى تعرف جيدا كيف تحافظ على كرامتها وكيانها وكبريائها . إنه ليس ذلك الفتى الساحر الذى يخلب لب الفتيات بل هو مجرد طفل مدلل يحتاج إلى تربية حقيقية ! إنها لا تكرهه بل تحبه فى واقع الأمر برغم كل شىء ، لكنه ليس حب الفتاة المتدلهة فى سحره بل حب الأم لطفلها النزق الطائش ، ولذلك عليها أن تصنع منه رجلا . وإذا كانت قد

نجحت فى الهروب منه فلن تمنحه فرصة الهروب منها .

لم تعد تهتم بما سوف يأتى من تصرفات غير متوقعة طالما أنها واثقة من تصرفاتها هى تجاهه . فهى تملك من الذكاء والدهاء ما يمكنها من احتواء أو تجنب أو تخفيف أية انفجارات محتملة ! وعليها أن تتوقع الأسوأ حتى لا تهب عليها العواصف المفاجئة فتقتلعها من جذورها .

شعرت فاطمة بحرارة محرقة فتذكرت الطرحة الجاثمة على رأسها ووجهها ونفسها فألقت بها على الصندوق الأسود ذى الزخارف الملونة الذى صنعه له أبوها لحفظ ملابسها وحاجياتها . لم يكن لها حبيب فى تلك الليلة سوى إرادتها وإصرارها وعرقها ودمعها ، فقررت أن يظل كل شىء طى الكتمان ولن تبوح بشىء حتى لأبويها !

ظلت حمى الأفكار والهواجس سارية بالقشعريرة فى بشرتها السمراء الناعمة حتى تسللت طلائع الفجر من خصاص النافذة لترتمى على البرش الملون المفروش على الأرض أمام العنقريب الذى لا يزال جاسر يتململ على حافته دون أن يجرؤ على أن يستدير إليها ليراها وجها لوجه . نهضت فاطمة لتطفئ المصباح الذابل الذى آنس وحدتها وأبعد عنها أشباح الظلام . ثم عادت لتتمدد على الحافة فإذ بنسمات الفجر تلطف من لظى نيرانها فتسلم جفونها للنعاس الخفيف .

استيقظت فاطمة على جلبة متفجرة بالضحكات خارج غرفة النوم . كان ضوء النهار يفترش الغرفة . استدارت فلم تجد جاسراً . نهضت لتلمح من الباب الموارب أصدقاء جاسر يلتفون حوله فى مجون ومرح طالبين منه الذهاب إلى النهر فى سباق ونزق وضرب للاستمتاع بالعراك المرح بين طيات الأمواج ورذاذها . وبعد أن ينتهى من الاستحمام يخرج ليلبس ثيابه الجديدة وسط البخور الذى يطلقونه حوله . وفى طريق العودة يمرون بسبعة بيوت يقدم أصحابها الهدايا للعريس وصحبه تحية له وتغنى النساء :

ــ إلى مارمار نتود .. يا سلو يا لنبى .

ثم يبدأ الرقص الجماعى مع أغنية « ووبلاجه » :

ــ إركو توجاشي ووبلاجه   أخطرى وحدك يا حسناء

دوانيل جاشى ووبلاجه   فى حجرات البيت

لكن جاسراً لم يكن على استعداد للتجاوب معهم فى هزلهم المرح بل أصر على أن يسبقوه وسوف يلحق بهم بعد فترة . وعندما تحول إصراره إلى نوع من الجهامة لم يرتدعوا بل علت ضحكاتهم وتعليقاتهم الساخرة اللاذعة وتلميحاتهم الجنسية التى تؤكد على أنه مصر على مواصلة معركة الليلة الماضية حتى تنهار آخر المعاقل الصامدة ، ويعقد له لواء النصر المبين .

وعندما فشل إلحاحهم تركوه على وعد منه باللحاق بهم إذ أنهم لن يخرجوا من النهر إلا معه . عاد البيت إلى سكونه الراكد ليخرج جاسر إلى الشرفة حيث جلس شاردا ، ساهما وهو يتجنب قدر إمكانه النظر تجاه فاطمة التى أسرعت لإعداد طعام الإفطار . فلن تعامله بالمثل بعد أن اكتشفت متعة العقل الكبير الذى تبلور بعد أن انصهر فى بوتقة الليلة الماضية .



استمرت الحال على ما هى عليه أربعين يوما... حتى النظرات لم يتبادلها جاسر مع فاطمة التى احتملت السكون الرهيب بصمود أذهله وإن حاول أن يدارى ذهوله ! كانت مباراة فى طول النفس وقوة التحمل ، تصور جاسر فى نهايتها أن تجثو فاطمة على ركبتيها طالبة الصفح والغفران ، وإن كان فى نيته أن يواصل إذلالها حتى بعد خضوعها الكامل له . لكنها لم تستسلم و لم تُستفز فى الوقت نفسه بل واصلت أداء واجباتها على الوجه الأكمل ولزمت عقر دارها ، وعند لقاء الضيوف كانت تفرش ابتسامة عريضة على ملامح وجهها الدقيقة ، وهى الابتسامة التى أثارت حيرة الجميع وفى مواجهة جهامة جاسر الذى لم يحتمل التحدى الصامت المتواصل الذى لم يخطر له على بال فوجد نفسه فى اليوم الأربعين وقد انفجر فى حضور إدريس الذى أوشك القلق على ابنته أن يقتله فى الأيام الأخيرة . فى المساء كان جالسا فى الشرفة المطلة على النيل وهو يرقب جاسر الذى بدا وكأنه يرزح تحت وطأة كابوس لا يريد أن ينقشع . قال جاسر بنبرات هادرة عند القاع :

ـــ لقد قررت السفر إلى مصر للبحث عن عمل هناك .. فالحياة هنا أصبحت مثل عدمها !

وضع إدريس كوب الشاى أمامه دون رشفة واحدة :

ـــ هذا قرار مفاجئٌ لم يكن فى نيتك من قبل !

ـــ إنه قرار فى نية كل شباب النوبة كما تعلم !

لم يعبأ إدريس بنبرة الوقاحة التى لا تضع اعتبار الكبير فى حسبانه :

ـــ لكنك تختلف عن كل شباب النوبة .. فقد نلت من الحب والتقدير

والإعجاب ما لم ينله شاب نوبى من قبل !

ــ اكتشفت أن هذه كلها أوهام .. لا أحد يستطيع أن يعيش على الحب والتقدير والإعجاب !

ــ فى استطاعتك مساعدة أبيك فى عمله بالمزرعة .. حتى تلم بأسرار الصنعة وتواصل رعايتها عندما تجبره الشيخوخة على الاعتزال !

ــ لم أخلق لمثل هذه الحرف !!

ــ وهل تظن أنه فى إمكانك أن تعمل فى مصر شاعرا أو منشدا أو ضاربا للدف ؟!

عادت نبرة الوقاحة ولكن بحدة أشد :

ــ ولم لا ؟! اسع يا عبدوأنا أسعى معاك !

ــ ولماذا لا تسعى هنا ؟!

ــ ولماذا لا أسعى هناك ؟!

ــ وهل علمت فاطمة بنيتك هذه ؟!

ــ أردت أن أخبر الرأس الكبير أولا !

ــ لكنها صاحبة الشأن الأول .. ربما لا توافق على الفكرة !

ــ ليس لها أن توافق أو ترفض .. القرار قرارى فى النهاية !

ــ وهل ستصطحبها معك ؟!

ــ وهل يصطحب شباب النوبة زوجاتهم معهم ؟! أم أنهم يسافرون سنوات وسنوات لكسب قوتهم وإرسال ما تيسر إلى زوجاتهم وأبنائهم ؟! أنا نفسى لم يرنى أبى إلا بعد أن بلغت الرابعة من عمرى .. فكما تعلم ترك أمى حاملا للعمل سفرجيا فى فندق مينا هاوس قبل أن يعود ويشترى مزرعته !

تحسس إدريس مواقع كلماته فى حرص :

ــ وهل ستترك فاطمة حاملا أيضا ؟!

— هى أدرى بالإجابة عن هذا السؤال .. لست أنا الذى سأحمل وسألد !

تغاضى إدريس مرة أخرى عن الوقاحة المتنامية :

— وكم ستطول غيبتك هناك ؟!

— علم هذا عند الله !

— لكنك لم تعش معها سوى أربعين يوما !

— خير البر عاجله ! خير لى أن أشقى وأنا شاب لأستريح وأنا شيخ من أن أستريح وأنا شاب لأشقى وأنا شيخ !

هذا كلام جديد تماما على جاسر ! ظن إدريس أنه ربما كان يردده كالببغاء فتساءل فى ريبة :

— وماذا سيقول الناس عن عروس تركها عريسها بعد أربعين يوما ؟!

— سيقولون إنها تزوجت من رجل يدرك معنى المسئولية ! فهو يريد أن يشقى ويكدح فى الغربة من أجل أن يوفر لها الحياة الكريمة .. بدلا من التمرغ فى أحضانها إلى أن يعضهما الفقر !

ما أغرب هذا المنطق الجديد الذى يستخدمه هذا الولد العنيد ! إنه منطق متماسك يصعب الرد عليه ! لم يجد إدريس كلمات ينطق بها سوى : .

— قلبى مع فاطمة ! كيف ستعيش حياتها ونظرات التساؤل المريب تطاردها فى عيون الآخرين ؟!

لم يصمت جاسر إذ يبدو أنه وقع على كنز من الوقاحة:

— على الأقل ستعيش حياتها بحرية .. تستقبل ضيوفها .. وتمرح مع صديقاتها .. وتذهب إلى السوق لشراء حاجياتها .. وتصحب أمها لأداء واجبات العزاء .. يكفى أننى أنا الذى منحتها حريتها بعد أن عاشت سجينة طوال عمرها !!

أدرك إدريس أن مواصلة الحوار ستؤدى به إلى مناطق وعرة لن يعود منها إلا بالخسارة وقلة القيمة . صاح بصوت جهورى :

ـــ فاطمة .. فاطمة !

دخلت فاطمة الشرفة لتلبى النداء فطلب منها أن تجلس إلى جواره فجلست على وجهها نفس الابتسامة التى حيرته شهرا كاملا . سألها :

ـــ هل بدر منك ما ضايق زوجك ؟!

ـــ كيف أضايق رفيق عمرى وسند حياتى ؟!

ذهل إدريس للحكمة التى غلفت كل كلمة نطقت بها ! سألها بقلب ينضح مرارة :

ـــ هل تعلمين أنه قرر السفر إلى مصر للبحث عن عمل هناك ؟!

استوعبت فاطمة المفاجأة فى لحظات خاطفة ! فقد عاشت أربعين يوما تعلمت فيها معايشة أسوأ ما قد تأتى به المقادير ! أجابته فى نبرات متزنة متماسكة فظنها من أثر السكين التى سرقتها :

ـــ لم يخبرنى جاسر بهذا .. لكن هذا لا يهم كثيرا .. فالرأى رأيه .. والقرار قراره .. وكل ما أملكه أن أدعو له من قلبى حتى يوفقه الله فى مسعاه !

كاد جاسر أن يجن من تلك النعومة الثعبانية التى لا تمنحه الفرصة لتفجير الموقف وقلب الموائد على الذين ظن أنهم اصطادوه بعد أن ظن فى نفسه أنه الصياد الذى لا يبارى فى مهارته ! ساد السكون مع الظلام باستثناء بعض الأسماك التى تتقافز من حين لآخر فوق سطح النهر فتحدث صوت رذاذ كرفيف أجنحة الطيور . قطع إدريس حبال الصمت الغليظة مبتسما فى محاولة للتخفيف من وطأة الموقف :

ـــ هل يعقل أن يترك أنس الوجود زهرة الورد بعد أن هام على وجهه بحثا عنها فى كل مكان .. وبعد أن بلغ جزيرتها على ظهر التمساح الكبير واستطاع إقناع أبيها بحبه لها .. فرضى عنه وزوجها له ؟!

تذكر جاسر يوم اتهمه إدريس بالسكر وفقدان الوعى عندما قص عليه قصة

« أنس الوجود » ، فأراد أن يرد له الصاع صاعين :

— كنت أظن يا عمى أنك لا تقيم وزنا لهذه الأساطير !! عموما فهى مجرد أوهام نخترعها لتعوضنا عن البؤس والفقر وغير ذلك من الصفات التى أصبحت ملازمة لكل النوبيين !

— لا تظن أنك ستفعل فى مصر ما فعله الملك رمسيس فى فتوحاته .. ربما انتهى بك المطاف إلى الجلوس على دكة أمام إحدى العمارات !

— وحتى البواب الآن فى مصر .. يكسب أضعاف ما يكسبه أغنى رجل هنا !! ألم تسمع عن عم إبراهيم الذى عمل بوابا فى مصر عشر سنوات .. وعاد ليشترى أكبر مزرعة فى البلد ؟!

— وهل ترضى لنفسك أن تعمل بوابا بعد أن كنت فتى كلابشة الذى يسعى الجميع لكسب رضاه ؟!

— وما الذى كسبته من هذا الرضا ؟! على كل حال أنا واثق من مواهبى الفنية .. وأعتقد أن ما سأقدمه هناك سيكون فاكهة جديدة ذات مذاق جديد سيرحب به الجميع !!

لم يحتمل إدريس غروره الذى طفح مرة أخرى على السطح فآثر الصمت فى حين قالت فاطمة بصوتها الرقيق المشحون بحنان الأنوثة :

— حقق الله كل آمالك يا جاسر !

لم يستوعب إدريس حقيقة ما يدور فقال وهو ينهض :

— يبدو أنكما متفقان على كل شىء .. وتدخلى ليس سوى دخول بين البصلة وقشرتها !

نهضت فاطمة ثم جاسر الذى أشار إلى كوب الشاى :

— لم تشرب الشاى ؟!

— كل ما أتمناه لكما من صميم قلبى أن يربط الحب دائما بينكما سواء هنا

أو فى مصر — وأنا واثق من أن الطير المهاجر لابد أن يعود إلى موطنه !! فلتصبحا على خير !!

سارا معه بضع خطوات حتى باب بيت إدريس ليفتحه ويبتلعه ثم عادا وقد تلفحا بعباءات ثقيلة وداكنة من الصمت الكئيب ! كان جاسر يعانى من رغبة محرقة لمعرفة عما إذا كانت فاطمة صادقة فى سلوكها وكلامها أم أنها ممثلة قديرة وخطيرة تتلاعب بالمواقف وبالتالى بالبشر وهو فى مقدمتهم ! كبت نيران الرغبة داخله خوفا من أن يمد الجسور بينهما ثم يضعف أمام جمالها المغرى فتنهار لحظات القلعة التى حرص على تشييدها وتدعيمها طوال أربعين يوما !

أسرع إلى غرفة النوم كعادته ليلوذ بحافة العنقريب موليا لها ظهره كعادته فى حين كان عقلها فى أوج توهجه لمواجهة الموقف الجديد الذى أعلنه صراحة والذى وضعته فى اعتبارها ضمن الاحتمالات المتوقعة التى راودتها فى سهر الليالى السابقة ! إنه يريد أن يهرب منها لشعوره أنه وقع فى فخها ، وأن المسألة لم تكن أبداً مسألة عاشق ومعشوق بقدر ما كانت مسألة صياد وفريسة ، ومع ذلك لن تسمح له بالهرب لأنها تحبه وهو أيضا فى النهاية لن يملك سوى أن يحبها ، لكن ليس قبل أن يتخلص من أوهام الطفولة التى عششت فى كهوف عقله ! لكن كيف؟! هذا هو السؤال الذى يتحتم عليها أن تجد له إجابة قبل أن تسرع عجلة الزمن فى دورانها ويصعب بل ويستحيل إرجاعها إلى الوراء !



(١٢)

تلقت دارية الخير فى ذهول لكنها سرعان ما استوعبته لتخلو بابنتها كى تصارحها بكل شىء . فالموضوع لا يمكن أن يكون كما يبدو ، فلابد أن هناك من الأعماق والأغوار ما يتحتم كشفه حتى لا يصبح مصير وحيدتها وحدقة عينها لعبة بين يدى هذا الطفل المتقلب الأطوار .

ظلت فاطمة على إنكارها لوقوع أى شىء غريب ، بينها وبين جاسر . فالأمر لا يتعدى أن يكون مجرد محاولة مبكرة لتوسيع دائرة الرزق حتى تقام الأسرة على أسس متينة . لكن قلب الأم لم يقتنع ، فهى أدرى بابنتها ! كانا يجلسان سويا فى غرفة نوم الأم حين واصلت الأم إمطارها بأسئلتها الصريحة والملتوية لعلها تجد ثغرة تنفذ منها إلى قلعتها الحصينة :

ــ هل حاول إذلالك بتورطك فى الذهاب إليه مع شالوية ثم الهروب بأعجوبة من بيته ؟!

ــ لا .. لم يحاول !

ــ ألم يفعل شيئا ؟! ألم يعلق بشىء على أى شىء ؟!

التزمت فاطمة الصمت وهى تحاول تجنب نظرات أمها الثاقبة . أضافت الأم وهى تشعر ببوادر الرضوخ فى عينى ابنتها :

ــ لم أتعود أن تخفى علىّ شيئا يا حبيبتى ! أفضى بكل ما يثقل قلبك من هموم ! فإذا لم تبوحى لى فلمن تبوحين ؟! وقلب الأم لا يمكن أن يخدعها ! غدا تصبحين أما وتدركين معنى كلامى يا حبيبتى !

فجأة انطلق البركان الذى كبتته فاطمة منذ ليلة زفافها . ارتمت على صدر أمها

وأجهشت بالبكاء فاحتوتها وقبلتها فى جبينها وهى تربت على ضفائرها المنسدلة على ظهرها . خرجت كلمات فاطمة لاهثة وسط الدموع :

ـــ لم نتبادل كلمة واحدة سوى : صباح الخير ومساء الخير !

شهقت الأم وهى تكتم صيحتها :

ـــ هل يستطيع شاب فى سنه وسمعته فى دنيا العشق والغرام أن يقاوم هذا السحر الحلال الواقع بين يديه ليل نهار ؟!

ـــ استطاع !!

ـــ لابد أن الهالة التى أحاطته مجرد أوهام وأكاذيب !

ـــ لا أعتقد .. أحيانا كنت أستيقظ وقد تعرت ساقاى فأضبطه متلبسا بالتهامهما .. لكنه فى اللحظة نفسها يغمض عينيه ويدعى النوم أو يدير ظهره لى !!

ـــ لعب عيال !! ألم يحاول أن يلمسك ولو خلسة ؟!

ـــ أبداً ! كان فى عناده يبدو أحيانا كالبغل !

ـــ من يصدق أنك عذراء بعد أربعين يوما من زفافك ؟!

ـــ ومرة أخرى كنت أستحم وقد أغلقت الباب .. سمعت حركة خلفه فإذا به يتلصص علىّ من ثقب الباب !

أحدثت دارية بشفتيها صوتا كمص الليمون :

ـــ وماذا أيضا ؟!

ابتسمت فاطمة وهى تقول فى سخرية وقد تخلت عن صدر أمها :

ـــ ومرة أخرى كان خارجا ذات صباح للقاء أصدقائه والاستحمام فى النيل فاعترضه ذكر أوز كان خارجا من الفناء الخلفى فركله بعنف جعله يصيح من الألم !

لم تتمالك دارية نفسها فضحكت :

ـــ إنه يعرف فضل الأوز عليك جيداً ؟! فهو فضل لا ينسى !!

— إنه ليس جبارا أو ساحرا كما يتصور أو كما يوهمه الآخرون .. وأنا لست خائفة منه .. إنما يتركز كل همى فى الطريقة التى يمكن أن أحتويه بها بحيث لا يشرد بعيدا أكثر من اللازم !

— بارك الله فيك يا بنيتى .. إذا كان هو طفلا طائشا فلتكونى أنت العاقلة الحكيمة التى لا تسمح بأن تفلت الأمور من يديها مهما كانت صعبة ومعقدة !

— ما يحيرنى فعلا هو كيفية الحفاظ عليه وهو بعيد عنى فى مصر ! صحيح أننى متأكدة أنه إذا لم يكن يحبنى فإنه مرتبط بى دون شك بطريقة أو بأخرى .. وإلا كان فى إمكانه أن يطلقنى فى الصباح التالى للزفاف إذا كان يريد الانتقام منى بتدميرى تماما .. فبهذا يمكنه أن يثأر لحادثة الشاوشاو .. لكنه لم يفعل شيئا من هذا .. وكل ما قدره ربنا عليه أنه قرر الفكاك بجلده إلى مصر بعد أن شعر بقوتى وصمودى فى وجه محاولات الإذلال والتجاهل والاحتقار !

— كل ما أتمناه لكما هو هدوء السر والبال !

عادت ابتسامة السخرية إلى شفة فاطمة السفلى المغطاة بالوشم الذى نقشته قبل الزفاف بأيام قليلة :

— نحن نتمتع بهدوء السر أكثر من اللازم .. لكننا فى أشد الحاجة إلى هدوء البال !

— لماذا لا تستخدمين حقك عليه كزوجة . وتطلبين منه اصطحابه إلى مصر لترعى شئونه ؟!

— إنه هارب منى وليس من البلد .. فهل تظنين أن يصطحب من يريد الهروب منها ؟!

طفحت الحيرة على وجه دارية وفقدت قدرتها المعتادة على حسم الأمور فى لحظات خاطفة :

— حيرنا .. حيره الله !!

— لم يغب احتمال سفره عن بالى حتى قبل أن يصرح به ! لكننى عجزت عن إيجاد الخطة التى يمكن أواجه بها هذا الموقف شبه المستحيل !

عاد العزم والتصميم إلى وجه الأم :

— لابد أن هناك خطة ما ! أبو الأفكار عمره ما يحتار !! وحتى إذا وجدناها فلابد أن تحظى بموافقة زوجك قبل سفره .. وأيضا موافقة أبيك بحكم أنه ولى أمرك فى غيابه !

بدا وميض غريب لم تألفه دارية من قبل فى عينى ابنتها السوداوين الواسعتين . قالت فاطمة :

— طالما أننى تزوجت فولى أمرى هو زوجى حتى لو كان مسافرا بعيدا .. وأى خطة من شأنها الحفاظ على زوجى سأنفذها بلا تردد حتى لو لم تنل رضاء أبى !! أما زوجى فقد هرب بجلده وبرضائه !!

تأملت ابنتها وهى تضيق من فتحتى عينيها :

— هل هناك خطة معينة فى ذهنك ؟!

— لو كانت فى ذهنى لبحت بها لك .. فلاشك أننى سأكون فى حاجة إلى مساعدتك .. وقدرتك على إقناع أبى إذا لم تكن على هواه !

— منذ أن دخل هذا الجاسر حياتنا .. ويبدو أننا سنقضى حياتنا فى وضع خطة بعد أخرى !!

— لا تنسى أنه ابن عمى .. كما لا تنسى أن حياتى فى هذا البيت بدأت بخطة إخفائى عن عيون الآخرين !!

— لقد تغيرت كثيرا يا فاطمة فى الأيام الأخيرة !

شردت فاطمة بنظراتها عبر النافذة تمسح سطح النهر الجليل الذى استكان لمداعبة الأشعة الذهبية التى أحالت بعض بقاع صفحته إلى وميض أخاذ . قالت وهى لا تزال فى شرودها دون أن يبدو أنها استمعت إلى كلمات أمها :

ـــ يبدو أنه فى حاجة إلى أم وليس إلى زوجة ؟!

ـــ كيف تكونين أما لرجل أكبر منك فى السن ؟!

ـــ المسألة ليست مسألة سن يا أمى !! وأنت نفسك كثيرا ما رأيتك وأنت تعاملين أبى كطفل كبير !!

لم تتمالك دارية نفسها فجحظت عيناها ذهولا :

ـــ حفظك الله لشبابك يا فاطمة .. لا تتصورى مدى سعادتى باستماعى إلى هذا الكلام .. إذا كان الله قد منحك هذه الحكمة فلا خوف عليك !!

احتضنتها فى حنان دافق فى حين واصلت فاطمة حديثها الطافح بالإصرار والإرادة بنظرات مثبتة على صفحة النيل :

ـــ لم يعد هناك ما نخاف عليه !! سيحولون مجرى النيل وستغرق بلادنا كلها فى طوفان كطوفان نوح !! فهل نخاف من تحويل مجرى حياتنا ؟! لن تعود الأمور سيرتها الأولى أبداً !

ربتت على ظهرها مداعبة :

ـــ يوم الحكومة بسنة !!

ـــ عشنا العمر كله متواكلين .. فى انتظار ما تأتى به الأيام .. لكننى لن أنتظر وسترون !

انعكس وميض الصفحة الذهبية المتوهجة على عينيها الواسعتين المتألقتين بسواد أسطورى ، وعلى شفتيها المطبقتين بإصرار حديدى فزادها جمالا على جمال !



(١٣)

تهادى المركب بشراعه الشامخ المنتفخ بهواء النيل بين ضفاف كلابشة وبيت الوالى ودار موسى وطافة وقرطاسى ودابود حتى فيليه المحطة الأخيرة قبل أسوان التى يبدأ منها القطار المنطلق إلى القاهرة . أصر إدريس وفاطمة على توصيل جاسر إلى أن يطأ بقدمه عربة السكة الحديدية حتى يشعر أن الدماء لا يمكن أن تتحول إلى ماء .

كان المركب محملا بالأوانى الفخارية وأجولة البلح الإبريمى والذرة الرفيعة والفحم النباتى . كانت حركته وئيدة ، فالرياح الشمالية تسود معظم العام خاصة فى الصيف مما يساعد المراكب الشراعية على السفر إلى الجنوب ، ولذلك فإن سرعتها تقل وهى متجهة شمالا مما آثار ضيق جاسر الذى كان ينظر إلى ساعة يده من حين لآخر وكأنه متلهف على الفراق ، ومع ذلك كان يختلس البصر إلى فاطمة كلما ظن أنها لا ترقبه غير مدرك أن ظنه لم يكن فى محله ! حتى الخاتم الذى منحته إياه ليحفظه من الشر لم يلبسه فى إصبعه !

كان جاسر يظن أنها ستنهار مولولة باكية على عريسها الذى هجرها بعد أربعين يوما من زفافها دون أن يمسها ! وكان يتمنى هذه اللحظات التى يراها فيها ذليلة ، كسيرة ، بائسة ، لكن أمنيته لم تتحقق . حتى الحزن لم يبد على وجهها أو فى عينيها الواسعتين السوداوين ، بل على النقيض من ذلك تماما . كان وميض عينيها ، وانطباقة شفتيها المكتنزتين ، وبوادر ابتسامتها التى تلوح كلما ضبطته متلبسا باختلاس النظر إليها ، كلها لمحات خاطفة أصابته بالإحباط والحيرة . كان يظن فى نفسه فتى كلابشة المحير الذى لا يستطيع أحد أن يتنبأ بخطوته التالية ، فإذ به

وقد رزقه الله بزوجة تفعل عكس ما يتوقعه منها تماما ، لدرجة أنه قرر فى نفسه أن يترك القطار فى محطة أسوان ليرحل دون أن يحمله إلى مصر لو أنها انهارت على الرصيف والتف المسافرون حولها لتقصى سبب بكائها وولولتها ! عندئذ سيتأكد من أنه نجح فى إذلالها وتأديبها ! وقد يفكر فى العودة معها إلى كلابشة !

امتزج منظر الصخور والتلال الرملية والترابية على الضفتين بسكون الريح وخرير المياه التى يشقها المركب فى تأن وهوداة . ترك بعض المسافرين أنفسهم للنعاس فى حين انشغل البعض الآخر بالثرثرة حول اقتراب تحويل مجرى النيل الذى سيغرق النوبة فى قاعه وكأنها لم تكن بعد حياة طويلة تقاس بآلاف السنين :

ــ رأيت بنفسى الريس جمال ومعه ملك المغرب . وشكرى القوتلى وهم يضعون حجر الأساس ويفتتحون العمل فى السد العالى فى يناير من العام الماضى !!

ــ يقولون إن تحويل مجرى النيل سيتم عام ١٩٦٤ .. يعنى لا يزال أمامنا ثلاث سنوات ونصف من الآن !

ــ سمعت أنهم يسرعون فى بناء بيوت النوبة الجديدة ما بين أسوان وكوم أمبو ؟!

ــ لن يتبقى من النوبة سوى اسمها !!

ــ لا تقل هذا ! فالنوبة بناسها قبل أن تكون بأرضها !!

ــ الأرض أرض الله حيثما كانت !

ــ سننتقل إلى النوبة الجديدة بكل أسرنا وحياتنا وتقاليدنا التى لن نغير منها شيئا !

ــ اعتدنا على رحيل أبنائنا إلى مصر سعيا وراء الرزق .. والآن كتب علينا أن نرحل جميعا هربا من الطوفان !!

ــ على كل حال .. الطوفان ليس شيئا جديدا علينا .. فطالما تحدثنا عنه وتنبأنا به !

ـــ كيف ؟!

ـــ هل نسيت قصة النبى الصالح نوح التى لا نزال نرددها لأبنائنا وأحفادنا ؟! وكيف ظل مع من آمن فى السفينة إلى أن فاض الماء ؟!

ـــ بل إن السفينة هبت عليها عاصفة فأوشكوا على الغرق عندما ارتطمت السفينة بجزيرة .. لكن الناجين منهم هبطوا عليها يوم الأربعاء !

ـــ آه فهمت !! فهمت السر فى احتفالنا بيوم الأربعاء الأخير من آخر شهر فى العام العربى !

ـــ وها قد آن الأوان بعد آلاف السنين كى ننجو بأنفسنا من الطوفان القادم مع السد العالى !!

ـــ وربما كان رحيلنا يوم أربعاء أيضا ؟!

ـــ يعز علينا أن نترك أرض آبائنا وأجدادنا إلى الأبد !!

ـــ إنه قضاء وقدر !!

ثم عاد السكون ليقبض بأصابعه على الضفاف الصخرية والتلال الرملية والكثبان الترابية ، والمركب لا يزال يتهادى فى سيره الوئيد . قطع إدريس السكون سائلا زوج ابنته :

ـــ هل سنراك قبل أن نرحل إلى الأرض الجديدة ؟! على الأقل كى تلقى نظرة أخيرة على كلابشة قبل أن تختفى إلى الأبد ؟!

تجنب جاسر نظرات فاطمة الثاقبة ، ولملم ذيل جلبابه الأبيض الفضفاض حول ساقيه ، وركز عينيه على البيوت البيضاء القابعة على اليسار :

ـــ كل شىء بإذنه !

لم تمنع فاطمة نفسها من التعليق وحسرة عينيها على الإصبع الخالى من الخاتم :

ـــ ونعم بالله !

ود لو لم تفتح فاها على الإطلاق ! فكل مرة تتكلم فيها تثبت له أن انهيارها

أمامه واستسلامها له أمر بعيد المنال ، ومع ذلك فلا تزال عنده بقية من أمل عند لحظات الوداع قبل ركوب القطار !

مر المركب بدار موسى فغشيت صدر إدريس سحب من الضيق والكآبة . صحيح أنه عاد من دار موسى بمبلغ كبير أعانه على تجهيز ابنته ، لكن الأمور لم تعد سيرتها الأولى بعد عودته منها . فمنذ ذلك اللقاء الذى تم بينه وبين جاسر عند وصوله إلى مرسى المراكب فى كلابشة ، وهواجس مريرة تنتابه من حين لآخر . ولعل موافقته السريعة على عقد القران كانت بمثابة هروب من هذه الهواجس التى تطارده فى صحوه ومنامه ، لكن الزواج لم يضع الأمور فى نصابها كما ظن ، وها هو جاسر يهجر عروسه بعد أربعين يوما من الزفاف دون أن يستطيع أحد أن يوقفه عند حده ! أما ما أثر ذلك على فاطمة فى الأيام المقبلة فعلم ذلك عند الله ؟! وإن كانت تبدو متماسكة وصلبة حتى هذه اللحظة ! ربما كانت تمثل وتتظاهر لكن الأيام القادمة ستكشف النفوس وتعريها مثل وهج الشمس الذى يلسع المركب بسياطه لولا نسمات طرية تهب من حين لآخر فوق صفحة النيل التى تتماوج تحت المركب فتشقها بمقدمتها .

رفع النوتى عقيرته بالغناء وهو يعيد ربط الشراع إلى الصارى :

— ووُمَسِرنَا يلْنجَا تُونْ فَنُّونى — يا من لا تسأمين مصرا
شِيَتـا نْجَائـالا ئَارِنِّى — العنى الشيطان وعودى
سَفَرُ وسُكُونا فَيَاتُّا نجُو — الذى سافر تصحبه السلامة
جلْبَا هِيرُ جُـنْـو — وكذلك الخير يتبعه
وُوسَفْر مُوْ ارِكِلاَ جِكُّو — فيا من بلا رحيل يقيمون فى البلد
أكُون افيا لجُوُ — أنتم أيضا تصحبكم العافية
آيجُوْنَ فسافِرُ ولِينى — فأنا سوف أسافر

أطلق بعض المسافرين صيحات الاستحسان فى حين اكتفى البعض الآخر

بالتنهد . هبط النوتى من على الصارى بخفة لاعب السيرك سعيداً بالاستحسان ليواصل غناءه :

— أبـا هَمَّـامْ جُـوزَا مِنْكَـوكْ	أيـن زوج الحمـام كان هنـا !
أبَاوِىَ وايـا نِقِـلاَ سِلاُنجُـو	أيـــن ذهـــبت إحـداهــا
أونـا دِينْجـوْن قَيْفِـلاَ وايُونـا	والأخـرى تتـأهب للرحيــل
آى امنْ كُوتْلايجا دُمْنا مِينْجُوسَا	والماء حتى ركبتى وأنا أفكر
آيـكا شَـاوِرَدِا	هـــل أغـرق أم أعـــود ؟!
أبـــا كِـدُوبــا ويـدُوبَــا	إن الغـريق لا يخـاف المـوج

عاد السكون الذى لم يقطعه سوى تلاطم الموج حول جنبات المركب . كانت دار موسى هى القرية الوحيدة التى تقع على الضفة اليمنى أما الضفة اليسرى فتوالت عليها طافة ثم قرطاسى ودابود وفيليه التى رسا بعدها المركب ليهبط كل المسافرين فى طريقهم إلى محطة قطار أسوان .

على رصيف محطة أسوان وضع جاسر حقيبته المصنوعة من الخيش الكاكى السميك أمام فاطمة وأبيها ليختفى بين الوجوه السمراء ، والجلابيب البيضاء ، والعمائم الملفوفة حول الرؤوس ، والمراكيب الحمراء والصفراء والسوداء ، والعقود الفضية على الصدور ، والضفائر الطويلة المتدفقة على الظهور تحت الطرح ، والخلاخيل حول السيقان الرقيقة ، والعيون الكحيلة ، والحلقان المعلقة ما بين أعلى الآذان ومنتصفها وأسفلها .

كان الجميع فى انتظار قدوم القطار فى حين هرع جاسر ليقطع تذكرة السفر . نظر إدريس إلى الساعة العريقة البارزة من مبنى المحطة وهو يدق الأرض بركوبه :

— تأخر جاسر !

لم ينتقل قلقه إلى فاطمة التى قالت فى هدوء :

— لابد أن هناك طابورا أمام شباك التذاكر !

كانت الشمس قد خففت من حدة لهيبها مع اقتراب المغرب . لم يملك إدريس سوى أن يتساءل فى دهشة :

ـــ أرى أن الحزن أو حتى مجرد التأثر لا يبدو عليك ؟!

حملقت فيه بنظرات لم يألف مثلها من قبل :

ـــ ماذا تريدنى أن أفعل يا أبى ؟! أأولول أم أبكى أم أنتحب أم ألطم الخدود وأجعل من نفسى فرجة بلا مقابل ؟!

ليست هذه فاطمة التى قام بتربيتها فى قمقم :

ـــ أدام الله عليك يا بنيتى نعمة الأعصاب القوية !

ـــ هو الذى قرر الفراق بهذا البرود فليس أقل من أن أتقبله بنفس البرود ! إن لم يكن أكثر !

ـــ لكن الحياة الزوجية لا تحتمل الشد المتواصل للحبل من الطرفين !!

ـــ ولا تحتمل أيضا أن يكون الشد المتواصل من طرف والإرخاء المتواصل من الطرف الآخر !!

ـــ كل ما أتمناه يا بنيتى أن تعود المياه إلى مجاريها !

ـــ لم تكن هناك مجار منذ البداية كى تعود المياه إليها !! علينا أن نشق نحن هذه المجارى بجهدنا وصبرنا وتفكيرنا وتخطيطنا !

ـــ وأنا لا أتمنى أكثر من هذا !!

اهتزت جدران المحطة لهدير القطار القادم بعرباته التى لا يبدو آخرها . تلفت إدريس فى قلق صوب شباك التذاكر فلم يجد أثرا لجاسر . حمل حقيبته وأمسك بيد فاطمة :

ـــ هيا نبحث عنه !

قاومت فاطمة يده فتوقف ليسمعها :

ـــ أراك يا أبى فى لهفة حتى لا يفوته القطار ؟!

التصقت قدماه بصلابة الرصيف ! حار فى البحث عن رد مناسب ! ظل فى حيرته وهو يتابع المسافرين الذين ابتلعتهم عربات الدرجة الثالثة تباعا ، حتى ظهر جاسر قادما فى غير عجلة وقد ركز عينيه على فاطمة التى افترت شفتاها الغليظتان عن بوادر ابتسامة لم يدرك أى معنى لها . مد ذراعه لإدريس :

— أراكم بخير .

جذبه إدريس من ذراعه واحتضنه بعنف :

— حفظك الله فى غربتك وأعادك إلينا سالماً غانماً !

دوى صفير القطار فى الآذان إيذانا بالرحيل . انتهى العناق تمد فاطمة يدها التى أمسك بها وكلماته تضيع بين زئير القطار وضجيج المسافرين :

— مع السلامة !

— مع السلامة !

أخذ حقيبته من يد إدريس متجنبا تبادل النظرات ليبتلعه أقرب باب فى حين أسرع إدريس ليتابعه بعينيه لكن القطار كان قد شرع فى التحرك بين الأيدى التى تلوح من النوافذ والأذرع المتماوجة فوق الرصيف ، وظلال العربات التى انعكست عليها أشعة الغروب فى تتابع مستمر على المودعين حتى انقشعت لتفترش الرصيف مرة أخرى بعد اختفاء القطار .

إذاً .. هذه هى أسوان أخيراً ! جملة ترددت داخل فاطمة وهى تخرج مع أبيها من بوابة المحطة إلى أحضان المدينة الدافئة . هذه المدينة التى سمعت عنها كثيراً من أبيها وأمها ! المدينة التى تزخر بالسياح من كل بقاع العالم ! بوابة النوبة التى يتدفق منها السياح إلى آثار ومعابد فيليه ودابود وقرطاسى وكلابشة وبيت الوالى ودندور وجرف حسين والدكة وقلعة كوبان ومعبد وادى السبوع وعمدا والدر وقلعة قصر إبريم ومعبد أبو سمبل وأبو عودة ! الآثار والمعابد والقصور والقلاع الجارى نقلها خوفا من الطوفان !

اجتاحت فاطمة سعادة خفية غامضة لم تشأ أن تفصح عنها حتى لا يشك أبوها فى قواها العقلية . كانت كمن يمر بمرحلة ميلاد جديد ! ها هى المدن التى سمعت عنها تراها مرأى العين ! الأنوار قوية ، والطرقات فسيحة ، والمبانى شامخة راسخة ، والوجوه من كل الألوان والأعمار ! كأنها فى حلم ! بل إنها رأت أسوان فى حلم ، أيام السجن الاختيارى ، فلم تكن تختلف كثيرًا عما تراه الآن ! الدنيا جميلة ومثيرة وفيها الكثير مما يجب مشاهدته ومعرفته ! وشكرا لجاسر على أية حال ! فقد أعتقها من سجن أبيها دون أن يدخلها فى سجن حياته ! بل ترك لها الجمل بما حمل ، ولعل حريتها كانت أجمل ما حمل ! فتحت عينيها وأذنيها لترى وتسمع وتقارن ! وها هى ليلتها الأولى التى تبيتها خارج كلابشة ، بعد أن باتت أول ليلة لها خارج بيت أبيها منذ أربعين يوما وليلة ! فقد قرر أبوها أن يزور ابن خالته الذى يعمل كبيرا للسفرجية فى فندق كتاراكت ! سترى الفندق وستدخله معه لزيارة العم جمال والعودة معه للمبيت عنده فى بيته المطل على كورنيش أسوان .

ها هى الدنيا تفتح لها أحضانها الساخنة الفوارة مرحبة بكل حرارة أسوان ، وستترك نفسها للارتماء بينها لتلمس جمالها ، وتشم رائحتها ، وتنهل من منابعها . فقد رفعت الوصاية عنها أخيرا و لم تعد تحت رحمة أحد !



(١٤)

هبط الظلام على القطار فبدا فى عينى جاسر عند انحناءات القضبان تنينا أسطوريا بعيونه المضيئة فى خفوت ، وزحفه على بطنه فى رتابة . كان القمر يصبغ الأشجار والقنوات والبيوت المقتربة والمتباعدة والحقول والسواقى والتلال والروابى بلونه الفضى الغامض الحانى ، فى حين رددت جدران البيوت وأسوار الحقول الطينية أصداء قعقعة العجلات الحديدية ، وزئير القاطرة الذى أثار رعبا غامضا داخل جاسر الجالس على مقعد الدرجة الثالثة الخشبى .

حاول جاسر أن ينام مثل معظم المسافرين الذين غفوا على المقاعد أو على الأجولة أو القفف مع هزات العربة الرتيبة ، لكن أفكاره وهواجسه وآماله ومخاوفه سطعت داخله فبدت مصابيح العربة ذبالات خافتة وسط دوامات التراب التى تهب من حين لآخر من النوافذ المفتوحة أو المكسورة .

ها هو القطار يدخل فى منحن آخر فتبدو عربات النوم والدرجة الأولى ساطعة النوافذ حيث يغط السادة فى نوم عميق والهواء المكيف يتسلل ملابسهم ويداعب أجسامهم ، أو يتناولون القهوة والشاى ، أو يطالعون الصحف والمجلات ، أو يلعبون الورق ، أو يتبادلون النكات السياسية والجنسية ! فقد لمح جاسر كل هذا عندما سافر ذات مرة إلى الأقصر للعمل فى أحد فنادقها ، وقبل بلوغ القطار للأقصر أصر على اختراق القطار بطول عرباته حتى بلغ عربات النوم وظل مرابطا بإحداها حتى هبط منها إلى الرصيف . كان كأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة حيث تلاشى الضجيج والتراب والرمل ، وتوهج الضوء الأبيض ، وانطلقت العطور من الوجوه النضرة والصدور البضة لا تلوى على شىء !

كانت الأقصر أبعد محطة بلغها جاسر فى حياته ، لكنه سرعان ما عاد إلى كلابشة بعد أن رفض أن يعمل شبه خادم فى الفندق وهو فتى كلابشة الساحر .
وها هو القطار يغادر محطة الأقصر التى بدت ناعسة فى الظلام برغم المصابيح المتناثرة خارج المبنى فى الشارع الموازى له . كانت غلالة شفافة من التراب أو الرمل الناعم تحيط بالمصابيح مع برودة تسللت من النافذة فضم جاسر الصديرية حول جنبيه . فهو خبير بليالى الأقصر وفتياتها .

لكن بمجرد اختفاء الأقصر وعودة الظلام ليبسط سلطانه ، قرر جاسر أن يقهر بوادر الخوف النامى داخله . صحيح أنه يتجاوز الآن آخر تخوم بلغها ، لكنه لا يقوم برحلة إلى المجهول . فهناك فى القاهرة يقيم أبناء كلابشة وغيرها من قرى النوبة فى حى بولاق القريب من محطة مصر . ولابد أنهم سيمدون له يد المساعدة فى بادئ الأمر . لكن هل يمكن أن ينتهى به المطاف على دكة أمام باب عمارة كما بشره أو أنذره عم إدريس ؟! ليس هو الذى يسافر بالقطار أكثر من ألف كيلو كى يعمل بوابا فى النهاية ! لشد ما يمقت الخنوع والخضوع والاستسلام والتواضع والقناعة فى أبناء جلدته ! صحيح أنهم اشتهروا بالأمانة والصدق والإخلاص والوفاء والطيبة والبراءة والتسامح ، لكنهم شعب بلا طموح فى حين أنه يحترق بطموح الشهرة والمجد والمال ! كلهم قانعون بالسير والتعثر فى ذيل الحياة قناعة هؤلاء الناعسين والغافين بين جنبات الدرجة الثالثة الحافلة بالرمل والتراب والدخان والهجير نهارا والصقيع ليلاً ! لم يفكر أحدهم فى لى ذيل الحياة والقفز إلى مقدمتها ، كما لم يفكر أحد رفاقه فى السفر فى الانطلاق إلى الدرجة الأولى ، لدرجة أنه تصور أن الدرجة الثالثة قد خلقت خصيصا لأبناء النوبة ولولاهم لظلت مقاعد كثيرة فيها شاغرة ! والدليل على ذلك نسبة الوجوه السمراء للوجوه الخمرية أو القمحية أو البيضاء .

وجد من المحتم عليه أن يتسلح بالسلاح الذى لم يعرفه أهله طوال حياتهم :

سلاح النقمة ! السلاح الذى لن يسمح له بالتراجع أو التواضع أو الاستسلام للمشاعر والعواطف التى تلين القلوب فتحيلها إلى كائنات رخوية هلامية لا تثير سوى العطف والشفقة أو حتى التقزز والاشمئزاز ! ولعل هذا هو ما أثار إعجابه الدفين بفاطمة فى الأيام الأخيرة برغم نقمته الظاهرية عليها وتجنبه الكامل لها ! لم ترضخ و لم تلن و لم تهرع إلى استعطافه ، و لم تعرف عيناها الدموع حتى وهو يطأ القطار ! فقد ساعده كل هذا على أن يحيل قلبه إلى كتلة من الحديد البارد برودة هذه الليلة .

فقد استمتع بفراقها ! وإذا كانت قد تظاهرت بعدم الاهتمام كنوع من التحدى الخفى له ، فهى لا تدرك العاقبة الوخيمة لمسلكها هذا إذ أنه قرر بصفة نهائية وقاطعة عدم العودة إلى النوبة سواء ظلت فى مكانها أو انتقلت إلى إسنا وكوم امبو !! يتركها هكذا كالبيت الوقف لا يستطيع أحد أن يتصرف فيه أو يقترب منه ! وستتابع بعينى رأسها حياتها وهى تتسلل من بين أصابعها كالرمال الناعمة وسط عاصفة هوجاء ! وهى لا تستطيع أن تدعى أنه تركها عذراء وفر منها لانعدام رجولته التى خبرتها فتيات كثيرات كما أنها لا تستطيع طلب الطلاق إلا إذا طلقها هو بمحض إرادته !

ابتسم جاسر لعدم إطاعته للوسواس الذى أوحى إليه بتطليقها صباح اليوم التالى للزواج على سبيل الانتقام القاتل لها ! فقد كان من الممكن أن يطلب أبوها الكشف عليها حتى لا تذهب حياتها هدراً ! فى تلك اللحظة كان من الممكن أن يتحول إلى مجرم قاتل فى نظر الجميع ! و لم يكن هو الذى يعاشرها معاشرة الأزواج ثم يدعى عليها مثل هذا الادعاء القاتل ! فهو لا يمكن أن يصل إلى هذا المستوى من الانحطاط ! لكنها على أية حال فتاة محيرة حيرة توشك أن تفجر رأسه كلما ترك لنفسه العنان للتفكير فيها ! لابد أن يعترف لنفسه أنه تركها وفى نفسه شىء منها ! هل يمكن أن يمتزج الحب بالرغبة المحرقة فى الانتقام من المحبوب بحيث يعجز

المحب عن التفرقة بين هذا وذاك ؟!

توغل القطار فى الظلام مقتربا من محطة قنا . تمنى جاسر أن يغفو لكن شغل المكان المجاور بمسافر صامت منعه من أن يمد جسده على المقعد بأكمله ويسترخى . لو كان السفر نهارا لكان أكثر تسلية ! فمشاهدة المدن والمحطات والقنوات والنيل والسدود والقناطر والجسور ، ومتابعة السيارات والحافلات والشاحنات التى تسابق القطار على الطرق الموازية للقضبان ، وتأمل الأفندية فى شوارع المدن والفلاحين فى الحقول أو مع السواقى والطنابير ، كلها مشاهد مسلية كفيلة باختصار الوقت الذى يقطعه القطار فى طريقه إلى مصر . لكن الليل يغطى الأشياء بردائه الداكن فتصبح متشابهة مملة بل ومختفية تماما عندما يغيب القمر وراء سحب داكنة .

سمع جاسر كثيرا عن الفيضان الذى يغرق الحقول والجسور فى شهرى أغسطس وسبتمبر مما يجعل القطار فى بعض الأماكن سفينة تمخر عباب الماء . لكنه الآن فى شهر فبراير الذى تتخلى فيه المياه عن نزقها وطيشها وتسير عاقلة رزينة بين جنبات النيل والترع والقنوات . أما بعد ثلاث أو أربع سنوات ، أى بعد تحويل مجرى النيل وبناء السد العالى فسيتخلى النيل عن شبابه وحيويته وشطحاته ليصبح شيخا وقورا يسير الهوينى ، ولا يسمح له بالانطلاق من حين لآخر إلا بإذن من أبنائه .

فقد جاسر الاهتمام بمتابعة المرئيات المغلفة بضوء القمر ، والمحطات والمدن الناعسة فى الأضواء الشاحبة . فهو لا يكره فى حياته أكثر من الرتابة والتكرار وغير ذلك من الصفات التى دفعته إلى الهرب من النوبة . ولذلك لا يدرك حتى الآن كيف احتملت فاطمة سجن أبيها لها طوال عمرها الذى سبق زواجه منها ؟! لابد أنه هو الذى جفف ينابيع العاطفة فيها وأحالها إلى هذا الكيان الذى جعلها تكاد أن تبتسم وهى تودعه أمام القطار دون أى تحديد لعودته ! لابد أن هناك

فرقا بين قوة الشخصية وجفاف العاطفة ، وهى قوة لا يمكن أن تكون قد تعلمتها فى سجنها ! ولذلك لا يشعر بأنه ظلمها لأن الإحساس بالظلم ينشأ مع الإحساس نفسه وهى فتاة عديمة الإحساس ! بل إنه كان يود أن يجرحها مثل هذا الإحساس ، لكن شيئا من هذا لم يحدث ! يكفى أنها لم تسأله عن إصبعه الخالى من خاتمها !

أخيرا استطاعت هدهدة القطار أن تجلب بعض فترات متقطعة من الإغفاء والنعاس إلى عينى جاسر وجسده المشدود ليدخل فى أضغاث أحلام يرى فيها فاطمة حزينة لفراقه وشالوية تتوعده بالثبور وعظائم الأمور وإدريس يلومه على الرحيل وعقد الشاوشاو الفضى يسقط تحت عجلات القطار فيتناثر على القضبان هنا وهناك وسط صياح لأوزة لم يرها ، وأصابع تمسك بكتفه ثم تهزه بشدة ليستيقظ على وجه مفتش القطار يطالبه بالتذكرة . قدمها له وكأنه يراه فى الحلم ثم أعادها الرجل فدسها جاسر فى جيبه حتى لا يهرب منه النعاس الذى أمسك بتلابيبه برغم صلابة المقعد الخشبى البارد .

بعد فترة لم يعرف جاسر طولها سرت اليقظة مع برودة الأطراف فأسرع بفتح حقيبته الكاكية ليخرج سروالا صوفيا كان أبوه قد منحه إياه لمقاومة برد مصر ورطوبتها . ارتدى السروال تحت الجلباب فسرى بالدفء فى ساقيه ليعود إلى إغفاءته التى ساعدته على طرد الخواطر المتلاطمة التى جعلت أشباح الفشل وخيبة الأمل تتراقص أمامه فى مصابيح العربة الخافتة ، كما ساعدته على التخلص من ملل ساعات السفر الطويل الرتيب .

كان جاسر قد أسند رأسه إلى جوار العربة وغط فى نوم عميق برغم أزيز زجاج النافذة المغلقة . لم يعرف كم مر من الوقت عندما استيقظ على بوادر الفجر التى بدت فى حياء عند خط الأفق الذى ينطبق على الحقول والصحارى والروابى والبيوت . لم يتبين أسماء المحطات الصغيرة التى كان القطار العملاق ينهبها نهبا ،

وتغطيها عجلاته بسحب من التراب والرمل الناعم . ثم أخذ القطار يهدئ من سرعته لتبدو على مرمى البصر مدينة كبيرة ببيوتها الضخمة والعريقة الموازية للقضبان والتى ظلت تتتابع فى عينى جاسر نصف المفتوحتين حتى توقف القطار ليقرأ اللافتة الأسمنية الراسخة فوق الرصيف : المنيا .

أسرع بعض المسافرين بحقائبهم ليخرجوا من الباب فى حين دخل آخرون كانوا قابعين على الرصيف . بدت المحطة وكأنها غسلت وجهها بندى الفجر ، وشعر جاسر لأول مرة ببرودة من نوع غريب ! إذاً فهذا هو البرد الذى كلمه عنه أبوه وحذره منه ! قام ليتمشى فى الممر الواقع بين المقاعد جيئة وذهابا لعله يحصل على دفء الحركة . دخل دورة المياه ليعود بعدها إلى مقعده . وقد عاد القطار إلى زئيره الذى تردده جنبات الوادى وهو يطوى الأرض بسرعة تصور معها جاسر أنه على وشك أن يطير ! أين كل هذه الحركة والضجة من هدوء كلابشة ونعاسها ؟!

كانت السماء تمطر رذاذاً عند بنى سويف فحاول جاسر أن يتذكر آخر مرة رأى فيها المطر فتبادر إلى ذهنه فيلم إنجليزى كان قد رآه فى دار سينما بالأقصر ! آه من الأقصر ! لولا المهنة الحقيرة التى ارتهن وجوده بها هناك لما تركها !فالأجساد البيضاء المشربة بالحمرة وشبه العارية حول حمام سباحة الفندق تهب عليه صورها من حين لآخر وكأنها حفرت فى مخيلته بخطوط من نور ونار ! وبعد كل ما رأى وجرب من متع الحياة ولذائذها يأتى عم إدريس ليعز عليه ابنته وكأنه يملك كنز الملك سليمان الذى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ؟!

كان ضوء الفجر قد غمر الكون وأعقبته الشمس التى بزغت من خدرها لتشيع الدفء بأصابعها الحانية وتكشف كل ملامح الوجود وتفاصيله . أنشب الجوع نابه البارد فى بطن جاسر فأخرج من حقيبته قطعة من عجوة البلح ضمن أطعمة جافة أخرى دستها له أمه حتى لا يحتاج إلى البحث عن طعام فى أيامه الأولى فى مصر . ظل يلوك العجوة فى فمه وهو يتابع حركة السيارات المسرعة ، وسير

الناس اللاهث . الكل فى عجلة من أمره . فتذكر شتاء النوبة حيث لا عمل ولا زراعة ولا رعى ، فالماء يرتفع ويفيض إلى أن يصل إلى عتبات البيوت . ولذلك فالشتاء هو موسم الأعراس والمناسبات السارة ، وعرسه لم يكن استثناء من هذه القاعدة وإن لم يكن مناسبة سارة !

ترك جاسر النوبة فى وقت فراغها وغنائها وطربها . فالشتاء لا يعمل فيه سوى الفتيات غير المتزوجات اللاتى يصنعن السلال والحصر وأطباق الخوص كمدخرات فى بيوتهن بعد الزواج . والفتاة العاشقة تكتب بالنقش اسم حبيبها أو العلامة التى يفهمها ويحبها . وقد وجد جاسر فى بيته بعد الزواج بعض الأطباق والسلال والحصر التى نقشت عليها فاطمة اسمه ، وعلى البعض الآخر رقصة الفرى أو رقصة السمك البلطى التى يعشقها جاسر ، لكن خبثها أوحى إليها أن ترسم أوزة على حصيرة صغيرة وهى تعلم تماما إلى أى مدى يمقت الأوز ! إنها بهذا تتصور أنها قادرة على التلاعب بعواطفه ومشاعره ، فما كان منه إلا أن أثبت لها عمليا أنها لا شىء فى حياته !

غادر القطار محطة الواسطى فى طريقه إلى الجيزة وقد سطعت الشمس بكل عنفوانها حين اقتربت ساعة المحطة من الحادية عشرة . تضاءلت المزارع والحقول لتكاثر البيوت والمنشآت والمصانع تحت غلالة شفافة من التراب الناعم المعلق فى الجو الذى اكتسى بصفرة رمادية ، فتذكر جاسر صفاء جو النوبة ليلا ونهارا حيث تعشى الشمس الأبصار ، وتتألق النجوم كأنها ماسات يوشك المرء أن يمسكها بأصابعه . أما هنا فالزحام والضجيج والتراب لم يترك صوتاً ، أو صورة دون أن يترك بصمته عليها . بل إن القطار بدا وكأنه قد ضاعف من سرعته هربا منها .

أخيرا بدت البوادر الأولى لمصر فى الأفق . عمارات الجيزة ومبانيها وبيوتها وأشجارها على جانبى الطرق الفسيحة تستقبل القطار الذى يشق طريقه وسطها

دون أن يعرف إذا كانت ترحب به أو تتجاهله . توقف عند رصيف المحطة التى تشبه فى مبناها أحد معابد النوبة التى يجرى نقلها الآن . كادت العرَبات كلها أن تفرغ ما فى جوفها من بشر وحقائب وقفف ولفائف . تمدد جاسر بجسده المتصلب على المقعد بأكمله والقطار يسير الهوينى بين مختلف القرى أو الضواحى التى تمتد بين الجيزة والقاهرة .

بدأ الوقت يلهث برغم تأنى القطار . فلم يتبق سوى دقائق ويصل إلى القاهرة . وها هى العمارات الشاهقة تغطى خط الأفق لتناطح السماء كعمالقة مثل تلك التى خرجت من أساطير النوبة . لكنها فى معظمها بيضاء بل وشهباء ، والشوارع والطرقات التى بدت نظيفة وأنيقة مثل تلك التى رآها فى الأفلام الأجنبية . لكن سرعان ما انداحت الشمس خلف مظلة عملاقة من الحديد والزجاج أخذت فى احتواء القطار المنهك من لهاثه الطويل بلا رحمة ليتوقف أمام رصيف الصعيد فى محطة مصر حيث ضجيج القادمين يمتزج بضجيج الراحلين وأصوات الميكروفونات التى تعلن عن أشياء لم يتبينها جاسر الذى انطلق بحقيبته فى رشاقة إلى الرصيف ليخرج من الباب ويملأ عينيه من تمثال رمسيس الذى كر بخياله إلى أبى سمبل . هؤلاء العظام يفرضون جلالهم على كل بقعة من بقاع مصر ! إنه لا يشعر بأية غربة بسببهم ! فهم أهله حيثما حل !

سأل عن شارع الجلاء ويده اليسرى تضغط بشدة على المحفظة فى جيب جلبابه الداخلى إذ أن أمه حذرته من النشالين الذين يسرقون الكحل من العين ! سار فى شارع الجلاء وضجيج عربات الترام والأتوبيس والسيارات الخاصة والأجرة والموتسيكلات وصيحات الباعة الجائلين تكاد تصم أذنيه ! أين كلابشة التى يكاد فيها المرء يسمع دقات قلبه ؟!

سأل مرة أخرى عن شارع بولاق أو فؤاد أو ٢٦ يوليو حيث مقهى أنس الوجود ، إذ أن أباه أخبره أن الناس يطلقون هذه الأسماء الثلاثة على

الشارع ، كل حسب سنه وطبقته ! فالنوبيون والعجائز يطلقون عليه شارع بولاق ، وبقايا البشوات والبكوات يسمونه شارع فؤاد ، أما الأفندية والشباب فهو عندهم شارع ٢٦ يوليو !

انحرف يمينا ليسير مسافة قصيرة وقبل أن يسأل عن مقهى أنس الوجود وجده على يساره بواجهته الصفراء ، وقد تناثرت الموائد داخله وعلى الرصيف وحولها بعض الوجوه السمراء الحبيبة . عبر الشارع بحرص شديد وتردد أشد ليلقى السلام على الجالسين الذين هرعوا للترحيب به كأنهم يعرفونه وفى انتظاره .

دارت الأحاديث مع أكواب الشاى الأسود الساخن ، وأدرك جاسر أن النوبة بأسرها تكاد تكون أسرة واحدة تناثرت فروعها وأوراقها بين جنوب أسوان وشمال السودان . فبعض الجالسين يعرفون أباه وعمه وحكاية فاطمة الغامضة التى تناثرت شتى الأقاويل عنها ، فإذا بهم يعلمون أنها تزوجت وأن عريسها يجلس بينهم . ولولا أن الصدق من شيم النوبى لما صدق جاسراً أحد !!

حاول جاسر جاهداً أن يجيب عن أسئلتهم المنهمرة عليه كالمطر بإيجاز شديد حتى يفتح ثغرة فى هذا السد العالى من الثرثرة وحب الاستطلاع لينفذ منها إلى الهدف الذى جاء إلى مصر من أجله . لكن سرعان ما حانت الفرصة إذ أن طوفان الاستفسارات والأسئلة فتح له الثغرة التى بحث عنها ، فأجابهم فى قلق بأنه يتمنى أن يعمل فى فن الإنشاد والرقص النوبى إذا أمكن ! لكن مصمصة الشفاه وجرى الألسنة بكلمات مثل البواب والسفرجى ذكرته بكلمات عمه المحذرة ؟ وما أثار ضيقه وإحباطه أكثر أنهم تكلموا عن هذه المهن بتبجيل شديد ، بل إن أحدهم أضاف بأن بواب عمارة الإيموبيليا لا يقل دخله عن وزير !

كانت أحلام جاسر تدور حول المجد والشهرة حتى لو لم يحققا دخل خفير ، ولذلك ظل يكرر إصراره على العمل بالفن ! دهشوا لطيش الشباب الذى جعله يفكر فى عمل غير مأمون العواقب ويترك وظائف الآباء والأجداد المضمونة ،

فنصحه أحدهم بمزاولة الفن كهواية إلى جانب وظيفة مضمونة ، لكنه أصر على البدء بالعمل الفنى . عندئذ وعده أحدهم بتقديمه إلى الفنان الكنزى على كوبان ليختبر إمكاناته وقدراته التى يمكن أن تسمح له بالانضمام إلى فرقته التى تقدم الفن النوبى الشعبى .

سرى بعض الاسترخاء فى أعصاب جاسر وإن لم يزاوله القلق ! سألهم عن رابطة أبناء النوبة ليبيت فيها لكنه وجد جميع بيوت الحاضرين مفتوحة له بالحب والود والترحيب الحار . انتابته موجة رائعة من التفاؤل الذى أكد له أن أبناء عشيرته لن يتركوه يحارب بمفرده ، إذ يبدو أنهم كتيبة واحدة فى معركة مشتركة : معركة الكفاح والجهاد من أجل مستقبل مأمون ، ولولا تواضعهم وطموحهم الضيق لكان لهم شأن وأى شأن !



(١٥)

كانت أول نصيحة للفنان على كوبان تؤكد على ضرورة البحث عن وظيفة لأن الفن لا يضمن دخلا ثابتا ، والفرقة النوبية للفنون الشعبية تعتمد أساساً على الهواة من أبناء النوبة ، والمكافآت التى يحصلون عليها من الفرقة بين الحين والآخر لا تسمن ولا تغنى من جوع . ولم تحاول الفرقة أن تخرج عن حدود الجمهور النوبى فى القاهرة ، لأن دنيا الفن فى العاصمة محيط مخيف لا يستطيع السباحة فيه سوى الحيتان . وعلى الرغم من أنه يعتبر مؤسس الفرقة ومديرها فإنه لا يرتزق منها ، بل يسعى إلى العمل فى التليفزيون والراديو والفرقة القومية للفنون الشعبية خاصة فيما يتصل بالأغانى والألحان والرقصات والفقرات النوبية .

تلقى جاسر كلمات كوبان كسهام مغموسة فى الإحباط وخيبة الأمل ، لكنه قاوم إذ أن معركته لا تحتمل التراجع . قال وهو يدق الأرض بقدمه اليمنى دقات رتيبة :

ــ المشكلة الحقيقية تتمثل فى أن الأغانى النوبية جماعية بطبيعتها .. مما جعلها محدودة داخل قوالب ثابتة .. ولذلك لم يخرج من النوبة نجم واحد فى الطرب يمكن أن يذكر اسمه مع عبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ ومحمد فوزى وغيرهم !

ابتسم كوبان مشفقا على جاسر من حماسه المشتعل :

ــ وهل تفكر أن تكون واحداً منهم ؟!

ــ وما المانع ؟! حضرتك لك علاقات وثيقة بالتليفزيون والراديو والفرقة القومية الشعبية .. فلماذا لا تستغلها فى تقديمنا إليها ؟! سواء أنا أو غيرى ؟!

ـــ ليس الأمر بالبساطة التى تتصورها !

ـــ إذا لم يكن هناك أى أمل .. فسأرجع إلى النوبة فوراً .. فلم أسافر كل هذه المسافة لأعمل جرسونا أو سفرجيا أو بواباً !! وإن كنت مستعدا للقيام بوظيفة منها كمجرد مورد يمكننى من مواصلة الاشتغال بالفن !

لم يعهد كوبان مثل هذا الحماس المشتعل والإصرار المميت فى شاب نوبى من قبل :

ـــ هناك أمل وإن كان ضعيفا !

ـــ الإنسان هو الذى يصنع الأمل .. وليس العكس !

لم يتمالك كوبان نفسه من الإعجاب بهذا المجنون :

ـــ تستطيع أن تنضم إلى فرقتنا .. ثم ندعو بعض المسئولين والصحفيين لمشاهدتك فى عرض على الطبيعة .. وإن كان الأمل ضعيفاً لأننا كررنا مثل هذه المحاولات من قبل و لم تفلح !!

ـــ هذا لا يعنى أن الفشل هو القاعدة ! وأنا أستطيع أن أنشد وأغنى وأكتب الشعر وأرقص وأمثل أيضا !

ـــ لن يضيرنا أن نجرب مرة أخرى !

لم يحتمل جاسر أن يساوى كوبان بينه وبين الآخرين فقال فى حنق حاول كتمانه :

ـــ قد تعتبرنى مغروراً .. لكن أهالى قرطاسى وطافة وبيت الوالى ودندور وجرف حسين كانوا يأتون إلى كلابشة خصيصا ليستمعوا إلى غنائى ويشاهدوا رقصى !

ـــ لكنك تعلم أن الرقص النوبى رقص جماعى مثل الغناء تماما !

ـــ كنت أنا الذى أدربهم على الرقص والغناء .. وأقودهم فى الحفلات والمناسبات والمواسم .. والكل يعلم هذا !

— عموما .. سنرى ! احضر معنا بروفات الفرقة .. ويمكنك أن تقدم أمامنا كل ما فى جعبتك !

— وأنا جاهز !

خرج جاسر من مقر الفرقة المتواضع فى حى عابدين ليسير فى شوارع القاهرة التى بدت متجهمة وهو لا يزال يحاول التعرف عليها . كادت أحلام المجد والشهرة تتبخر بعد أن تبخرت أحلام المال والثروة ! هل يتحقق كلام عم إدريس ؟! هل يجلس فى نهاية المطاف على دكة أمام باب عمارة ؟! أشرف له أن يعود إلى كلابشة ! لكن بأى وجه يعود ؟! وهو الذى أوهمهم أنه قرر الزحف على القاهرة وغزوها واحتلالها ؟! ستشمت فيه فاطمة وأمها على وجه الخصوص !! سيتأكد الجميع أن خيبة الأمل قد عادت وهى راكبة جملا !!

— لا .. لن تشمتى فىّ يا فاطمة .. لا أنت ولا غيرك !

صرخ صوت داخله مع فوران الدماء إلى تلافيف مخه ! لعن تواضع قومه الذين لم يعرفوا الطموح فى حياتهم وتذكر النكتة القديمة التى تسخر من علاقة الخواجات بالنوبيين . فإذا كان الخواجات سيدخلون النار فلابد أن النوبيين سيتبعونهم ! فمن يقوم على خدمة الخواجات فى نار جهنم ؟!

وكثيرا ما قال لنفسه إنه لو ولد فى أمريكا لكان له شأن مثل لويس أرمسترونج أو نات كنج كول أو سيدنى بواتييه أو غيرهم من الزنوج الذين جاءوا من سلالة العبيد الذين أحضروهم للعمل فى المناجم والمزارع . وبرغم ذلك أصبحوا نجوما عالميين قام بتعليق صورهم فى غرفة نومه . أما هو سليل الملوك الذين كونوا الأسرة الخامسة والعشرين التى حكمت مصر ابتداء بالملك بعنخى ومرورا بطهارقا وانتهاء بالملك تانوت أمون ، فلا يستطيع أن يفعل ما فعله أحفاد العبيد فى أمريكا ! وحاول أن يشرح لأصدقائه وأقاربه هذه الحقيقة لكنهم إما كانوا ينظرون إليه على أنه مخرف ، أو حالم ، أو يرثون لحاله بسبب الكتب التى أفسدت عقله ! وفى

الفترة الأخيرة قبل سفره أوشك الجميع على أن يسدوا آذانهم كى يوفروا على أنفسهم تضييع الوقت فى هذه الأوهام ! وكأن للوقت قيمة أصلا فى النوبة ! ولذلك لم تكن فاطمة هى الدافع الأساسى وراء رحيله لانه أراد بسفره أن يضرب أكثر من عصفور بحجر ! فهل يصبح هو العصفور الوحيد الذى أصابه الحجر ليسقط صريع أحلامه ؟!

لا .. لن يحدث ! فلن تذهب ثقافته وفنه هباء ! ولن تنطفىء الشعلة التى أضاءت لياليه بالأشعار والأناشيد والأغانى ! وإذا كانت السمكة عند النوبيين كائن مقدس فى نهر مقدس ، فهو سمكة فى نهر الفن لو أخرجت منه لماتت اختناقا !

كاد جاسر أن ينفجر بالشحنة الفوارة داخله وهو يتابع بروفات الفرقة إلى جوار الأستاذ كوبان . صاح واقفا :

— إنكم تقدمون رقصة الفِرّى .. وتغنون المواليا النوبى دسى ليمونا .. كما هى .. وهذا لن يبهر عيون أهل القاهرة الذين اعتادوا على الأضواء والألوان المبهرة سواء فى السينما أو المسرح !

رد عليه راقص شاب برنة لا تخلو من سخرية :

— نحن نسلى أنفسنا .. لا أن نعمل راقصين ومهرجين لأهل القاهرة !

تحول جاسر إلى إعصار كاسح :

— لكنكم على استعداد لأن تعملوا بوابين وسفرجية وخدماً تحت أمرهم !

تدخل كوبان حتى لا يفلت الزمام قائلا لجاسر :

— قف وسطنا ونفذ كل ما تتمناه !

أسرع الراقصون والمغنون ليجلسوا فى حلقة على المنصة وفى لحظات كان جاسر فى قلبها وهو يقول :

— إننا مصريون كأهل القاهرة تماما ! وفننا مصرى صميم على عكس فن القاهرة القادم من أصول تركية .. وإذا كنا نشاهد فن القاهرة ونستمتع به .. فأولى

بالقاهريين أن يستمتعوا بفننا !

سكت جاسر ليلتقط أنفاسه المبهورة فسأله كوبان :

ـــ نريد خطوات عملية أم أن الأمر مجرد كلام ؟!

ـــ فرقتكم تبدو وكأنها فرقة سرية لا يعلم عنها أحد شيئا ! لماذا لا نصنع لها دعاية ؟!

ـــ الدعاية مكلفة ولا نقدر عليها !

نضح الضيق على نبرات كوبان :

ـــ نريد أولا أن نرى البضاعة ثم نتكلم فى الإعلان عنها !

ـــ إن بلادنا مليئة بصور الجمال التى يمكن أن نحولها إلى رقصات جميلة مثيرة !

ـــ مثل ؟!

ـــ مثل تُدُوجَا أو الزراعة بطريقة تعاونية مشتركة عندما يترك الفتيان أرضهم ويتجهون بأدوات الزراعة إلى أرض مجاورة .. أو يتحرك الجميع إلى الأرض الأولى وهكذا .. أو شاى الضحى المرتبط بالعمل الزراعى الذى يقسم الأرض إلى أحواض حيث يمر الماء من حوض إلى آخر من أعلى جدار الحوض وهكذا .. أو منظر الأطفال الذين يلعبون تحت النخيل فى حين تجلس جدتهم وأمامها طبق القمح المشوى .. وكلما أحس طفل بالجوع أعطته الجدة بعض الحبوب .. والشاطئ الذى يعنى الأمان عند النوبى .. والجبل الذى يعنى الرعب .. والجرافات التى تسوى الأرض .. والمناجل الصغيرة والكبيرة .. والواسوق الخشبى الذى يقيم الجسور بين الأحواض .. والسواقى التى تديرها الأبقار .. والشواديف التى تحمل على الكتف .. والمخلوقات الشريرة التى تخرج من النهر فى ظلام الليل لتتلف البلح !

ومض بريق عجيب فى نظرات كوبان وهو يطلب من جاسر :

ـــ كيف نحول هذه المخلوقات الشريرة إلى رقصات وأغان ؟!

— فليسمح لى الأستاذ كوبان !

ثم مال جاسر بقوامه الرشيق ليجذب فتاتين من الحلقة الملتفة حوله وقال :

— فلنتخيلهما نخلتين على ضفة النيل .. كل منهما تحمل على الرأس وعلى اليد أطباق من الخوص مليئة بسباطات البلح ومنسوجة بألوان متناسقة متاوجة .. وبنفس الذوق المرهف تنقش ستارة المسرح الخلفية بوحدات من زرع وحيوان وطير ورموز سحرية مثل الكف والعقرب والديك .. وبين الخلفية والنخلتين يجرى النيل فى إضاءة معتمة تمهيداً لخروج المخلوقات الشريرة منه !

وقف جاسر كأنه خارج من النهر وهو ينفض المياه عنه ، وكأنه يسير بخطوات غاية فى الرشاقة على سطح المياه .. ثم دار حول نفسه وذراعاه تتاوجان بأصابع معقوفة ومتصلبة حول وجهه وعينيه اللتين تومضان بالشر ، ثم يخطو ويتراجع ، يخطو ويتراجع ثم يتوقف ليشرح :

— طبعا النخلتان يمكن أن تتحركا من أعلى فقط .. لكن الجذر ثابت .. ولذلك يتحتم على الراقصتين أو الراقصات أن يتمايلن فى رعب يمنة ويسرة .. إلى الأمام وإلى الخلف .. بحيث يسقط البلح تباعا فتتلقفه الأرواح الشريرة ! دون أن يتزحزحن قيد أنملة !

لم يستطع كوبان أن يكبت تشوقه فتساءل فى لهفة :

— كيف ؟! كيف ؟!

انطلق جاسر بين الراقصتين اللتين تمايلتا معه وهو يجذب إحداهما من أطراف أصابعها حتى تكاد أن تقع ثم يتركها وهكذا فى حركة سريعة لاهثة وكأن البلح يتساقط فيطأه بخطوات كخف الناقة أو ينحنى ليلتهم بعضه .

تحول الحماس فى عيون الحاضرين إلى تصفيق حار . لكن كوبان صاح فى نشوة متسائلة :

— وماذا أيضا ؟!

ترك جاسر الفتاتين فعادتا إلى الحلقة وهو يقول :

ـــ فى موسم عاشوراء مثلا يخرج النوبيون نساء ورجالا من بيوتهم ومعهم سباطات النخل بلا بلح وقد أشعلوا أطرافها الرقيقة وأمسكوا بها من ناحية الجذر .. ويديرونها بأيديهم بحيث يطوحون بها بشكل دائرى فيكونون من اللهب دائرة كبيرة محيطها عند أطراف السباطة ومركزها عند الكتف .. حتى يصلوا إلى النهر فيلقون بأجسامهم فيه وتنطفئ الشعلة فتتحول إلى عصى للمشاكسة والضرب .. حتى العجائز يهبطن إلى النهر فى هذا اليوم .. أليست هذه لوحة راقصة بديعة ومبهرة ؟!

لم يملك كوبان سوى أن يقول :

ـــ بدون شك !

ـــ وأيضا ألعاب الأطفال .. يمكن أن نستوحى منها رقصات وأغان فى منتهى الجمال والروعة .. ففى لعبة الهندكى مثلا نجد صفا من الجنود وخلفهم الملك والوزير بحيث إذا نفذت قطعة من وحدات الخصم إلى الملك فإنها تقتله برغم وجود جنود فى مواقعهم .. لكننا نجد العريس مكان ملك الشطرنج وأمامه صف من الجنود .. وليس من الضرورى هزيمة كل الجنود الحارسين بل المهم الوصول بطريقة أو بأخر إلى العريس فى حين يستميت الجنود فى سد أية ثغرة للتسلل إليه .. وكما تعلمون فأطفالنا فى الشتاء يلعبون الهندكى فى موسم نضج البلح ويتراهنون بالتمر الذى يفوز به المنتصر .. وفى هذه اللعبة تتصارع مجموعة ضد مجموعة .. وقد ثنى كل منهم إحدى ساقيه وأمسكها بيده .. والمجموعة تتكون من أربعة أو ستة من المهاجمين وخلفهم يقف واحد اسمه العريس .. وهو القلعة التى إذا اقتحمت وسقطت هُزم الفريق .. ولذلك تقوم فرقة المهاجمين بالدفاع المستميت لإنقاذ العريس ولمهاجمة العريس المقابل فى الوقت نفسه ! أليست هذه لوحة راقصة رائعة ؟!

تحول الحاضرون إلى رؤوس مثبتة ، وعيون جاحظة ، وأفواه فاغرة وهم يتابعون هذه الطاقة المتفجرة بعشق النوبة :

— وهناك أيضا لعبة ناف ناف التى تشبه الاستغماية .. ولعبة جسر ادى التى نجد فيه أحد اللاعبين يلقى بعظمة فك حيوان فى الطريق فى ظلام الليل ويقوم الآخرون بالبحث عن العظمة .. ومن يجدها يحق له اختيار مكان جديد للعظمة .. وأيضاً لعبة الليلى وكى التى يمارسها الأطفال تحت الماء وفيها يرفع أحد الشبان رأسه من الماء ويصرخ الليلى وكى ثم يختفى فى النهر ويغوص الآخرون بحثا عنه .. وأيضا لعبة تام تام التى يجلس فيها الأطفال وقد مدوا أرجلهم على أعظم اتساع ممكن .. ويقوم اللاعب بوضع إصبعه على قصبة رجل كل منهم على التوالى مع كل مقطع من نشيد .. وحين يصل إلى نهاية النشيد يلم الجالس إحدى رجليه التى وصل إليها العدد ويقوم بإلقاء النشيد الراقص :

— هيدين ديلو بدينديلو
هادى يا مادى كسر السومادى

واللاعب ينشد وهو يطرق بيديه بأطراف أصابعه على صدره على التوالى بسرعة شديدة وهو يمر أمام الجالسين .. فإذا قطع النشيد بالتنفس قبل عودته إلى مكانه فإنه لا يفوز بالجائزة !

صمت جاسر ليلتقط أنفاسه فقال كوبان :

— لم أعرف أنك عاشق للنوبة برغم نقمتك عليها ؟!

— نقمتى ليست على النوبة .. ولكنها على الخنوع والاستسلام والاستكانة وانعدام الطموح والتمسح بعتبات الآخرين !!

نهض كوبان ليربت على كتف جاسر فى حب جارف :

— أمامك الفرقة كلها .. افعل بها ما تشاء !!

— سنبدأ البروفات من الآن .. فكل التصميمات جاهزة فى ذهنى .. وسنطبع

إعلانات صغيرة عن برنامج الفرقة .. وسنقسم أنفسنا على مختلف أحياء القاهرة .. لنوزعها على المقاهى والأندية والصحف والمجلات ونواصى الشوارع وفى عربات الأتوبيس والتروللى والترام .. وسيكون الأسبوع الأول من العرض مجانا .. وبعد ذلك تصبح التذاكر من فئة عشرة وعشرين قرشا !

ضحك كوبان ضحكة مجلجلة لم يعتدها من قبل :

ـــ لم أعرف أن فى ذهنك مخططا لغزو القاهرة واحتلالها ؟!

تفجرت ينابيع السعادة فى كهوف جاسر التى كانت معتمة ! فقد استخدم الأستاذ على كوبان الأفكار بل الكلمات التى تدور فى وجدانه فتؤرقه ليلا وتصل به إلى حافة الجنون نهاراً :

ـــ هذا هو ما أنويه تماما .. طالما أننى وسط هذا الجيش الرائع !

ودار بإصبعه ليشير إلى الراقصين والراقصات حوله فإذا بوميض الدموع يتألق فى العيون !



(١٦)

جاء يوم الافتتاح لتغص القاعة المتواضعة الضيقة بالشباب والشيب الذين جاءوا لمشاهدة الفرقة المجانية التى لم يسمعوا عنها من قبل . ومن لم يستطع منهم الدخول وقف محسورا أو آملا أن يأتى مرة أخرى ليفوز بمقعد قبل نهاية الأسبوع !

كانت ليلة العمر برغم التواضع البادى فى كل شيء : المنصة والستار والديكور والملابس ، لكن فورة الفن جعلت الأضواء والألوان تبدو أكثر تألقاً وإبهاراً . لم يصدق الجمهور أن فى بلاد النوبة كل هذه الروعة الخلابة ، النوبة التى على وشك أن تغرق وتختفى إلى الأبد ! وسط الأكف الملتهبة بالتصفيق شعر الفنانون الملتفون حول جاسر أن ما فعلوه فى تلك الليلة لا يقل فى روعته عن الحملة العالمية لإنقاذ آثار النوبة وكنوزها ، بل إن الأستاذ على كوبان قال لهم والستار يغلق عليهم بعد آخر عاصفة من التصفيق :

ــ لقد ولدنا الليلة من جديد !

ليلتها سهرت الفرقة فى قاعة المسرح احتفالا بالمناسبة . فلم يكن فى مقدورها الإنفاق على سهرة فى مكان عام . كانت سهرة نوبية بمعنى الكلمة . فقد أسرعت الزميلات لطهى الأكلة النوبية الأثيرة بطول بلاد النوبة وعرضها ، وهى أكلة الإتر التى تصنع من السلق والشمر والكسبرة الخضراء وورق العنب مع إضافة قليل من الملح وحجر النطرون والبامية الجافة والدقيق . تناولها الفنانون مع بعض الدجاج والسمك وكأنها مأدبة ملكية تحتوى على أشهى الأطعمة فى العالم .

كانت النكات متبادلة ، والتعليقات حارة حول بعض الهفوات التى وقعت فى العرض لكن جاسراً قال :

ــ الكمال لله وحده ! ويكفينا أن ننشده ! ومع ذلك فإنه مع استمرار المران سنتغلب على كل هذه الهفوات ! المهم أن فى استطاعتنا الآن أن نستعين ببعض الفنانين والفنانات من القاهريين .. حتى نلعب على التناقض الجميل بين السمرة والبياض !!

ابتلع كوبانا قضمة من الإتر وهو ينظر إلى جاسر فى دهشة :

ــ لكن الفرقة بهذا ستفقد لونها النوبى ؟!

ربت جاسر على كتف الأستاذ وكاد أن يحتضنه :

ــ الناس يسأمون من اللون الواحد .. وعلينا أن نؤكد لهم أننا نملك الجديد دائما !

ابتسم كوبان فى حنان :

ــ لولا نجاح الليلة لتأكدت أنك ستودى بالفرقة فى داهية !!

انطلقت الصفحات الصافية هنا وهناك حتى انتهت السهرة وذهب كل إلى بيته وفى داخله أحلام الفجر الجديد .

لم ينم جاسر ! لا يعرف لماذا طارده شبح فاطمة وألح عليه حتى أنه تمنى أن تكون فى الصفوف الأولى بين المتفرجين خاصة عندما اشتعلت أكفهم بالتصفيق وانطلقت ألسنتهم بآهات الاستحسان ! هل كان يريد أن يثبت لها أنه قادر على تحقيق أحلامه وأنه ليس واهما كما يظن أهله فى كلابشة ؟! هل إحساسه بالنجاح لا يمكن أن يصل إلى قمته إلا بإحساسها هى به ؟! وما دامت كامنة هكذا فى أعماقه ، فما كل هذا النفور والجفاء والصد والهجر الذى افتعله لإذلالها ؟! وهل كان من الممكن أن يفعل كل هذا معها لو لم يكن يحبها بالفعل ؟!

تراقصت كل هذه الأسئلة الحائرة أمام مخيلته فى ظلام الغرفة الصغيرة وهو مسترخ على ظهره ، ونظراته تحاول اختراق حجب الظلام لعلها تنطلق إلى كلابشة وذكريات كلابشة ! لا شك أن فاطمة كانت تتمنى له النجاح من كل

قلبها ! فهو لم ير منها سوى الطاعة العمياء وخدمة العبد للسيد ، ومن يكره لا يقدر على كل هذا الادعاء !! لابد أن لفتة عابرة أو إيماءة أو نظرة قادرة على فضح ما يخفيه !!

نهض ليضىء المصباح الخافت ويستخرج من الحقيبة الملقاة إلى جوار فراشه خاتما فضيا يحمل صورة كف منقوشة أعلاه ! أدخله فى خنصر اليد اليسرى بحنان دافق ثم أطفأ المصباح ليسترخى مرة أخرى ودون أن يدرى وجد شفتيه تقبلان الخاتم ! لقد منحته فاطمة رمز الكف السحرى ليحفظه من الشر فى غربته ، ومع ذلك ألقى به فى الحقيبة للمزيد من تحقيرها وإذلالها ، وبرغم حسرة عينيها على الإصبع الخالى ، واصل صده ونفوره وجفاءه !

لم تخف على جاسر نظرات الحب المنهمرة عليه من زميلاته فى أثناء البروفات والتى بلغت قمتها فى سهرة الليلة ، ومع ذلك كان يرى فاطمة فى وجه كل واحدة منهن ! لكن صوتا جديدا فى داخله يؤكد له باستمرار أن أيام الطيش والتفاهة ولت بلا رجعة ! وأن النخلة التى زرعها الليلة لابد أن يتعهدها بالرعاية الحميمة حتى يجنى منها كل الثمر المرجو ! ولذلك يتحتم على فاطمة نفسها أن تتراجع حتى لا تشغله عن حبه الجديد ، حب الجمهور الذى لا يعادله حب امرأة فى الوجود ، مهما كانت هذه المرأة !

وتوالت ليالى العرض التى فاقت كل أحلام جاسر ! جاء التليفزيون ليصور فقرة من فقرات العرض الغنائية الراقصة كى يقدمها فى أحد برامجه . وعندما عرضت كانت حديث الناس المبهورين بالراقصين والراقصات وسباطات النخل بلا بلح فى أيديهم من ناحية الجذر وقد أشعلوا أطرافها الرقيقة ليديروها بأيديهم ويطوحون بها بشكل دائرى فيتحول اللهب إلى دائرة كبيرة محيطها عند أطراف السباطة ومركزها عند الكتف فى حركات دائرية فى صعود وهبوط كأمواج النيل . وكان على كوبان يضع يده على قلبه كل ليلة عند عرض هذه الفقرة خوفا

من الحريق لكن حرص الجميع كان بالمرصاد لكل شرر شارد . أما عندما عرضت رقصة الهندكى فى التليفزيون ، فإنها أصبحت اللعبة المفضلة للأطفال والصبية فى الأزقة والشوارع !

بل إن التليفزيون أجرى حواراً مع كوبان وجاسر كان خير دعاية له وللفرقة . و لم يقلل من بهجة هذا الكسب الجديد سوى إدراك جاسر أن الإرسال التليفزيونى لا يصل إلى النوبة . فقد استطاع من خلال إعداده للأسئلة التى ستلقيها المذيعة الجميلة الأنيقة ، وللأجوبة التى سيرد بها عليها ، أن يرسم صورة خلابة للفرقة ونشاطها ، خاصة بعد أن ضم إليها مجموعة جديدة من شباب الفنانين والفنانات من أبناء القاهرة !

كانت قمة سعادة جاسر عندما يتذكر نجاحه فى الاعتماد على الفن وحده فى كسب عيشه ! فقد نجح فى تأجير شقة مفروشة صغيرة لكن جميلة ، قريبة من مبنى التليفزيون وتكاد تطل على النيل الذى لا يستطيع الابتعاد عنه . كما اشترى سيارة صغيرة مستعملة ، تبدو قديمة لكنها متينة ! بل وسعى إلى تأجير مسرح ناد رياضى يقع فى قلب القاهرة على ضفاف الجزيرة بعد أن ضاق المسرح القديم فى عابدين بالجمهور . ونجح فى مسعاه وسطعت واجهة المسرح باسم الفرقة واسمه : الفنان النوبى الشهير جاسر .

كان عاما زاخرا بالكفاح والعرق والسهر والنشوة والشجن والخوف والقلق والتحدى ، نسى فيه جاسر انكبابه القديم على الجنس الآخر بل ونسى فاطمة أيضا ، بل إنه سعى إلى كبت أية بادرة من بوادر خروجها من مكمنها داخله ، و لم يرسل إليها أى خطاب بعد أن بلغت أنباؤه كلابشة وغيرها من بلاد النوبة . لكنه لم يخلع خاتمها من إصبعه والذى ربط بينه وبين نجاحه المطرد . وقد اعتاد أن يأتى الجميع إليه لمشاهدته لا أن يذهب هو إليهم ، وإذا كانت فاطمة تريد أن تراه فليس أمامها سوى المجىء إلى القاهرة سواء مع أبيها أو بمفردها . أما إذا كانت

لا تزال عنيدة وصلبة ومتماسكة فلتهنأ بعنادها وصلابتها وتماسكها ، فعنده الآن من الاهتمامات والمشاغل ما يملأ يومه من الصباح حتى منتصف الليل وما بعده . فقد رحب بتقديم بعض فقرات فرقته فى الأندية الليلية بشارع الهرم ووسط البلد بعد أن وجد أن عائد الفقرة يزيد فى الليلة الواحدة على عائد الفرقة كلها . فبعد انتهاء العرض كل ليلة كان يصطحب من زملائه من يشارك فى الفقرة المطلوبة ، ويترددون على أكثر من ناد ليلى فى الأتوبيس الصغير الذى اشتراه للفرقة . كان جاسر مؤمنا بفتح أى باب يمكن أن يضاعف من دخلهم بعد أن اكتشف أن المال هو اللغة الوحيدة التى يفهمها ويحترمها الجميع فى القاهرة ، وعليه أن يتخلى عن سذاجة النوبة التى تجد فى القناعة كنزا لا يفنى ؟ فالنوبة مليئة بالكنوز التى لم يستثمرها أحد !

لم يكن الأستاذ على كوبان مستريحا للتطورات المحمومة التى تجرى فى الفرقة ، خاصة عملها فى الأندية الليلية ، لكن الدعاية والانتشار والشهرة وجريان المال بين أيدى أعضائها ألزمه الصمت ، خاصة فيما يتصل بعلاقة جاسر بناهد الراقصة الشقراء التى انضمت للفرقة وشاركت فى عروضها ، ثم جرت قدم جاسر إلى الأندية الليلية حيث تصول وتجول أمها كملكة متوجة للرقص الشرقى .

حاولت ناهد بعد زواجها القصير من عازف الطبلة الذى يعمل فى فرقة أمها أن تحترف الرقص الشرقى ، لكن أمها صممت على أن تواصل دراستها حتى المرحلة الجامعية ، ليس حبا من أمها فى العلم ولكن منعا لابنتها من الرقص حتى لا يعرف الجمهور سنها الحقيقية فينصرفون عن الأم إلى الصبية التى كانت تتمتع بجمال متفجر من شعرها الذهبى المنساب على كتفيها ، وعينيها العسليتين الواسعتين ، وبشرتها البيضاء المشربة بالحمرة ، وشفتيها الحمراوين المكتنزتين ، وجسدها المستدير بروابيه وسفوحه !

سخرت ناهد من فكرة إكمال تعليمها وهى ترى الأموال تتدفق بين يدى أمها

التى تقوم برسم حروف اسمها عندما توقع عروض الحفلات والأفلام بآلاف الجنيهات ! حاولت ناهد أن تمارس الرقص فى أندية أخرى لكنها اكتشفت أن سطوة أمها قادرة على سد كل الثغرات التى يمكن أن تنفذ منها فى أى موقع . ومع ذلك لم تتراجع وظلت على إصرارها حتى سمعت عن الفرقة النوبية التى تطلب راقصين وراقصات . وعندما تقدمت للامتحان لم يستغرق الأمر أكثر من عدة دقائق ليرحب بها جاسر زميلة جديدة بالفرقة . وتعلقت منذ تلك اللحظة بجاسر ، بخفة دمه ورشاقته وحيويته وفنه وابتكاراته التى لا تنتهى .

أرادت ناهد أن تثبت لأمها قدرتها على مواصلة الصمود والتحدى بل والانتصار ، واستغلت تزايد شهرة الفرقة وحاجتها إلى المزيد من الدعم المالى فى الوقت نفسه ، فطرقت أبواب الملاهى الليلية مرة أخرى لتجذب أصحابها لمشاهدة عينة مما يقدم فى المسرح النوبى . وبالفعل نالت إعجابهم وتعاقد بعضهم على تقديم فقرة نوبية ضمن فقرات برنامجه ، و لم يكن لهم سوى شرط واحد هو التخفيف بقدر الإمكان من ملابس الراقصات بحيث تميل إلى الشفافية مع الاحتفاظ بالأزياء والألوان النوبية ! وتردد جاسر فى بداية الأمر لكن إغراء العقود السخية أسال لعابه ثم لعاب زميلاته فى الفرقة .

بعد انقشاع الغبار فى حومة الوغى وبزوغ رايات النصر فى الفجر الجديد ، اجتاحت جاسراً رغبته الكامنة فى الجنس الآخر كلما قرأ ما يدور فى نظرات ناهد . لم يكن يفكر فى الزواج بل عادت صورة معبود النساء تطوف بمخيلته كلما رأى ناهد أو كلما اختلى بنفسه ! فى السنوات الماضية كان معبودا لفتيات كلابشة قبل وقوعه فى مصيدة أسرة عمه ، والآن يحلم بأن يصبح معبودا لنساء القاهرة ! فبعد أن غرق بين طيات السمرة الساخنة حتى أذنيه ، يقتله الشوق الآن للسباحة حتى أعماق الأمواج البيضاء المشربة بالحمرة ! وها هى نظرات ناهد ولمحاتها ولمساتها التى تبدو عابرة تدعوه بترحيب باسم ، ناعس ، مسبل العينين

بلا زواج أو ارتباط من أى نوع سوى بلوغ ضفاف النشوة التى تنحسر عندها كل أمواج القلق والحيرة والحنين القاتل إلى فاطمة ! فما فعلته فاطمة معه لم يكن سوى استخدام حقها فى الحفاظ على شرفها وكرامتها وعفتها ! وما ذنبها إذا أصر أبوها على إخفائها وإنكار وجودها منذ ميلادها ؟!

لكنه لم يكن يسمح لنفسه بالرضوخ لهذا الإحساس المتجدد بالذنب ولا أعاق انطلاقه الذى يحاكى الآن سرعة الصواريخ ! ساعدته على ذلك علاقته النامية بناهد والتى بدأت باللقاءات فى العربة الصغيرة فى الأماكن النائية فى أوقات العصر والمغرب قبل ميعاد العرض . كان كل خوف جاسر من أن تفاتحه ناهد فى موضوع الزواج ، لكنها لم تفعل مما شجعه على التقدم إلى الأمام فى علاقته بها دون حرج أو حساسية ! فقد تذكر غرامياته مع فاتى وسادا وزينب فى كلابشة أيام الطيش التى لن تعود بعد أن أصبح شهابا مارقا فى سماء الفن ، ومع ذلك فإن ناهد تذكره بهن إذ يبدو أن الأنثى هى الأنثى مهما اختلف الزمان أو المكان . فهناك الأنثى سهلة المنال التى تفتح أبواب جنتها بأسرع ما يمكن لكن سرعان ما يصاب آدم بالملل ويهرب من أول باب موارب ، وهناك الأنثى صعبة المنال التى تسد مداخل حصنها بالمتاريس فتشعل فى الرجل غريزة المحارب الذى تنهكه محاولاته المستمرة لاقتحام الحصن المنيع ؛ لكنه لا يفقد الأمل والقدرة على الحلم . وعندما يتحقق فإن نشوة الدنيا تتمثل فى ركعة على ركبته اليمنى وتتدفق من قبلة سريعة على يدها !

كان يمكن أن يمارس هذه النشوة مع فاطمة ، لكنها ذهبت هباءً مع هبات كيد النساء وعناد الرجال ورعونة الأطفال ! فلم يمسك بيدها ليطبع عليها قبلة سريعة فحسب ، بل رفض أن ينظر إليها مجرد نظرة ! وها هى ناهد تعود به مرة أخرى إلى جنة الأنثى سهلة المنال فتنثر عليه عبارات الغزل والوجد التى لم يقلها هو لفاطمة نفسها . وذات مرة قالت له وهى تداعب باطن كفه بأظافرها الحمراء اللامعة :

— لو ذهبت إلى أمريكا لضربت سيدنى بواتييه على عينه !

ثم ربتت على ركبته مستمتعة بملمس البنطلون الجينز الضيق الذى يرتديه ، فقال وهو ينظر إلى النيل فى جلستهما فى « ركن حلوان » الذى كان « ركن فاروق » قبل ذلك :

— هل بلغتك تعليقات بعض أعضاء الفرقة الذين لا يرتاحون لعلاقتنا ؟!

فجأة انفتحت عيناها المسبلتان على وميض قطة متنمرة :

— من لا يعجبه فليشرب من البحر !

— أليس لك هدف محدد فى الحياة يا ناهد ؟!

— وهل للحياة نفسها هدف ؟! لقد هجر أبى أمى وأنا لا أزال فى بطنها .. ولم أره حتى الآن !! وتركتنى أمى لرعاية الخدم .. فلم أكن أراها هى الأخرى .. كانت تعود من عملها إلى البيت مع الفجر لتنام النهار بطوله .. فلا تستيقظ إلا قرب العصر .. وعندما أجرى لأرتمى فى أحضانها كانت تبعدنى وتسرع لأخذ حمامها .. ثم تتناول طعامها .. وتشرع فى عمل المكياج وارتداء ملابسها .. وتطبع قبلة سريعة على خدى .. وتخرج لتعود مرة أخرى مع الفجر وهكذا .. وكان من الطبيعى أن أتعثر فى المدرسة .. ومع ذلك بلغت المرحلة الثانوية برغم سنوات الرسوب العديدة .. ثم صرفت النظر نهائيا عن إكمال الدراسة .. كانت عملية تعذيب بلا جدوى وأنا أرى أمى التى لا تعرف القراءة والكتابة واحدة من أثرياء البلد لمجرد أنها تعرف كيف تعرى جسدها وترعشه أمام الجمهور كل ليلة ! وعندما بلغت السادسة عشرة من عمرى أدركت أن جمالى أصبح يمثل تهديداً لها .. فعندما فاتحتها فى رغبتى فى احتراف الرقص مثلها صرخت مؤكدة حتمية إكمال تعليمى حتى الجامعة .. وعندما أصررت على هجر الدراسة أحالت علىّ عازف الطبلة فى فرقتها .. وكان شابا وسيما .. وانتهى الأمر بالزواج .. لكن سرعان ما اكتشفت أن وظيفته كزوج هى مجرد تنفيذ أوامر أمى وتطبيقها بحذافيرها علىّ

.. وعندما بلغ الأمر إصراره على عدم مغادرة البيت خوفاً عليّ من الغواية .. هددت بالانتحار .. وفعلاً قطعت شريان يدى ذات فجر .. وتم إنقاذى وطلاق فى الوقت نفسه !!

صمتت ناهد لتبتلع ريقها فقال جاسر وصورة فاطمة وهى حبيسة سجنها تراود خياله :

— عندما رأيتك أول مرة ظننت أنك أسعد فتاة على وجه الأرض !

واصلت حديثها وكأنها لم تسمع شيئاً :

— سدت فى وجهى كل أبواب الفن .. فأنت لا تعرف مدى سطوتها ونوعية علاقاتها .. مجرد كارت منها له مفعول السحر .. ولولاك لما استطعت أن أمارس هوايتى !

ربت على يدها فى حنان دافق :

— أنت مجنونة فن مثلى !

لم تستوعب قصده :

— كنت أريد أن أضع همى فى أى شىء حتى لا أجن !

— وكيف تتعاملين معها الآن ؟!

— نادرا ما نلتقى !! فالبيت بالنسبة لنا مجرد مكان للنوم !

كانت الشمس تميل إلى الغروب وقد ألقت أستار الشفق الأرجوانية على صفحة النيل . لم يكن جاسر يشبع من هذا المنظر الذى يذكره بكلابشة والأحباب هناك . كان يترك نفسه ويفتح قلبه له ليتلاعب بهما كما يشاء . هذا النهر العظيم يواصل مسيرته الخالدة ليربط الناس على ضفافه بنفس المشاعر المتدفقة كمياهه العذبة !

— فيم شردت ؟!

أخرجته ناهد من بؤرة الألوان والأضواء بسؤالها فنظر إلى ساعة يده فى عجلة :

ــ هيا بنا إلى المسرح !

سارا إلى خارج الكازينو ، والأصابع متشابكة ، ورأسها ملتصق بكتفه . وعندما دخلا السيارة الصغيرة وأدار جاسر محركها ارتمت ناهد برأسها على كتفه ونظراتها مع شفتيها تقول :

ــ سأبيت معك الليلة !

وانطلقت السيارة التى انعكست عليها الأردية الأرجوانية التى أحاطت بوجه فاطمة كإطار من صنع نيل كلابشة وشمسها !



أدرك جاسر أخيرا أن فاطمة تركت فى داخله شيئا غامضاً ، مبهما ، مثيرا ، مقلقا ! إنه شيء أقوى من الزمن بل يكبر معه ويكاد يحتويه تماما . فهو لا يعانى من الحرمان بل إن ناهد أصابته بالتخمة التى بلغت حد الملل فأوشك الحيوان داخله أن يتراجع تاركا فراغا مخيفا فى انتظار مشاعر نورانية تملأه ! مشاعر دعته إلى اجترار أول مرة رأى فيها فاطمة فى ليلة هجره فيها النعاس فى حين كانت ناهد تغط فى نوم عميق إلى جواره .

قبل بزوغ الفجر على شاطئ النيل رأى فجأة بدراً أسمر أضاء الأفق بخيوط فضية نسجت نفسها حول عينيه . كانت قد أسندت ظهرها إلى عامود الساقية الخشبى وتطلعت بوجهها الرقيق الدقيق إلى خط الأفق الذى لا يزال يطبق على خيوط الفجر ، وهى تدندن ببعض نغمات لا تفصح عن كلمات وإنما تشبه فى إيقاعها بعض أغنياته ! فاحت أطراف ردائها بعطر الصندل ، وتوهج وجهها حسنا واشتعالا كشظايا اللهب ، وتألقت الابتسامة على وجهها كما يلمع الهلال فى ظلام الليل ، وتلألأت أسنانها مثل حبات القرطم ، وتراقص على صدرها الندى عقد الشاوشاو الفضى !

ماذا جرى له حتى يفعل ما فعله معها ؟! لم يلق منها سوى كل طاعة عمياء ومع ذلك لم يتعطف عليها بمجرد ابتسامة أو حتى نظرة وهى معه تحت سقف واحد أربعين يوما !! وكأنها ارتكبت جريمة لا تغتفر يوم هربت بشرفها وكرامتها من غدره وطيشه !! ويوم واصل إذلالها بعزمه على هجرها إلى مصر لم تتمن له سوى كل توفيق ونجاح !! ومع ذلك لم يذكر لها سوى صمودها وتماسكها اللذين

ظنهما نوعا من البرود أو عدم المبالاة وكأن لسان حالها يقول له : فلتذهب بلا رجعة ! وبالفعل كلما توغل به القطار فى طريقه إلى القاهرة ، عقد العزم على عدم العودة ليلقنها درس العمر !

عناد أطفال ! كم يحتقر نفسه الآن ؟! كم ينقم على أمه الآن التى أفسدته بالتدليل ؟! وكان من الممكن أن يظل على نفس المنوال المائع السخيف لولا تجربته الناجحة فى القاهرة والتى انصهر فى بوتقتها ليكتشف جوهره الحقيقى ! لكن خاطرا غامضاً وممضا يوحى له دائماً بأن إحساسه بالنجاح لن يكمل إلا إذا شاركته فاطمة فيه ! إن ابتسامة عابرة من وجهها الحبيب يمكن أن تفيض لتغرق ضفافه وتغوص بناهد إلى أعماق لا تطفو بعدها إليه !

تقلب فى فراشه وهو يضغط على الوسادة بأصابع مشدودة دون أن يقترب من ناهد التى فتحت فمها نصف فتحة صدر منها شخير خفيف ! كم يحتقر نفسه عندما يتذكر كيف كان يلتهم ساقيها بعينيه فى أثناء نومها وعندما تضبطه متلبسا كان يغمض عينيه ويدعى النوم أو يدير ظهره لها ؟! وكيف كان يتلصص عليها من ثقب باب الحمام وهى تستحم ؟! وكيف ركل ذكر الأوز ذات مرة حتى جعله يصيح من الألم لمجرد أن ذكر أوز آخر ساهم فى إنقاذ فاطمة من المصيدة التى نصبها لها ؟! لقد بلغ به الأمر أن عمل عقله بعقل ذكر أوز ! وهل هناك تفاهة وسخافة وجنون أشد من ذلك ؟! وحتى بعد أن انتقل من نجاح إلى نجاح فى مصر لم يكلف نفسه أن يرسل إليها خطابا يحكى فيه الإنجازات التى حققها بدعوى سخيفة وهى أنها من الممكن أن تقرأ عنها فى الصحف والمجلات ، وهو يعلم تمام العلم كيف ومتى تصل الصحف إلى النوبة ، هذا إذا وصلت أصلا ؟! وفى الفترة الأخيرة بدأ يتذرع لنفسه أمام نفسه بحجة واهية توهمه بأن دوامة العمل والنجاح لم تترك له وقتا لكتابة خطاب فى حين أنه يلتقى بناهد بطريقة شبه يومية !! ناهد التى لم تبخل عليه بشىء ومع ذلك أصبح يسعد بلحظات ابتعادها عنه ليختلى

بذكرياته مع فاطمة ! وهى ذكريات أصبحت كجمرات النار ومع ذلك لا يسأم المشى عليها بأقدام حافية !

تسللت خيوط الفجر من خصاص النافذة ولا يزال يتقلب فى فراشه بعينين مفتوحتين لم تعرفا النعاس فى تلك الليلة إلا بعد أن وصل إلى قرار أضاء دهاليز نفسه وكهوفها المظلمة ! لقد قرر إرسال برقية إلى فاطمة يطلب منها الحضور ويعتذر فيها عن كل ما بدر منه !

ومع بداية ضجيج العربات والسيارات المبكرة فى الفجر ، وأصوات المارة ونداءات بائعى اللبن والخبز والصحف سواء عند كورنيش النيل أو فى شارع بولاق ، مد النعاس أصابعه ليغلق جفون جاسر ويحلم بفاطمة الجالسة أمامه فى أول صف من صفوف المسرح ، وعيناها لا تفارقان كل حركة أو إيماءة يقوم بها وسط زملائه . لم يكن يرقص ويغنى بل كان يطير ويصدح وعلى وشك التحليق بين السحب التى شاركت الجمهور التصفيق المدوى المنطلق من بين كفيها الصغيرتين ! فى حين تلألأ عقد الشاوشاو على صدرها فأصاب كل أضواء المسرح بالخسوف ، فرقص الجميع على ضوء العقد الذى داعبته أنامل فاطمة الرقيقة .

استيقظ جاسر فلعن اليقظة التى تأتى فى غير ميعادها لكن أطياف فاطمة كانت تحوم حوله فى كل أرجاء البيت الذى خلا من ناهد التى يبدو أنها ذهبت لزيارة أمها التى قضت أسبوعا فى المستشفى على أثر حادث تصادم وقع لسيارتها عند الفجر .

تناول إفطاره وهبط إلى الشارع وهو يدندن بنفس النغمات التى سمعها من فاطمة عندما رآها لأول مرة قبل بزوغ الفجر ! أسرع إلى مكتب التلغراف حيث كتب بعد أن سجل عنوان فاطمة على ورقة البرقية :

— فى انتظار تلغراف بميعاد وصولك بالقطار إلى محطة مصر .. لكم تحياتى وأشواقى الحارة !

ترك المكتب وهو يصدر صفيرا جزلا استمتع به برغم ضجيج السيارات والعربات حوله . كاد يشعر بفاطمة تسير إلى جواره وقد تشابكت أصابعه بأصابعها ، بل إن عرق كفها نضح فى كفه فعدّل عن فكرة وضع يده فى بنطلونه الجينز حتى لا يفقد متعة الإحساس بدفء كفها ورقة أصابعها برغم برودة الجو ! مر أمام « نادى أنس الوجود » فأسرع الخطى حتى لا يلتقطه الجالسون ويتحلقون حوله كالعادة . كان يريد أن ينفرد بنفسه لينفرد بفاطمة !.

اعتاد فى الفترة الأخيرة على أن يرد التحيات والابتسامات والإيماءات للذين يتعرفون عليه فى الشارع من المارة بعد أن ظهر فى التلفزيون والصحف ، لكنه فى ذلك اليوم لم ير أمامه سوى فاطمة . تذكر أن هناك بروفات لابد أن تؤدى فى المسرح نهارا فأسرع إلى سيارته الصغيرة ليستقلها منطلقا إلى هناك ، فلم يتعود التأخر عن الميعاد ، فهو المثل الأعلى للفرقة كلها .

استمر التدريب على الفقرة ونظرات جاسر تكاد تكون مثبتة على الصف الأول من مقاعد المسرح وهو الذى طالما أكد للراقصين والراقصات على ضرورة الأداء وكأن الجمهور غير موجود . فالعيون يجب أن تتركز على حركة الزميل والمجموعة حتى لا يتشتت الانتباه فيهتز الإيقاع ويلحظه الجمهور بالتالى . وكان جاسر فى الشهور الماضية قد انكب على كتب الرقص والإخراج المسرحى ليلتهمها ، مع متابعته لفرق الرقص الشعبى والأفلام الأجنبية الراقصة ، لكنه هذه المرة ضرب بتعليماته هو عرض الحائط وإن كانت الفرقة قد أتقنت التدريب على خير وجه .

لم يعرف جاسر سر هذا الإحساس العارم بقرب فاطمة الحميم منه وكأنه على وشك أن يشعر بأنفاسها على وجهه ! ومع ذلك ترك نفسه نهبا له حتى أخرجته منه ناهد وهى تسير معه إلى خارج المسرح :

ــ يا بخت فاطمة هذه ؟! كنت أتمنى أن تحلم بى بدلا منها !

خرج من شروده :

— هيه ؟! ماذا قلت ؟!

— فاطمة !

— فاطمة هى زوجتى !

— الأزواج يحلمون بزوجاتهم فى الكوابيس فقط ! أما أنت فكنت تناجيها فى الحلم مثل روميو وهو يناجى جولييت !

— أنت تعرفين جيداً أننى لا أكذب .. وأنت لم تسألينى أبداً عن اسم زوجتى !

— الجميع لاحظوا شرودك اليوم فى البروفا ! ماذا جرى ؟!

أشاح بوجهه بعيداً وهو يقترب من سيارته ليفتحها :

— كيف حال أمك ؟!

— ستغادر المستشفى غداً !

— وهل ستعود للرقص ؟!

— لو سألتها هذا السؤال لكان من الممكن أن تلقى بى من شباك المستشفى إلى الشارع !! الرقص حياتها كما تعلم !!

ركبت ناهد إلى جواره وكان يود أن يخلو لنفسه فقال لها :

— لن أذهب إلى البيت !! سأزور صديقا لى وسأتناول الغداء معه وربما مكثت معه حتى ميعاد المسرح !

— وهو كذلك !! إذا لم يكن لديك مانع .. سأنزل عند أقرب مسافة من المستشفى !

— ستنزلين أمام باب المستشفى !!

ثم انطلق بالسيارة وإحساس مرير بالذنب يجتاحه لأنه اضطر إلى الكذب ، لكن لم تكن هناك وسيلة أخرى للتخلص منها ! فلم يكن على استعداد لأن يتبادل

الحديث مع أى إنسان ! كانت حاجته للعزلة والصمت والتأمل ملحة مع سؤال يطارده منذ الليلة الماضية :

ــ هل يعقل أن تكون فاطمة نائمة إلى جواره فى كلابشة ولا يشعر بها على الإطلاق ؟! ثم يبتعد عنها أكثر من ألف كيلو متر فيكاد يشعر بأنفاسها تلفح وجهه ؟!

فى المساء أطفئت أنوار القاعة ودوت دقات المسرح مع الستار الذى بدأ ينفرج عن رقصة الهندكى . كانت كل مجموعة من المجموعتين تتكون من أربعة مهاجمين ، قاد جاسر إحداهما وقد ثنى كل منهم إحدى ساقيه وأمسكها بيد فى حين أمسك عصا باليد الأخرى . وبدأ الرقص الإيقاعى بالأقدام وضربات العصى المتبادلة كالتحطيب فى محاولة كل فريق الوصول إلى قلعة الفريق الآخر التى يمثلها العريس الذى يتحرك يمنة ويسرة ثم يدور حول نفسه فى خوف من أن يتسلل إليه أحد جنود الفريق المضاد فى غفلة من جنود فريقه المشتبك مع الخصوم .

كانت الأضواء الخضراء من الجانب الأيمن والحمراء من الجانب الأيسر للمسرح تنطفئ وتضاء مع محاولات الاقتحام وضربات العصى التى شكلت إيقاعاً مع دقات الدف الذى أمسك به جاسر عازفاً المواليا النوبى « دسى ليمونا » . كانت هذه الفقرة من أحب الفقرات إلى قلب الجمهور الذى اعتاد مصاحبتها بالتصفيق الذى يهز جنبات القلوب وأرجاء المسرح .

استدار جاسر بالدف ليتقدم بفريقه بنفس الخطوات الراقصة وفى لحظة مواجهة سريعة مع الجمهور لمح فاطمة تجلس فى الصف الأول فاهتز الدف فى يده وارتعشت أصابعه عليه ! أغمض عينيه وأعاد فتحهما فإذا بها جالسة وإلى يمينها كهل نوبى وقور لم يره من قبل ! التقت العيون فى عناق حار أوشك على الاشتعال ، وأوشك أداء جاسر على الاهتزاز لكنه سرعان ما تماسك وهو لا يصدق أنها أمامه بوجهها وأنفاسها وجسدها . كان موزع التركيز بينها وبين

زملائه لكنه تسلح بأحدّ درجات الوعى واليقظة وأشدها حتى يقدم لها أفضل ما عنده ! أليست هذه هى اللحظات التى حلم بها طويلا فحققها له الله ؟! هذه الليلة سيرقص ويغنى ويعزف لها هى وحدها ! فما أروع أن يمتزج الواقع بالحلم عند الفنان فلا يعرف حدود هذا من ذاك ! فهو بهذا يستطيع أن ينتقل بالجمهور نفسه من الواقع إلى الحلم !

سرت فى عروقه دماء من نوع جديد يفور بسخونة مكنته من قيادة زملائه ومتابعة فاطمة فى الوقت نفسه . هل يعقل أن يرسل إليها تلغرافاً فى الصباح فيجدها أمامه فى المساء ؟! كم تغيرت يا فاطمة ؟! ما هذا الشعر القصير الذى تحاكين به بنات القاهرة ؟! أين جدائلك وضفائرك التى كانت تنساب على ظهرك سبع أذرع ؟! أين الزردخان الحريرى وعقد الشاوشاو الذى يرقص على صدرك رقصة الكف ؟! أين خضاب يديك بالحناء ؟! وما هذه الشامة المطبوعة على خدك اليمين بالوشم والتى لم يكن لها وجود من قبل ؟! وما هذا الفستان القصير المصنوع من قماش الجينز ؟! ومن هذا الكهل الوقور الجالس إلى يمينك والذى تميلين عليه من حين لآخر بكلمات هامسة ؟! إنه ليس عم إدريس و لم أره من قبل لا فى أسرتنا ولا فى كلابشة بأسرها ؟! لكنه ينظر إلىّ أيضا ولكن ليس بنظرات متفرج التسلية !

لأول مرة تجتاح جاسراً رغبة محرقة فى إنهاء العرض بأسرع ما يمكن قبل أن تؤثر علامات الاستفهام المتراقصة أمام عينيه على أدائه ! هل يمكن أن تكون فتاة شبيهة بفاطمة ؟! فليس من المعقول أن تأتى إلى هنا بمنتهى البساطة وتتابع العرض كفتاة قاهرية وهو واثق أن برقيته لم تصل إليها بعد !! إذاً من تكون هذه الفتاة التى تبادله النظرات بل والابتسامة عندما ابتسم لها على سبيل التأكد من أنها ليست وهماً من صنع خياله الذى بلغ أوج اشتعاله منذ الليلة الماضية حتى كاد يشعر بأنفاسها وهى تلفح وجهه ؟! هل يمكن أن تكون مجرد ابتسامة من متفرجة

معجبة ؟!

وتوالت فقرات العرض . وفى فترة إعداد المسرح للفقرة التالية كان جاسر ينتهز الفرصة لينظر بعين واحدة من خلال انفراجة فى الستار يصعب ملاحظتها ! تأكد أنها فاطمة وإن لم يكن قد رأى هذه الابتسامة من قبل ! لكن متى وكيف ولماذا وماذا وهل وأين .. كلها سهام محماة تخترق عقله وقلبه بحثا عن إجابات مستحيلة !! وتمنى أن يخلو المسرح من المتفرجين بل والدنيا كلها من البشر حتى يمسك بتلابيبها ويرتوى بكل أنهار المعرفة التى تهفو إليها نفسه !

وبمجرد انتهاء الفقرة الأخيرة كان جاسر فى غرفة الملابس يخلع فى لمح البصر الجلباب الأبيض الفضفاض والمركوب الأحمر ليرتدى البنطلون الجينز والبلوفر الصوف والحذاء الأسود لينطلق وسط ذهول زملائه دون كلمة إلى قاعة المسرح حيث كان الجمهور لا يزال يتهادى بين الممرات المؤدية إلى باب الخروج . وكان أصحاب المقاعد الأمامية هم آخر من يغادره مما حافظ على صواب جاسر من أن يطيش !

لمحها تسير وهى تنظر حولها وخلفها وقد أمسك الكهل بيدها . بخطوات طائرة كان إلى جوارها يصيح بصوت مبحوح :

ــ فاطمة !! فاطمة !!

التفتت إليه بإيماءة باسمة لكنها عادت إلى سيرها الوئيد إلى جوار الكهل الممسك بيدها فى حرص شديد فلم يسعه سوى أن يمسك هو الآخر بيدها الأخرى :

ــ فاطمة ؟! فاطمة ؟! ماذا جرى لك ؟!

نظرت إليه فى دهشة :

ــ من فاطمة سعيدة الحظ هذه التى يبحث عنها الفنان العظيم جاسر ؟!

كانت كلماتها صواعق الليل الحالك السواد . التفت إليه الكهل ومد يده مصافحا :

— أهلا بالفنان العظيم !! هذه رابع مرة أشاهدك فيها وأول مرة أتشرف بالحديث معك !

تلعثم جاسر وهو يشد على يده بحرارة آلية :

— أهلا وسهلا !! شرفتم القاهرة !!

قال الكهل :

— نحن هنا منذ عشرين عاماً !!

ثم أشار إلى الفتاة :

— وقد ولدت زمزم هنا فى القاهرة .. وللأسف لم تر النوبة حتى الآن !!

تساءل جاسر فى شرود :

— حضرتك والدها ؟!

ابتسم الكهل فى وداعة مداعبا إياه :

— وهى أيضا ابنتى !!

— لكنها تشبه زوجتى فاطمة تماما !! لولا شعرها القصير ووشم الشامة المطبوعة على خدها الأيمن !

ابتسمت زمزم :

— يخلق من الشبه أربعين !

— هل يعقل بهذا التطابق ؟!

أضاف أبوها :

— قادر على كل شيء !

سار الأب مخترقا القاعة التى خلت من الجمهور نحو باب الخروج فى حين تلكأت زمزم بعض الشيء وهى تكاد تهمس :

— أتمنى أن أرى العرض مرة أخرى !!

أجاب جاسر دون تفكير :

— غدا ستجدين تذكرتين محجوزتين فى الشباك !

— تذكرة واحدة تكفى !

قالتها وابتسامة عذبة تغطى ملامحها الدقيقة فى حين نظر جاسر فى حرج إلى أبيها الذى وقف فى انتظارها عند الباب . قال لها فى عجلة :

— غداً سأنتظرك على أحر من جمر .. مع السلامة !

مدت زمزم يدها الرقيقة بالسلام وأسرعت لتلحق بأبيها ! استدار جاسر ليعود أدراجه فوجد ناهد وقد أسندت ظهرها إلى جدار المنصة ترقبه بنظرات لم ير مثلها من قبل . أسرعت خلفه على الدرجات الخشبية :

— لم أعد أفهم شيئا ! اليوم كله أسرار من بدايته !

لم يرد وضاعف من سرعته حتى غرفة الملابس التى دخلها فوقفت عند بابها لتكرر نفس الكلمات . مضت لحظات ليخرج بعدها وقد ارتدى جاكت من الجلد قائلا فى لهفة :

— أرجوك يا ناهد .. لدى بعض المشاغل هذه الأيام!!

— كنت تشركنى فى كل مشاغلك !

— لا أريد أ أثقل عليك !

— قل إنك وجدت من يشغلك عنى !!

— أرجوك !! ليس عندى خلق الآن لمثل هذه المناقشات .. عن إذنك !

انطلق بسيارته وسط محيط صاخب بالتساؤلات الفائرة التى تضرب جنبات عقله وقلبه بلا هوادة . ما هذه المخلوقات الغريبة الغامضة المثيرة التى قابلها اليوم ؟! وما هذا التشابه المطبق بينها وبين فاطمة ؟! هل كانت كل أحاسيسه كاذبة طوال اليوم ؟! لكن لماذا تأتى هذه الفتاة بالذات وفى نفس المقعد الذى تخيل فيه فاطمة فى أثناء البروفا ؟! هل تأتى فاطمة بناء على التلغراف أم أنها ستظل على عنادها ؟! وإذا أتت ماذا يمكن أن تفعل عندما ترى توأمها ؟! ولماذا تلكأت زمزم حتى

تتفق معه على لقاء الغد ؟! وماذا تنوى أن تقول أو تفعل فى هذا اللقاء الذى تحاشت فيه وجود أبيها ؟! هل هى مجرد معجبة عادية أم أنها كتلة من الإبهام والغموض كما يحدثه قلبه ؟! هل يمكن أن تكون قد قصدت ما قالته بالفعل وأنه يحمل الأمور أكثر مما تحتمل ؟! لكن ما سر تعلقه المفاجئ بها ؟! هل كان بسبب الشبه العجيب بينها وبين فاطمة ؟! لولا لهجتها المطعمة بلهجة بنات القاهرة لأقسم بأنها فاطمة ! هل يمكن أن تخلف الميعاد غداً ويصبح الأمر كله وهما فى وهم ؟! وهل من العسير العثور عليها لو لم تحضر ؟!

أوشك رأسه على أن ينفجر تحت وطأة الشهب المنصهرة التى تخترقه بسهام الأسئلة المدببة ، كما أوشك أن يحتك بسيارة كانت منطلقة إلى جواره لولا يقظته فى اللحظة الأخيرة ! لم يشعر بالحيرة فى حياته مثلما يشعر بها الآن ، فتشبث وسط المحيط المتلاطم بقشة أوحت له بأن غداً لناظره قريب !



(١٨)

حجز جاسر لزمزم نفس المقعد الذى احتلته لتتابع منه العرض للمرة الثانية . كانت بمفردها هذه المرة ترصد كل حركاته وسكناته فأبدع كما لم يبدع من قبل . كانت كل عناصر الإثارة من قبل تتمثل فى لحظات الإبداع هذه ، لكنها هذه المرة انتقلت إلى لحظات ما بعد الإبداع ، لحظات اللقاء المرتقب مع هذه الجنية الساحرة التى خرجت من باطن المجهول فى ليل حالك السواد كما يحدث فى أساطير النوبة . بل إنه لا يعرف لماذا طاردته فى منامه أسطورة محمدين وزمزم التى أصابته بإحباط شديد لم يتخلص منه إلا بالاستيقاظ من الكابوس ؟!

كان محمدين يسير على شط البحر عند ماكينة الطحين فى « الرملة » فوجد فتاة من أهل الصعيد عارية تماما ، ولما كان قد تعود ألا يملأ عينيه من امرأة فقد تركها ومضى ! لكن سؤالا ملتهبا طارده بسخونته : ما الذى جعل المرأة تخرج إلى النهر فى هذا الوقت المتأخر وفى هذا المكان المهجور ؟! ومع إلحاح السؤال الذى أمسك بخناقه وجد الحجارة تلاحقه وتطبق عليه من كل صوب وحدب فمضى يعدو كالمجنون لينجو بنفسه من قذائف الحجارة ، ويذهب إلى ابن عمه والعرق يتصبب منه ليقص عليه ما رأى فيقول له ابن عمه :

ــ لقد رأيت الليلة زمزم .. كانت فتاة سيئة السيرة فقتلها أهلها وقتلوا إخوتها معها ، وقطعوها إربا إربا ووضعوها فى جوال وألقوا بجثتها إلى هذا المكان .. ومنذ تلك الليلة تحولت إلى شيطان يتربص بكل السائرين ليلا !

طمأن جاسر نفسه بأن مجرد تشابه الاسم هو الذى أعاد هذه الأسطورة إلى ذهنه ! عموما فإن وفاء زمزم بوعدها ومجيئها فى ميعادها ينبئ بأشياء كثيرة وإن

كانت غامضة . لم يتبق سوى دقائق معدودات ويدخل جاسر عالما سحريا كان يمكن أن يلقى بفاطمة إلى زوايا النسيان لولا أنها صورة طبق الأصل من زمزم !

انتهى العرض لتستوى زمزم فى السيارة الصغيرة إلى جوار جاسر الذى ذهل للسلاسة التى تتعامل بها معه ! رآها بالأمس لأول مرة ، ثم تأتى اليوم لتسهر بمفردها فى المسرح والآن تجلس إلى جواره فى السيارة دون أن تسأله مجرد سؤال : إلى أين ؟! فسألها هو :

— إلى أين ؟!

نظرت إليه وابتسامة الثقة تفترش وجهها :

— أى مكان أستطيع فيه أن أقول لك ما تمنيت قوله منذ زمن بعيد !

انطلق بالسيارة وهو يتساءل دون تفكير :

— منذ زمن بعيد ؟!

— نعم .. هذه ليست أول مرة أراك فيها !!

— هل رأيتك من قبل فى كلابشة ؟!

رمقته بدهاء لم يلتقطه :

— قال أبى لك إننى من مواليد القاهرة !! لكننى رأيتك على المسرح أكثر من خمس مرات ؟!

— كثير من المتفرجين يفعلون هذا !! لكننى لا أظن أنك مجرد واحدة منهم ! كما أعتقد أنه من حقى أن أعرف السبب فى حضورك بمفردك دون أبيك أو زوجك أو أخيك .. وأن أحداً منهم لم يمنعك من المجئ بمفردك .. وعدم شعورك بالحرج فى الركوب معى دون أن تسأليني إلى أين ؟! والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء ؟! لدرجة أننى قلت فى نفسى لو إننى عرضت عليها

اصطحابها إلى شقتى لما مانعت !! وأرجو أن تلتمسى لى العذر فأنا أريد أن أصارحك بكل ما يدور فى عقلى !

صمت فى حرج بالغ لكن الابتسامة الواثقة لم تغادر عينيها السوداوين الواسعتين :

ـــ لا تظن أننى رخيصة إلى هذا الحد !!

أغرقته أمواج الحرج بدفقات من العرق الغزير برغم برودة مارس الذى لم يجلب الربيع بعد :

ـــ لم أقصد هذا على الإطلاق !!

ـــ أرجوك امنحنى الفرصة لأجيبك عن كل أسئلتك ثم علق بما تشاء !!

ابتسم برغم حرجه :

ـــ اختارى مكانا نستطيع أن نقول فيه كل شىء .. فلا يعقل أن نظل هائمين بالعربة على غير هدى !!

ـــ ألست مرتبطا بعد المسرح بفقرة أو فقرتين فى أحد الكاباريهات ؟!

ذهل لعلمها بكل تفاصيل عمله ودقائقه :

ـــ لم أعد أذهب بنفسى بصفة منتظمة .. وأكتفى فى معظم الأحيان بإرسال زملائى حتى ينالوا فرصتهم ومكافأتهم !! المهم لا تحملى همى .. فأنا تحت أمرك ورهن إشارتك ! من الآن وحتى عودتك إلى بيتك متى تشائين !!

ـــ أريد مكانا هادئاً لا يعكر صفوه أحد !!

ـــ لا تسيئى الظن بى .. لكن لا يوجد مكان هادئ سوى شقتى !!

ـــ ليس لدى مانع !! وثقتى بك لا حدود لها !!

ـــ أرجو أن أكون عند حسن ظنك دائما !

تحول الضوء الأحمر فى إشارة المرور إلى ضوء أصفر ثم أخضر لتنطلق

السيارة على طريق الكورنيش مارة بجامعة الدول العربية وفندق الهيلتون ومبنى التليفزيون والإذاعة لتنحرف يمينا وتقف عند بيت صغير قديم لكنه نظيف ولا يزال يحمل آثار العز القديم . خرج جاسر ليسرع بفتح الباب لزمزم ثم يصعدان سويا على درجات السلم الحجرية حتى الدور الثالث . أدار جاسر المفتاح فى ثقب الباب وأضاء النور لتدخل زمزم ويغلق الباب خلفها.

أخذها إلى غرفة المكتب التى تطل شرفتها على شريط طولى من النيل الذى تألقت أضواؤه خلف زجاج الباب المغلق . جلست زمزم إلى المكتب فى حين سألها جاسر باسما :

— شاى أم كاركديه أم حلبة ؟!

— لا شىء قبل أن أجيب عن كل أسئلتك ! اجلس من فضلك !

انصاع للهجتها الآمرة ونبرة صوتها التى تحاكى نبرة فاطمة تماما لولا اللكنة القاهرية التى تغلفها بثقة لا حدود لها :

— أولا .. كان لابد أن أحضر بمفردى لأنه لا يعقل أن يحضر أبى حديثا من هذا النوع بينى وبينك !

— لكن بماذا بررت له احتمال تأخيرك حتى بعد ميعاد انتهاء العرض ؟!

— إننى أقوم الآن بتوديع الصديقات .. وقد أبيت مع إحداهن إذا سرقنى الوقت !!

— توديع الصديقات ؟! لماذا ؟! هل قررت السفر ؟! وإلى أين ؟!

— كون أبى مبلغاً كبيرا من المال بعد عشرين عاما من الكفاح هنا !! لكنه كان دائم الحنين للنوبة .. وعندما تأكد من تحويل نهر النيل وتهجير النوبة إلى وادى إسنا وكوم امبو قرر العودة إلى أرض الأجداد حتى يلقى عليها بنظرة أخيرة .. وأيضا لكى أراها أنا .. فليس من المعقول أن أكون نوبية دون أن أرى

النوبة !

سرى الإحباط فى حنايا جاسر الذى اتكأ بمرفقيه على سطح المكتب متسائلا :

ــ هل يعقل أن أعرفك وأرتبط بك هنا ثم ترحلين بهذه البساطة ؟!

ــ وهل ستقضى حياتك كلها هنا ؟!

ــ وكيف أستطيع الرحيل وهجر كل ما بنيته هنا ؟!

واصلت حديثها متجاهلة الإحباط الذى اعتراه :

ــ أما عن زوجى فأنا لم أتزوج بعد .. وليس لى أخ .. فأنا وحيدة والدى .. أما عن عدم حرجى فى الركوب معك .. فأية فتاة تفخر بوجودها مع الفنان العظيم جاسر !

كان على وشك أن يمسك بيدها ويقبلها لكنه تمالك نفسه فى اللحظة الأخيرة ، برغم شحنة النرجسية المتفجرة فى كهوف جباله وتلاله ! بدأت الحواجز بينهما تتلاشى فسألها :

ــ وما الذى منعك من الزواج حتى الآن وأنت بهذا السحر والجمال ؟!

ــ هذه شهادة لا أستحقها من فنان كبير مثلك !!

ــ اصرفى النظر عن حكاية الفنان الكبير هذه .. فأنا أمامك جاسر فقط !!

ــ لم أتزوج لأننى لم أجد الزوج المناسب لى !! لم يتقدم لطلب يدى سوى البواب أو السفرجى أو الطاهى أو الجرسون !!

يا ربى ! إنها توأم روحى فى الطموح !! لكن هل تحاول رمى شباكها لاصطيادى ؟! سألها :

ــ وهل تتوقعين أن تجدى الزوج المناسب فى النوبة ؟! إنهم هناك

أشد بؤسا واتضاعا من الشباب النوبى هنا !!

— كل شىء قسمة ونصيب !!

— الشىء المضحك والمؤسف معا أن النوبيين يسعون للعمل فى خدمة المصريين .. فى الوظائف إياها .. لكنهم يرفضون بكل إباء وشمم زواج بناتهم منهم .. فى حين أننا مصريون أولا وأخيراً !

— أنت أدرى بعادات النوبة وتقاليدها !!

— على فكرة .. من أى بلد أنتم ؟!

— لا أعلم على وجه التحديد .. لكننى علمت من حديث أبى مع أمى أكثر من مرة أن لأسرتنا أكثر من فرع فى أكثر من بلد !

— هل تذكرين أسماء البلاد ؟!

— أذكر قرطاسى وطافة وبيت الوالى وكلابشة !

صاح فيما يشبه النشوة :

— أنا أعرف كلابشة فردا فردا !

— لا أعرف أقاربنا هناك .. لكن يمكنك أن تسأل أبى !!

— كيف ؟!

— مقابلته ليس أمراً عسيراً !

هل تواصل نصب الشباك للإيقاع به ؟! سألها :

— وفى أى بلد ستستقرون ؟!

— لا أعرف .. ربما فى كلابشة !! عموما لن نستقر هناك طويلا .. فالتهجير إلى كوم أمبو وإسنا قائم على قدم وساق .. وربما لا نستريح للحياة فى النوبة الجديدة .. فنعود إلى هنا مرة أخرى !

— لو ذهبت إلى كلابشة فسيحتار الناس بينك وبين زوجتى فاطمة !

ــ ياه !! لهذه الدرجة!! وبالمناسبة .. لم أعرف شيئا عن زوجتك وحياتك .. فى حين قلت لك كل شيء تقريبا عن حياتى !!

نظر إلى ساعة يده :

ــ عندما تريدين العودة إلى البيت فأنا رهن إشارتك !

ــ ليس قبل أن أعرف كل شيء عنك !

ــ لم أعرف أننى مهم فى حياتك إلى هذه الدرجة ..كل ما أريده ألا أسبب لك أية مشاكل أو متاعب !

ــ لا تحمل همى !!

ــ وأنا تحت أمرك فى أى سؤال !

ــ هل تحب زوجتك ؟!

فاجأته بالسؤال المارق كالسهم ليحدث فى مسامعه دقة دف عنيفة لم يتوقعها ! تردد للحظات وهى ترمقه بنظرات حادة كالصقر ثم قال :

ــ طبعا !! فالفنان بالذات لا يمكن أن يتزوج بدون حب !

ــ لابد أنه كان غراماً ملتهباً !

صمت للحظات ثم خرجت كلماته مع أفكار متأنية :

ــ لم يكن ملتهباً بمعنى الكلمة .. فالسعى وراء الرزق كان شغلنا الشاغل!!

ــ ولماذا لم ترسل لإحضارها لتعيش معك هنا بعد أن استقرت بك الأمور ؟!

ــ أرسلت إليها تلغرافا بهذا الخصوص !!

تساءلت بتلقائية سرعان ما انحسرت على وجهها :

ــ متى ؟!

ــ صباح أمس .. على أن ترسل إلىّ تلغرافاً بميعاد وصولها !

أشارت إلى الخاتم الذى يحمل شكل الكف حول إصبعه :

ــ هذا الخاتم جميل للغاية !!

خلعه ليقدمه إليها لفحصه :

ــ إنه هديتها لى ليحفظنى من كل سوء وشر !!

قلبت الخاتم على كفها وهى تتأمله :

ــ هل تفتقدها ؟

ــ لا أحب أن أكذب عليك .. نعم .. أفتقدها بشدة .. وإن كنت منذ أن رأيتك وأنا فى حالة لا أعرف فيها رأسى من رجلى !!

أعادت إليه الخاتم فأسرع بلبسه فى إصبعه :

ــ لا أحب أن أشوش أحاسيسك تجاهها !!

ــ أراك مهتمة بها جداً !!

ــ أريد أن أعرف كل شىء عن الساحرة التى أوقعت الساحر فى حبها حتى تزوجها !

ــ كان زواجا مثل أى عرس نوبى آخر !

ــ وطبعا أنت تفتقد أبناءك بنفس الدرجة ؟!

ــ لم ننجب بعد ! فقد تركتها بعد أربعين يوما من الزواج ! .

ــ ألم تكف الأربعين يوما للإنجاب ؟!

تردد للحظات ثم قال :

ــ كل شىء قسمة ونصيب .. على حد قولك !

ــ هل تحبها مثلما أحبتك ؟!

نظر إلى ساعته ونهض خلف مكتبه :

ــ سأصنع لنا كوبين من الشاى !

ثم انطلق إلى خارج الغرفة فإذ هى فى أعقابه . وقفت خلفه تراقبه فى صمت صاخب . لم يلتفت إليها بل انهمك فى وضع الماء فى الإبريق ثم وضعه على موقد البوتاجاز الذى أشعله وكأنه يقوم بمهمة غاية فى الصعوبة والتعقيد ! لأول مرّة

فى حياته يشعر بالخوف من امرأة ومع ذلك التمس لنفسه العذر . فهى ليست امرأة وإنما تجسيد حى لمجموعة معقدة متشابكة من عوامل الغموض والجرأة والجسارة والتحدى لم يألفها حتى فى بنات القاهرة ! بالإضافة إلى هذا التشابه المخيف بينها وبين فاطمة ، وكأنهما حبة فول شقت إلى نصفين ! ثم تأتى إلى شقته فى هذه الساعة المتأخرة من الليل وتلمح إلى أنها يمكن أن تبيت معه ؟! حتى ناهد ابنة الراقصة وتربية الكباريهات احتاجت إلى مناورات ومحاورات ومداورات حتى بلغت ما بلغته هذه النوبية المجنونة فى ثانى لقاء بينهما !! إنه يعلم جيدا أن حياة الفتاة النوبية فى القاهرة لا تختلف كثيرا عن حياتها فى النوبة . نفس التقاليد والعادات والقيود المتمثلة فى سلطة الأب أو الزوج ، فلماذا يترك عم صالح ابنته بهذا الشكل لتبيت عند صديقاتها ؟! أهى الثقة المفرطة التى لابد لهذه الملعونة أن تخونها ؟! أم أنها ترمى شباكها عليه حتى يتزوجها فى النهاية ؟! وأى شاب يمكن أن يتزوج من فتاة قدمت نفسها إليه بهذا الأسلوب الغريب المريب ؟! لأول مرة فى حياته لا يعرف ما الذى سيقع فى اللحظة التالية !!

شعر بقمة صدرها اليسرى تحتك بظهره ففار الماء حتى أطفأ الشعلة . ضحكت وهى تسرع بإشعال الكبريت لتتوهج النار :

ـــ وقوفك هنا لا لزوم له !

ثم أزاحته بكتفها لتصنع الشاى فى الإبريق وتطفىء الشعلة قبل اللحظة الأخيرة من فوران الشاى . ابتسم قائلا :

ـــ لم تعرف فاطمة فى حياتها سوى الأوجرى ؟!

أخذت زمزم كوبين من على الرف لتصب فيهما الشاى :

ـــ لم أسمع عن هذه الأشياء من قبل !!

ـــ أوجرى هو ثلاثة قوالب مخروطية مثل رأس القمع تشعل الفتاة النار داخلها .. ثم تضع على الحوامل المخروطية قطعة رقيقة من الحديد مستديرة الشكل .. وقد

تصنع من الطين !

— أخشى عندما أعود إلى النوبة أن أتصرف كسائحة .. وأنا أتمنى أن أكون بنت بلد !

وقبل أن يفتح جاسر فمه بالتعقيب كانت قد وضعت الكوبين على صينية صغيرة من البلاستيك وسارت بها إلى غرفة المكتب حيث وضعتها عليه وجلست أمامه فى حين ذهب جاسر إلى مقعده خلفه . وضعت زمزم كفيها لتلقى بخار الكوبين فى استمتاع مستكين بالدفء . حاول الإمساك بزمام المبادرة منها فسألها :

— أتشعرين بالبرد ؟! هذا هو ثانى فبراير أقضيه فى مصر .. إنه شهر البرد عموما !!

— يقولون إن النوبة هى بلد الدفء طول السنة !

— النوبة دافئة شتاء .. شديدة الحررة صيفا .. ونادرة الأمطار بالطبع .. وجوها عموما خال من الغبار والجراثيم الضارة .. جو يقضى على أمراض الروماتيزم وأوجاع المفاصل والأمراض الصدرية ..

مدت ذراعها إلى ظهرها لتتحسس أعلاه :

— أحيانا أشعر بألم شديد هنا !!

— برد القاهرة يسرى فى العظام .. لكنك لا زلت صغيرة جدا !! أجلى هذه الأعراض للشيخوخة !

ابتسم فضحكت فى عذوبة وهى تمسك بكوب الشاى :

— قبل أن يبرد !

تناول كوبه بدوره وتوالت الرشفات بصوت رتيب كادت الجدران أن تردد صداه . فقد سرى السكون فى الأشياء وأوشكت أبواق السيارات على التلاشى فى الشوارع المحيطة . تبادلا الرشفات مع النظرات فنظر جاسر إلى ساعة يده .

قالت بنبرة لا تخلو من سخرية :

ــ هل تنتظر أحداً .. أم عندك ميعاد ؟!

تلعثم قليلا ثم قال :

ــ أبداً .. أبداً !

انتهت من كوب الشاى لتنهض وقد ضمت ذراعيها على صدرها جلبا للدفء :

ــ آن الأوان للذهاب إلى البيت !

نهض بدوره وهو يبحث عن كلمات يقولها :

ــ تحت أمرك !

ــ هل يمكننى أن أستعير جاكت أو بلوفر وأرده إليك فيما بعد ؟! لم أعمل حسابا لهذا التأخير !

تذكر جاكت من القطيفة فى لون السماء الصافية كان قد اشتراه ليهديه لناهد فى عيد ميلادها الذى يحل بعد أسبوع :

ــ لحظة واحدة !

قالها واختفى فى غرفة النوم ليعود بعد لحظات محتضنا الجاكت الذى مد كميه خلف ظهرها لتمد ذراعيها وترتديه فى سعادة دافئة متسائلة :

ــ ربما تغضب صاحبته عندما تعلم أننى لبسته ؟!

ــ ليس هناك صاحب له سواى !

ــ إنه جاكت حريمى !

ــ ويصلح للرجال أيضا !! وعموما فهو هدية لك .. والهدية لا ترد !!

كان لا يزال ممسكا بكمى الجاكت فانكمشت داخل ذراعيه حتى أوشك على احتوائها لكنها استدارت لتطبع قبلة سريعة على خده :

ــ شكراً على هذه الجلسة الجميلة التى لم أكن أحلم بها ! لن تصدق صديقاتى أننى جلست إلى الفنان جاسر أكثر من ساعة وعلى انفراد !! ولن يصدقن أن هذا

الجاكت هدية منك !

— وهل يمكنك أن تبوحى لهم بهذا السر ؟!

— لن أفتح فمى لأن أحداً لن يصدقنى !!

ثم تقدمت إلى باب الشقة ليفتحه ويخرجان إلى السيارة التى انطلقت بهما عبر شارع ٢٦ يوليو إلى ميدان العتبة ثم انحرفت يمينا إلى شارع عبد العزيز طبقا لتوجيهات زمزم حتى بلغت حى عابدين لتخترق شارعا مظلما ضيقا خلف أسوار القصر التى تم تخفيضها بعد أن فتحت بواباتها لأبناء الحى فبدت الأشجار والنخيل وكأنها مسندة إلى الأسوار فى إعياء امتزج بشحوب ضوء القمر :

— هنا .. من فضلك !!

— وصلنا ؟!

— لا يعقل أن أنزل من عربتك أمام الباب !

— ولا يعقل أن أتركك فى شارع مظلم مثل هذا ؟!

— أترى الباب السابع على اليسار ؟! إنه باب بيتنا ..

أبطل محرك السيارة :

— وماذا ستقولين لهم عن الجاكت ؟!

فتحت الباب لكنها لم تنزل :

— اشتريته .. استعرته من صديقة .. لا تحمل همى !!

— سأظل منتظرا حتى تدخلى البيت !!

مالت لتقبله فى خده الأيمن :

— وشكراً أيضا على الهدية الجميلة !

أمسك بكتفيها فى محاولة لطبع قبلة على شفتيها لكنها أفلتت منه لتهبط وتغلق باب السيارة :

— تصبح على خير !

ثم سارت مسرعة وهى تتلفت حولها حتى ابتلعها باب البيت ! أدار جاسر محرك السيارة ليرجع منسحباً من الشارع المظلم الخالى الساكن وملايين التساؤلات هذه المرة تغرقه فى لجج من الحيرة لم يخرج منها و لم يحاول !

لم يجهد نفسه كثيرا فى البحث عن إجابات ، إذ أن الإعصار الذى اجتاحه كان ممتعا ومثيرا فى حد ذاته . فلماذا يمزق أستار الغموض فيفقد نشوة السحر وبهجة الإثارة ؟! ترك نفسه لخواطرها وهواجسها وشطحاتها لتجرفه حيثما شاءت دون تساؤل !! تذكر يوم استدرجت شالوية فاطمة إلى بيته للإيقاع بها حتى ترضخ له ويكسر أنف أبيها ، لكنها أفلتت منه بفضل ذكر الأوز التى ألبسته عقد الشاوشاو الفضى !! مط شفتيه وهو يخترق شوارع القاهرة الخالية :

ـــ لعب عيال !!

لكن سؤالا جثم بكل وطأته على عقله وهو يركن السيارة أمام رصيف بيته :

ـــ ماذا يمكن أن يحدث لو حضرت فاطمة بناء على التلغراف ؟! وهل كان من الممكن أن يصرف النظر عنه لو أنه قابل زمزم قبل إرساله ؟!

صعد بكل وطأة التساؤلات التى بدت أثقل من درجات السلم الحجرية !



ـــ حتى مجرد « كل سنة وأنت طيبة » لم تكلف نفسك أن تنطق بها .. وأنت الذى ادعيت أنك اشتريت لى مفاجأة ؟!

صاحت ناهد بهذه الكلمات المتفجرة فى وجه جاسر منتهزة فرصة خلو غرفة الملابس بعد انتهاء البروفا . أجابها دون أن يحاول النظر إليها :

ـــ قلت لك إننى أمر ببعض الظروف التى أرجو أن تنتهى لتعود المياه إلى مجاريها !!

ـــ لم أتصور أبداً أنك تظننى بهذا التغفيل ! عشنا وشفنا كيف يحاول النوبى استغفال بنت القاهرة !!

كان جاسر على دراية بلحظات الابتذال والسوقية التى تجتاح ناهد من حين لآخر . وكان يحرص على التماس العذر لها لعلمه بأصلها وفصلها ، لكنه هذه المرة التمس لها عذرا أكبر ! فقد كانت عاشقة اكتوت بلواعج الهوى لكنه لم يستطع حيالها شيئاً فى مواجهة الجنية السمراء التى خرجت إليه من غياهب المجهول ، والتى عجز عن فك طلاسمها التى تزداد تعقيدا ووعورة بعد كل لقاء ! قال لناهد مبتسما فى وداعة :

ـــ لا أحب أن تحرق أعصابك بهذا الشكل ؟! فأنت عزيزة علىّ جدا !! وما بيننا أكبر من أى شك أو غيرة !

لم تكبح جماح لسانها السليط الذى يتحول إلى سوط ملتهب إذا انطلق من عقاله :

ـــ لا تظن أننى أحترق بنيران الغيرة !! فأنا ناهد على سن ورمح .. وأنت تعلم

جيدا أن كبار القوم يتمنون تراب رجلى .. لكنك لا تعلم أن أحد الضباط الأحرار قد عرض علىّ الزواج !! ولولا أنه اشترط علىّ اعتزال الفن لكنت قد تزوجته منذ أكثر من عام !! إياك أن تظن أننى لا حياة لى بدونك !! والدليل على ذلك أننى لم أطلب منك أن تتزوجنى ولن أطلب !!

تعجب لهذا المزيج المتناقض من السوقية والعنجهية :

ــ إذاً .. أين المشكلة التى دفعتك إلى الصراخ بهذا الشكل ؟! فأنت جميلة وصغيرة ومحبوبة ومرغوبة من الذين يتمنون تراب رجليك !!

ــ أردت فقط أن أضع النقط على الحروف ! حتى لا تظننى واحدة من ضحاياك النوبيات !

لم تعجبه طريقة نطقها لكلمة « النوبيات » لكنه لم يشأ أن يفتح جبهة جديدة لا لزوم لها :

ــ وكيف حال أمك الآن ؟!

ــ هذا ليس من شأنك !!

ــ عندك حق .. فهذا موضوع لا يخصنى ولا يهمنى !

ــ وإذا أردت أن تطردنى من الفرقة .. فلا تتردد .. لم يعد يهمنى شىء !

امتزج حبه لها بالعطف الجارف عليها :

ــ كفاك طفولة .. أنت تعلمين جدا مكانتك عندى وعند الفرقة .. وأرجوك لا تنطقى بمثل هذه الكلمات مرة أخرى !

نظرت إليه وهى تحدث ارتعاشات بنصفها الأسفل ، وطرقعات بشفتيها كمص الليمون :

ــ حِكم !

ضحك جاسر فى محاولة لتمييع الموقف والتخلص منها :

ــ أنت تعلمين أننى لا أنطق إلا بالحِكم !

ـــ يا سم !!

قالتها بإحباط يمتزج ببعض الدلال ثم استدارت وخرجت . تنفس جاسر الصعداء ليخلو إلى نفسه ويسترجع لحظات الليلة الماضية ومذاق شفتى زمزم اللتين اعتصرهما بالأمس ليمتص رحيقهما . كان كل لقاء بمثابة خطوة جديدة إلى دنيا لا يعرف أبعادها أو أعماقها ولكنه لا يحاول ولا يحب أن يتراجع بعد أن اكتشف أنه أدمنها بجنون يدفعه إلى أى طريق معها ! فهى تحبه لذاته بدليل أنها لم تفاتحه فى موضوع الزواج ، بل إنها قالت له إنها لا تفكر فى أن تحل محل فاطمة إلا إذا شاءت هى بمحض إرادتها ، فهى ليست من النوع الذى يسرق الرجل من امرأته ! فالسرقة ضد الحب وضد أخلاق النوبة أيضا !

أما فاطمة فسيعرف كيف سيؤدبها ؟! إنها لا تزال تصر على تجاهله وهو الذى أصبح ملء السمع والبصر ! لم ترد عليه ولو حتى بتلغراف !! تريده أن يعود إليها ذليلا يطلب الصفح والمغفرة على ما ارتكبه فى حقها ! ولا تعرف إنها لو وضعت فى كفة أمام كفة الأمجاد التى حققها فلن تساوى بصلة . بل يبدو أن الأقدار قد أرسلت إليه زمزم لينتقم منها شر انتقام ، وموضوع الزواج منها يفرض نفسه بإلحاح عليه كضربة قاضية ينهى بها كل ما يثير ضيقه وإحباطه منذ ذلك الفجر الذى رآها فيه عند الساقية . وليفرح بها عم إدريس وزوجته دارية وهى تعيش معهما كالبيت الوقف : لا هى متزوجة ولا مطلقة ولا أرملة ولا عانس ! إنها تريد بعنادها أن تجبره على أن تكون هى محور حياته ، لكنها واهمة ، فهو محور حياة كل من يقترب منه ، والدليل على ذلك ناهد ثم زمزم ، ناهيك عن المعجبات اللاتى لا يعرفهن من بين جمهوره ! بل إن الأنباء جاءته من كلابشة بأن عم إدريس عاد إلى إخفاء ابنته مرة أخرى فى بيته بعد سفر زوجها إلى مصر ! فليخفها كما يشاء بل وليصنع لها تابوتا فرعونيا يحنطها فيه إلى الأبد طالما أنه لا يزال متأكداً من أنه أنجب التحفة التى لا تمس !

أصبح جاسر الآن يعد الساعات بل الدقائق انتظاراً للقائه بزمزم . ولولا رغبته الحارقة فى الانتقام من فاطمة لصارح زمزم بعزمه على الطلاق ليتزوج منها لكن يبدو أن زمزم من النوع الذى لا يحب أن يزاحمه أحد سواء على عرش الحب أو عرش الزواج ، كما أنها تشترط أن يكون الطلاق هو رغبة فاطمة أيضاً ، إذ أنها من المستحيل أن تبنى سعادتها على محنة امرأة أخرى !

حقا إنها امرأة محيرة ! زمزم هذه ! فهو حتى الآن لا يعرف طريقه معها . وكلما سألها سؤالا قد ينيره ، واجهته بلغز جديد يتخبط به فى متاهات أبعد ! ومع ذلك فهو لا يستطيع الابتعاد عنها ! فهى التى أنقذته من فاطمة وملأت فراغ حياته أو قلبه بينبوع لا ينضب من الأحاسيس التى انعكست على فنه حتى قال أحد الصحفيين فى مجلة فنية :

ــ يبدو أن الفنان جاسر قد تربع أخيرا على قمة المسرح الاستعراضى وليس النوبى فحسب .. وأصبحت مهمته متمثلة فى الحفاظ على هذه القمة الشماء !

أصبح يرقص لها الآن . فهى الجمهور وهى الحب وهى الحماس وهى الشعلة وهى الأمل ، بل إنها أوحت إليه بفكرة أغنية شعبية جديدة شاركت فى اختيار ألفاظها فى لقائهما الأخير . وأصبح موضوع عودتها مع أسرتها إلى النوبة هو الكابوس الوحيد الذى يحاول الاستيقاظ منه كلما طارده من حين لآخر ! ولذلك قرر أن يكون زواجه منها هو السهم الأخير فى جعبته ، السهم الذى لابد أن يطلقه بمنتهى الدقة والمهارة حتى يحتفظ بها لنفسه ! فهو لا يمكن أن يتنبأ بما يمكن أن يجرى لها لو فارقته بهذه البساطة إلى البلاد التى جاء هو منها بلا عودة ! بل إنها ستغرق كلها فى مياه الطوفان وربما أصبح من المستحيل العثور على أى أثر بعد ذلك لزمزم !

كان الكابوس الذى يطارده يوحى إليه بأنها كما ظهرت فجأة فى حياته فمن الممكن أن تختفى بنفس الطريقة أيضا !! وعلى الرغم من العلاقة التى أصبحت

حميمة بينهما ، فإنها يمكن أن تنقطع فجأة ! فهى لا تسير بأقدام راسخة على أرض الواقع وإنما تهيم بين طيات السحب التى يمكن أن تنقشع فى لحظات معدودات كما يحدث فى سماء النوبة فلا يجد سوى زرقة الفضاء فى السماء ووحشة الفراغ على الأرض ! ولماذا لا يتزوجها أمام الله والناس حتى يكتسب حبه لها أرض الواقع التى يمكن أن يسير عليه بأقدام راسخة ؟!

لم يهدأ عقله لحظة واحدة ! كان فى بادئ الأمر فى حاجة إلى أن يخلو بنفسه كى يترك لها عنان التأمل ، لكنه الآن يفكر فيها وهو يتجادل مع الآخرين ! حتى فى احتكاك ناهد به فى ظهر ذلك اليوم كانت زمزم كامنة وراء كل كلمة قالها لناهد ! لم يعد هناك بد فى تلك الليلة من الهبوط من وسط السحاب إلى أرض الواقع !

فى تلك الليلة جلس جاسر على بساط أحمر صغير عند قدمى زمزم التى قبعت فى مقعدها التقليدى أمام المكتب . كانت الشقة الصغيرة قد أصبحت واحتهما الظليلة بعيداً عن شمس الواقع المحرقة ، ورفضت زمزم كل دعوات جاسر لتناول الطعام فى فندق أو مطعم أو ناد خشية مواجهة أبناء بلدها من الجارسونات والسفرجية . وكان هدف جاسر من تكرار الدعوة التى يدرك أنها لن تلبى ، إشعار زمزم أن هدفه شريف ، فهو غير طامع فى جسدها بقدرما هو حريص على ارتباطه بها .

كان فى جلسته يتطلع إلى ابتسامتها التى أضاءت وجهها كالهلال فى ظلام الليل ، وأسنانها التى تتلألأ مثل حبات القرطم ، ووميض عينيها الذى يحاكى أشعة القمر وخيوطه التى تتمسح بمعبد أبى سمبل . وضع ذراعيه على ركبتيها وأسند ذقنه إليهما ففاح ثوبها الأخضر بعطر الصندل . أمسكت بخاتم إصبعه وسألته هامسة :

— أتحبنى يا جاسر ؟!

تمرغ بوجهه فى كفيها :

ـــ اسألى قلبك .. إجابته هى إجابتى بالضبط !

ـــ إذا كنت تحبنى حقاً فأعطنى هذا الخاتم تذكارًا !

رفع رأسه منتفضاً :

ـــ لماذا التذكار ونحن نلتقى يوميا تقريبا ؟!

ندمت على ذكر كلمة « تذكار » :

ـــ أنسيت أننى سأعود إلى النوبة ؟!

ـــ لم أنس !

ـــ لك الحق فى أن تبخل علىّ بالخاتم .. فهو هدية رفيقة عمرك ! وأمل حياتك !

أشاح بوجهه بعيدا وكأنه يتجنب نظراتها المتسللة إلى أغوار وجدانه وكهوف نفسه :

ـــ رفيقة عمرى وأمل حياتى لم تعبأ بمجرد الرد على تلغرافى !!

ـــ الغائب حجته معه ! آسفة إذا كنت طلبت الخاتم .. اعتبرنى لم أقل شيئاً !!

صاح هامساً وهو يخلع الخاتم من إصبعه :

ـــ كل الدنيا ترخص من أجلك !

ووضع الخاتم فى إصبعها :

ـــ لكنه لن يكون تذكاراً .. لن أسمح حتى لعفاريت الأرض والبحر أن تفرق بيننا !!

داعبت شعره الكثيف بأناملها الدقيقة الرقيقة :

ـــ وأنا أتمنى هذا أيضا .. لكن ما باليد حيلة .. لا يمكننى أن أترك أسرتى تعود إلى النوبة وأظل أنا هنا بمفردى !!

ـــ ربما كانت مجرد زيارة عابرة . تعودون بعدها إلى حياتكم هنا .. فلا يعقل أن يترك أحد أم الدنيا ليعود إلى بلاد سيجتاحها الطوفان وسيلجأ أهلها إلى بلاد

أخرى ؟!

ـــ لا أعرف شيئا على وجه التحديد !

ـــ تلك هى الحيرة التى تكاد تقتلنى !

ربتت على رأسه فى حنان دافق :

ـــ هل لديك حل لهذه المشكلة ؟!

دون تفكير انطلق لسانه من عقاله :

ـــ الزواج ! فلنتزوج ! عندئذ تستطيع أسرتك أن تعود إلى النوبة بسلامة الله وتبقين أنت معى إلى ما شاء الله !

ـــ وماذا عن زوجتك فى كلابشة ؟! هل ستتزوج منى لمجرد الانتقام من إهمالها لك ؟!

ـــ سأتزوجك لأننى لا أستطيع أن أتصور الحياة بدونك !

ـــ لابد أنك قلت لها هذا الكلام من قبل !!

ـــ لن تصدقينى إذا قلت لك إننى لم أقل لها شيئاً على الإطلاق ! تزوجتها لأننى وقعت فى مصيدة نصبتها لى أسرتها !!

ـــ لكنك لست من هذا النوع الذى يسهل الإيقاع به فى المصيدة !!

ابتسم ابتسامة مريرة :

ـــ لا يقع سوى الشاطر !

ـــ إذاً .. أنت لا تحبها !

ـــ لا أكذب عليك .. عندما رأيتها أول مرة جننت بها .. فهى جميلة مثلك تماما .. لكن وقوعى فى المصيدة جعلنى أشعر بالاختناق .. والحب لا يمكن أن يعيش فى جو خانق !

ـــ لا أحب أن أحل مكان أخرى لا تزال متشبثة بك !!

ـــ لو كانت متشبثة لجاءت بنفسها لتعيش معى هنا !!

ـــ عموما لابد من أخذ رأيها والتأكد منه !! فهى مسألة مصير وحياة !

أدرك جاسر أمراً غاب عنه فتساءل :

ـــ لكنك لم تسأليني عن المصيدة التى نصبت لى ؟!

تلعثمت للحظات لكنها قالت بنبرات واثقة :

ـــ لا أحب أن أدفعك إلى الإفصاح عن أمور لا تود الإفضاء بها !

ومع ذلك سرد لها القصة بكل تفاصيلها الدقيقة منذ استدرجت شالوية فاطمة إلى بيته ثم هروبها من الحمام ، وتهديده لأسرتها بعقد الشاوشاو إذا لم ترضخ بتزويجها له ، لكن فى اللحظة التى وافق فيها أبوها على عقد القران ، فقد كل حماس لها وانتابه إحساس الاختناق الذى لم يزاوله إلا يوم وضع قدمه داخل القطار المنطلق إلى القاهرة !

رسمت زمزم ملامح الدهشة والذهول فى عينيها وحول شفتيها وهى تستمع إلى القصة ، وتساءلت عند نهايتها :

ـــ وأنت ما رأيك فى المصيدة التى نصبتها لها ؟!

ـــ طبعا .. منتهى الخسة والنذالة !! لكن طيش الشباب المدلل وحياته الفارغة الخاوية من كل معنى وهدف ومسئولية .. يمكن أن يؤدى إلى أسوأ من هذا .. والحمد لله .. وجدت أخيرا هدف حياتى فى الفن .. ومعناها بين يديك !

ثم قبل كفيها فى حنان هادر فلم تمانع لكنها قالت :

ـــ مجرد تهديدك لأسرتها بالفضيحة إذا لم تزوجها لك .. أكبر دليل على حبك لها !

لم تخف نبراته ضيقه من إصرارها على ترديد سيرتها :

ـــ ما السر فى دفاعك المستميت عنها ؟!

ـــ أخاف ن تفعل بى ما فعلته بها !!

ـــ لا وجه للمقارنة على الإطلاق !

ــ فى داخل كل رجل طفل كبير .. سرعان ما يمل اللعبة التى طالما تمناها بمجرد الحصول عليها .. وربما حطمها طمعا فى لعبة جديدة سليمة !

انفجر ضاحكا وكلماته تتدفق فى تلقائية بلا حدود :

ــ أحيانا أشعر أننى لعبتك .. وليس العكس !

ــ هذا اعتراف خطير من فنان كبير له صولات وجولات فى دنيا العشق والغرام !

ــ لم أفتح قلبى لأحد مثلما فتحته لك ! وكل ما أتمناه من الله ألا تفرق الأيام بيننا .. ولذلك سأتقدم لأبيك لطلب يدك !!

ــ على أى أساس .. إنهم لا يعرفون أننى أقابلك !!

أجابها فى ضراعة ملحة :

ــ لكننى قابلتك أول مرة مع أبيك .. ودار بيننا حوار لم يخف عنه !

ــ وإذا اشترطوا طلاقك من فاطمة ؟! ماذا سيكون الحل ؟!

تردد للحظات ثم استدرك :

ــ وضعنا الآن أسوأ من الطلاق !

ــ ولماذا لا تحررها من هذا الوضع البالغ السوء ؟!

ــ ربما كانت لا ترغب فى الطلاق على حد قولك ! فلماذا أقضى على أملها الذى تعيش من أجله إذ كانت لا تزال مرتبطة بى ؟!

ابتسمت زمزم ابتسامة غامضة لم يفض مغاليق أسرارها لكنه واصل حديثه :

ــ ولماذا نفترض الأشياء قبل وقوعها ؟! ربما لا يشترط أبوك طلاق من فاطمة .. وعموما فالمسافة بينكما أكثر من ألف كيلو !!

اتسعت ابتسامتها لتفترش وجهها كله :

ــ عموما اترك لى تحديد ميعاد التقدم لأبى .. فلابد أن أمهد له !!

طفحت أصداء اليأس على كلماته : ــ هل هناك عقبات ؟!

ــ لى ابن عم يعيش فى دار موسى .. وكان أبى قد وعد أخاه منذ عشر سنوات ....

قاطعها مع حبات عرق نضحت على جبينه برغم برودة الغرفة :

ــ كل المصائب تأتى من تحت رأس دار موسى !! ولهذا السبب يريد أن يعود بك إلى النوبة لتزويجك من شاب لم تره عيناك من قبل .. ولا تعرفين عنه شيئا .. والفرق بينك وبينه هو الفرق بين القاهرة ودار موسى !!

ــ وأنت أيضا تزوجت فاطمة دون أن تراها !!

ــ ألم أقل لك إن جنونى بها بدأ منذ أن لمحتها عند الساقية فى الفجر ؟!

ــ لا أعتقد أن أبى سيجبرنى على الزواج من شاب لا يناسبنى حتى لو كان ابن عمى !! فحياته فى القاهرة لم تمر دون التأثر بها !!

ــ أنا فى انتظار اللحظة التى تعطيننى فيها الإشارة بالتقدم !!

ــ فى اليومين الماضيين تأكدت أن الحب الذى نما بيننا أقوى من أى رباط حتى لو كان الزواج والإنجاب !!

غمرته مشاعر جامحة جارفة كالطوفان ، وأعتى من أمواج المياه التى ستغرق النوبة بعد تحويل مجرى النيل ! انهال تقبيلا على كفيها وذراعيها وساقيها فلم تجبه إلا بعطر الصندل الفواح من أعطافها ، والآهات المتقطعة من بين شفتيها المنفرجتين ، والومضات المارقة من بين عينيها قبل أن تنطبق الجفون ، والأنامل المرتعشة الناضحة بالعرق حول عنقه ووجنتيه .

تركت جسدها ينساب بين ذراعيه حتى تمددت على البساط الأحمر ، تاركة لشفتيه الغليظتين الملتهبتين طبع أختامهما على منحنيات جسدها وروابيه وهضابه وتلاله وكهوفه وأغواره ، فعاد بها إلى جنة عدن حيث انطلق آدم وحواء بلا رداء سوى النشوة العارمة كالإعصار ، الهادرة كالبركان المتفجر بحمم أحالت برودة الغرفة إلى جحيم يلهثان خلف سعيره قبل أن تنطفىء لسعاته وتبرد !

(٢٠)

خاضت سفينة العشاق أمواج النشوة بلا تردد ، فاتحة أشرعها لكل هباتها دون أن يبدو شاطئ فى الأفق البعيد يمكن أن ترسو إليه بعد رحلتها الصاخبة . كان جاسر مبهورا بزمزم لدرجة الذهول ! فبرغم صولاته وجولاته فى دنيا العشق والغرام ، لم ير فتاة مثلها من قبل ! تقطر فى فمه رحيق الحب حتى الثمالة المسكرة ، ولا تفتح معه موضوع الزواج ، حلم كل فتاة مصرية ، إلا إذا سألها عن ميعاد تقدمه لأبيها لطلب يدها . وتأتى إجابتها ، هامسة ، ناعسة ، خالية من كل لهفة :

ـــ لابد من حسم موقف ابن عمى أولا .. فقد جاء أخيراً إلى القاهرة بحثا عن عمل .. وعندما رآنى لم تتحول عيناه عنى لحظة واحدة !

تبخرت النشوة من تلافيف مخه :

ـــ والعمل ؟! بعد أن سرنا سويا فى طريق لا عودة لنا منه ؟!

لم تهتز لها شعرة و لم تقشعر لها بشرة :

ـــ لا تخف .. لن يتزوجنى أحد رغم أنفى !!

ـــ لكن الوقت لا يسير فى صالحنا .. وخير البر عاجله !

ـــ أنت متوتر أكثر من اللازم !

جلس منتفضا فى الفراش :

ـــ لم أر فتاة عجيبة وغامضة مثلك من قبل .. المفروض أن تكونى أنت المتوترة .. أو على الأقل أكثر توترا منى .. لكنك تتكلمين كما لو كان حديثك عن فتاة أخرى !!

ـــ ولماذا يفترض الرجل فى المرأة أن تكون دائما متوترة ومهددة وخائفة

ومضطربة وتحت رحمة أهوائه ونزواته ؟!

خرج صوته فيما يشبه الصرخة التى لم يتوقعها هو نفسه :

ــ ما بيننا ليس نزوة على الإطلاق .. فأنا لم أعد أتصور الحياة بدونك .. وأصبحت أنا الذى تحت رحمتك وليس العكس !

ربتت على خده كأم تداعب طفلها :

ــ لم أقصدك أنت بالطبع !

لم تهدأ أنفاسه فى صعودها وهبوطها بصدره :

ــ ألم تضعى فى اعتبارك احتمال الحمل ؟! ماالعمل إذا وقع ؟!

ــ إنه مسئوليتى أنا أولا وأخيرا !

أشاح بوجهه تجاه الجدار الملاصق للفراش فانطبع ظله عليه حاجزا الضوء الخافت :

ــ يبدو أننى غير ذى موضوع فى حياتك .. مجرد نزوة ؟!

أدارت ظهرها له فى عتاب باسم لم يلمحه :

ــ أنت تعلم قيمتك جيدا عندى !

ــ كيف تفرطين يا مجنونة فى بكارتك .. ثم تتكلمين بهذا البرود ؟! كما لو كنت أنا الذى فقدت بكارتى ؟!

ــ لست مجنونة بل واثقة من نفسى ! لن أسمح للأمور بأن تفلت من يدى مطلقاً !!

ــ بالله عليك ! من أين أتيت بهذه الثقة ؟!

ــ هل المفروض أن أكون مهزوزة وغير واثقة فى نفسى ؟!

ــ لكن ثقتك فى نفسك هذه لا تعادلها سوى ثقة جمال عبد الناصر فى نفسه يوم أمم قناة السويس ليبنى السد العالى بدخلها !!

ــ عبد الناصر مثل أعلى للفتيات أيضا .. يكفى سحر عينيه وصوته عندما

يجلجل ويهز العالم !

— لم أعرف أنك سياسية أيضاً !

— أنت الذى ذكرت سيرة عبد الناصر !

— ألا تدركين أن قضيتنا أخطر من قضية الشرق الأوسط ؟!

استدارت لتواجهه وقد أمسكت بذراعه :

— هل كنت تفضل فتاة تتعلق بك كغريق وتصرخ فى وجهك طالبة إنقاذها بالزواج ؟!

فوجىء بالسؤال فتردد قليلا ثم أجاب بلا تفكير :

— كل ما فى الأمر .. إننى خائف عليك أكثر منك على نفسك ! ....

لو وقع مكروه بسببى .. لا سمح الله .. فليس أقل من التخلص من نفسى هربا من إحساسى القاتل بالذنب !!

احتوته بين ذراعيها فاستسلم لها كطفل بين أحضان أمه :

— يكفينى هذا الشعور !

انتفض مع كلماته التى لم تعد هامسة :

— المسألة ليست مسألة مجاملة .. لن يهدأ لى بال إلا بعد أن تحددى لى لقاء مع أبيك !!

— وإذا رفض بسبب إلحاح ابن عمى ؟!

— الأب الذى يترك ابنته تقضى كل هذا الوقت خارج البيت .. لن يبخل عليها بأن تتزوج الشاب الذى اختاره قلبها !!

— لا تنس أننى أقضى كل هذا الوقت عند صديقاتى !!

— ألم يحدث أن سأل إحداهن عنك على سبيل الاطمئنان ؟!

— ثقته بى أقوى من ثقتك بى !

احتوى رأسها بين كفيه :

ـــ أرجوك .. لا تسيئى فهمى !!

ـــ لا تقلق .. كلها بضعة أيام .. وسأحسم الأمر مع أبى !

ـــ لن يغمض لى جفن حتى تلك اللحظة !

قبلته فى جفونه فأغمض عينيه هامسا كالحالم :

ـــ لم أعد أعرف رأسى من رجلى !

ـــ لا تدع القلق يعكر صفو سعادتنا !

وعادت سفينة العشاق تمخر عباب بحار الرغبة المتأججة غير عابئة بالرذاذ المتناثر الذى يسعى لإطفاء لهيبها ، لكن الأفق البعيد لم يبرز شاطئا أو مجرد جزيرة صغيرة ترسو إلى سواحلها السفينة التى اهتزت دفتها فى يد ربانها القابضة عليها بأصابع متقلصة أحيانا ومرتعشة أحيانا أخرى !



(٢١)

مرت الأيام وتوالت الليالى لكن شيئاً جديداً لم يبرز إلى السطح حتى بدت زمزم ذات ليلة فى أعقاب العرض المسرحى وكأنها تنوء بأثقال كالجبال . سألها جاسر أكثر من مرة وهما فى السيارة عما بها ففضلت فتح الموضوع فى البيت ، فانطلق كما لو كان هاربا من حجارة يلقيها عليه الجن أو العفاريت أو الشياطين الذين يطاردونه ! كان يختلس النظر إليها من حين لآخر لعله يستشف ما يفور ويمور داخلها ، فلم تنم كآبتها عن شىء ، ومع ذلك حدثه قلبه بكوارث قادمة كالأعاصير التى لا تبقى ولا تذر !

بمجرد أن دخلا الشقة صاح فيها :

ــ أرجوك كفاك تعذيبا لى .. ماذا حدث ؟!

تجنبت وميض عينيه المنطلق كالسهام :

ــ جاسر .. أنا حامل !

لهج لسانه بصوت مبحوح تحت وطأة كابوس :

ــ ماذا قلت ؟!

ــ أنا حامل وفى الشهر الثالث !!

كانت نظراته الزائغة أكثر وأصدق تعبيرا من كلماته :

ــ كيف ؟! متى ؟! هل أنت واثقة ؟!

ــ ذهبت اليوم مع صديقة لى إلى طبيب للكشف علىّ فأخبرنى بما قلته لك !

أمسك بذراعيها وهزها فى عنف متفجر بالتساؤل :

ــ كيف تركت الأمور تصل إلى هذا الحد ؟! ألم أحذرك مراراً وتكراراً ..

وفى كل مرة تحدثيننى عن الثقة بالنفس ؟! أليس هذا ما توقعته ؟!

— أنت تؤلم ذراعى !!

ترك ذراعيها ليضرب كفا بكف :

— والعمل الآن ؟! لابد أن أقابل أباك حالا مهما كانت النتائج !! وإذا رفض .. سنتزوج رغم أنفه وأنف الجميع !

— ستقابله !

— غداً !

— غداً ! تحدثت معه بعد عودتى من العيادة ....

قاطعها كالسيف :

— ماذا قلت له ؟!

عاد إليها هدوؤها المشوب بالحزن :

— قلت له إنك تود لقاءه .. فرحب .. وهو فى انتظارك الساعة الخامسة مساء الغد !

— بهذه البساطة ؟!

— بهذه البساطة ؟!

— وهل يعرف السبب فى طلب هذا اللقاء ؟!

— عندما تلقاه سيعرف السبب منك !

— ولماذا لم تحددى اللقاء قبل هذا الكارثة إذا كان بهذه السهولة ؟!

— وهل تسمى ابنك كارثة ؟!

كاد يقتله هدوؤها فأمسك بذراعيها :

— يبدو أنك من طينة غير كل البشر ! من أين أتيت بهذا الهدوء والصبر والبرود ؟!

— قلت لك أكثر من مرة إن الأمور لن تفلت من يدى !!

— أنت مغرورة أكثر من اللازم .. الأمور أفلتت .. وربنا يستر !! استعدى

غداً .. إذا لم يوافق أبوك فسنضعه أمام الأمر الواقع !

— اطمئن .. ما بيننا من صنع القدر .. ولا يستطيع أحد أن يتحدى القدر !

أجلسها على مقعدها المعتاد أمام المكتب فى حين قبع هو خلفه قائلا بصوت حجرى :

— فلنتفق على ما سنقوله غداً !

— ما سنقوله ؟! أنت الذى ستقول وحدك !

لم يخف ضيقه :

— فاهم ! فاهم ! ماذا سأقول غداً !

— تسألنى وأنت الفنان والشاعر الذى يقول كل ما لا يستطيع الآخرون إخراجه من صدورهم !

— أقصد أننى لا أعرف شيئا عن شخصية أبيك .. أريد أن أعرف ماذا يحب ؟! وماذا يكره ؟! ماذا يفضل ؟! وماذا يتحاشى ؟!

— أنت لست فى حاجة إلى كل هذا ! فأنت تعرفه مثل كف يدك !!

— لا داعى لهذه السفسطة !

— أبى مثل أى أب نوبى آخر .. مثل أبيك وعمك وخالك !! ثم إنك خير من يتلاعب بعقول الناس ومشاعرهم .. صحيح أن أبى كان يرى فى احتراف الفن مضيعة للوقت والجهد والمال والقيمة .. لكنك بعد أن أثبت نجاحك وجدارتك .. أصبح هو نفسه واحداً من عشاق فنك الذين يكنون لك كل احترام وإعجاب !

بدت بوادر شبح ابتسامة فى عينى جاسر الحجريتين فعاد إليهما بريقهما الأخاذ :

— لا شك أن هذا سيسهل كثيرا من مهمتى !

— قل له إنك ابن عمى أيضا !

ــ كيف ؟!

ــ كل أبناء النوبة أبناء عمومة لبناتها !!

شرد جاسر عبر النافذة الزجاجية التى تطل زاويتها على المصابيح المتناثرة وسط الأشجار على ضفة النيل . سألته بابتسامة تمزج الدعابة بالتخابث :

ــ هل ستقضى الليل كله فى الشرود والتأمل والسكون ؟!

ــ فعلا .. أنا أمر الآن بحالة مثل تلك التى مررت بها ليلة افتتاح المسرح لأول مرة ! لابد وأن أهيىء نفسى فكريا ونفسيا !!

ثم نهض فجأة :

ــ هيا بنا !

لم تنهض :

ــ إلى أين ؟!

ــ إلى بيتك !!

ــ سئمت منى ؟!

ــ لا تضيعى الوقت فى كلام فارغ !

ــ سأفتقدك ! يبدو أنك لن تفتقدنى !!

ــ ليس هناك وقت للدلال !!

ــ ستندم ؟!

ــ سأندم لو لم أفكر فى كل كلمة أو حركة أمام أبيك غدا !!

ثم جذبها من ذراعها فنهضت مجبرة وبريق عينيها يحتويه من أم رأسه إلى إخمص قدميه !

انطلق بسيارته الصغيرة مارقا بين وسائل المواصلات التى خف زحامها . لم تغادر نظرات زمزم وجهه :

ــ كأنك تريد التخلص منى بأسرع ما يمكن ؟!

أجابها دون أن ينظر إليها :

ـــ وأنت التى تتهميننى دائما بأننى طفل لم ينضج بعد ؟!

التزمت الصمت لكن نظراتها قبعت على وجهه لا تريد أن تغادره حتى بلغ ناصية الشارع الضيق المعتم فتوقف لكنها لم تهبط من السيارة كعادتها . قال لها :

ـــ أراك بخير !!

ـــ هكذا دون قبلة !!

قبل وجنتها بحركة آلية فهمست فى إلحاح :

ـــ سأفتقدك بجنون !

ـــ ما فعلناه كان الجنون بعينه !

ثم نظر حوله فى توجس :

ـــ أخشى أن يرانا أحد لو ظللنا هكذا مدة طويلة !

فتحت الباب وهبطت قائلة :

ـــ ما فعلناه كان عين العقل .. وستثبت لك الأيام ذلك !

وسارت حتى الباب السابع على اليسار وقد تدثرت بالجاكت القطيفة الذى يحاكى زرقة السماء الصافية برغم عتمة الشارع . ابتلعها الباب فاجتاحت جاسراً وحشة قاتلة ، لكنه تشاغل عنها بالتفكير فيما سوف يحدث فى الغد ! إنها ثانى معركة فاصلة فى حياته بعد ليلة الافتتاح ، فهل سيحقق فيها النجاح الكاسح الذى شهد له الجميع من قبل ؟!



ــ يا عمى .. فى الواقع .. فى الحقيقة .. كنت أتطلع إلى شرف مقابلة حضرتك مرة أخرى بعد المرة التى شرفتنى فيها حضرتك وابنتك الآنسة زمزم بمتابعة العرض .. لكننى ترددت كثيرا .. مرة .. خجلا .. ومرة أخرى .. حرجا .. ومرة ثالثة .. يأسا .. لكننى عزمت أمرى أخيراً عندما رأيت الآنسة زمزم فى المسرح فرجوتها تحديد لقاء لى مع حضرتك .. وكانت سعادتى لا توصف عندما شرفتنى فى المسرح فى اليوم التالى وأخبرتنى أن الميعاد قد تحدد اليوم .. أصارحك القول يا عمى إننى لم أنم من السعادة والخوف والقلق والأمل واليأس !

ــ لماذا كل هذا يا بنى ؟! أنت فنان كبير تفخر به النوبة كلها !! وصداقتك بل ومجرد معرفتك حلم يراود الكثيرين !!

ــ هذا شرف كبير يا عمى لم أكن أحلم به ! لكن الشرف الأكبر والأعظم يا عمى أن أفوز بيد كريمتكم ربة الصون والعفاف الآنسة زمزم !!

ــ لكن زمزم تكاد تكون مخطوبة لابن عمها !!

ــ وأنا أيضا ابن عمها !

ــ كيف ؟!

ــ كل شباب النوبة أبناء عمومة لبناتها !

ــ لا أحد يستطيع أن يغلبك فى الحجة يا بنى .. فأنت أمير الكلام !

ــ سأضع زمزم فى عينى .. وسأجعل منها أميرة حياتى !

ــ على بركة الله يا بنى !

كانت السيارة منطلقة نحو حى عابدين وسط زحام الحافلات والشاحنات

وعربات الترام والمترو ، وجاسر يستعيد للمرة الألف هذا الحوار الذى صمم كلماته وجمله وحفظه عن ظهر قلب! لكن الخاطر المقلق الذى نغص عليه صفو تفكيره إنه حتى فى حالة موافقة الأب على عقد القران : ماذا سيقول الناس عندما تنجب له زمزم ابنه بعد ستة أشهر من الزواج ؟! لو كان بعد سبعة أشهر لقالوا إنه ابن سبعة ! أما ستة أشهر فمسألة مثيرة للشبهات والقيل والقال ! ربما كان العزاء الوحيد أن الناس فى القاهرة مشغولون بهمومهم اليومية .. ولن يتذكروا بالضبط تاريخ زواجهما .. فهى ليست قضية عمرهم .. أما فى النوبة فكارثة وطوفان مثل ذلك الذى سيجتاحها عند تحويل مجرى النيل .. والحمد لله .. فالقاهرة هى حياته ومستقبله ودنياه وكل شىء !

كانت الشمس تزاحم المارة والعربات فى الشارع ببريقها الذهبى الذى تخلى عن احمرار الظهيرة ، وامتدت ظلال العصر على الشوارع والأرصفة فى حين كان جاسر ينظر من حين لآخر إلى ساعة يده التى اقتربت من الخامسة !

— ماذا ستقول فاطمة عندما تعلم أنه أنجب من زمزم طفلا بعد ستة أشهر من الزواج ؟!

أدرك فى تلك اللحظة أنه نسى فاطمة تماما ! وهى تستحق كل هذا وأسوأ ! فلتهنأ بعنادها وكبريائها ! لكنه استدرك مع ابتسامة باهتة على وجهه فى مرآة السيارة إنه يفكر ويخطط كما لو كان قد ضمن موافقة عم صالح على زواجه من ابنته ؟!

لم تفلح شمس أوائل مايو فى إشاعة الدفء فى أطرافه الباردة ، لكنه طمأن نفسه بأنه قد استعد لأسوأ الأمور ، وبأنها فى النهاية لن تفلت من يديه على حد قول زمزم !

عبر الشارع الموازى لسور قصر عابدين ليدخل الشارع الضيق الذى تسكنه زمزم . كم يبدو الشارع مختلفا فى شمس العصارى عنه فى الليل ؟! كما لو كان شارعا

آخر ! سار الهوينى بالسيارة حتى بلغ الباب السابع على اليسار . كم تبدو البيوت صغيرة ووادعة فى ضوء النهار !! وكم تبدو ضخمة ومخيفة فى عتمة الليل !! هنا فى هذا البيت الصغير ستحسم قضية من أخطر قضايا حياته ! لكنه تذكر آسفا أنه لم يسأل زمزم فى أى طابق تسكن ! عموما فالبيت عبارة عن طابقين ومن يسأل لا يتوه ! أقفل السيارة ودخل ليدق على باب الطابق الأرضى دقات لم تجرؤ أن تكون ثقيلة فلم يفتح أحد ! تضاعف ثقل الدقات فجاء صوت عجوز من الداخل :

ـــ من ؟! من بالباب ؟!

صاح جاسر :

ـــ عم صالح !! عم صالح من فضلك !!

ـــ من ؟! من بالباب ؟!

أدرك جاسر أنها ثقيلة السمع فكاد يصرخ مكررا نفس الكلمات . فتح الباب لتبدو منه عجوز أحنى الزمان ظهرها فاتكأت على عصا غليظة . صاح جاسر بصوت أعلى وقد ذكرته بشالوية :

ـــ عم صالح !! هل يسكن هنا ؟!

ـــ لا ..

ـــ فى الطابق الأعلى ؟!

وهم أن يتركها قفزاً على درجات السلم الخشبية ، لكن كلمة من بين شفتيها الجافتين أحالته إلى تمثال حجرى على أول درجة :

ـــ لا تتعب نفسك .. سافر مع عائلته صباح اليوم !!

ـــ سافر ؟! إلى أين ؟!

كانت تقرأ شفتيه بدلا من الاستماع إليهما :

ـــ إلى بلده ..

— بلده ؟!

— النوبة !!

— مستحيل .. فأنا على ميعاد معه اليوم !

أدارت أذنها اليسرى تجاهه :

— ماذا تقول ؟!

لم يحتمل جاسر مزيدا من الحوار العقيم وقلبه ينبئه بأشياء غامضة مرعبة ! نهب الدرجات كل ثلاث أو أربع فى قفزة واحدة حتى وجد نفسه أمام باب مغلق يوحى بشقة مهجورة ! دق عليه بكلتا يديه فاهتز دون أن يفتح ! خيل إليه أنه سمع وقع أقدام فى الداخل مختلطاً بأصوات مبهمة ! انتظر للحظات لاهثة لكن أحداً لم يفتح ! أعاد الدقات المسعورة المحمومة فلم يسمع سوى صداها ! ظل يصرخ :

— عم صالح ! عم صالح !!

لكن الدقات المسعورة والصرخات المحمومة ضاعت سدى ! عجز جاسر عن استيعاب ما يرى برغم تأكده المتصاعد من وقوع الكابوس المخيف . لم يجد بداً من الهبوط ليقابل العجوز التى كانت لا تزال بالباب وهى تنظر بعينيها الكليلتين إلى أعلى :

— لماذا لم تصدقنى ؟! ليس لى صالح فى الكذب عليك !!

أصبحت كلماته صرخات لاهثة :

— عفوا يا خالة .. وهل سافرت ابنته معه ؟!

— من سافر معه ؟!

— ابنته ؟!

— ليس له ابنة !! له ابنان .. أحدهما يعمل بأسوان والآخر بالإسكندرية !

— له ابنة اسمها زمزم !

— لم أسمع عنها من قبل !

ــ ألم تشاهدى فتاة فى حوالى العشرين من عمرها تعيش معه ؟!
ــ أنا أغلق على نفسى الباب باستمرار !
ــ ومتى سيعودون ؟!
ــ لا أعرف .. كل ما أعرفه أنهم أخبرونى بسفرهم إلى النوبة كى أحرس لهم الشقة ! فأنا لا أغادر البيت أبداً !

كان كل أمل جاسر أن يكون قد أخطأ المنزل وأن تكون هذه العجوز المخرفة تهذى بكلمات لا معنى لها ! فهو لم يأت قبل ذلك إلى هذا الشارع نهارا ! خرج مندفعا وكلمة العجوز تتبعه :

ــ عجايب ! عجايب !

قابل سكان المنزلين السادس والثامن فلم يظفر إلا بنفس كلمات العجوز ! كلمات نزلت على رأسه كمطارق من حديد فبعثرت مخه إلى أشلاء متناثرة ! فالجميع لا يعلمون شيئا عن فتاة تدعى زمزم و لم يلمحها أحدهم ، وأن عم صالح لم ينجب ابنة على الإطلاق ! وحتى عند سفرهما صباح اليوم لم يكن هناك أحد معهما !

ــ يا الله !! هل يكون الأمر كله وهما فى وهم ؟! وهل يكون الشىء الوحيد الصادق الذى نطقت به زمزم هو أن الرجل اسمه صالح ؟! وفيما عدا هذا فالأمر كله أكاذيب وأوهام ! يا ربى ! كيف تكون فاطمة شخصية وهمية ثم تتحول إلى فتاة حقيقية فيهرب منها ، ثم يقابل زمزم ، فتاة حقيقية كالحياة ذاتها فتصبح بين عشية وضحاها شخصية وهمية تهرب منه وتتلاشى كما يتلاشى الحلم الجميل أو حتى الكابوس الذى لم يره أحد غيره ؟!

أوشك رأسه على الانفجار وهو يدير محرك السيارة التى تحركت وسط وجوه صفراء ، وعيون داكنة ، وظلال باهتة ، ومركبات تقترب وتبتعد ، وأبواق تعوى فى الآذان بلا سبب ، وإشارة خضراء وصفراء وحمراء ، ودخان خانق

منطلق من أفواه العوادم :

ـــ ما أجمل أن يستيقظ الإنسان من الكابوس ويحمد الله على سلامته ؟! لكنه لا يستطيع أن يستيقظ من هذا الكابوس لأنه مستيقظ بالفعل ويقود السيارة ! ربما كان هو إنسانا آخر لا يستطيع التحكم فيه والسيطرة عليه ؟! وهذا الإنسان اختفى مع زمزم أما الذى يقود السيارة فإنسان لم يعرف و لم يقابل بل و لم يعشق فتاة جميلة ساحرة تدعى زمزم ؟! وماذا يمكن أن يجرى لها لو كانت حاملا فى الشهر الثالث كما زعمت ؟! أم أن مسألة الحمل هى أيضا وهم وتضليل ؟! هل يمكن أن تكون قد ضللته فيما يتصل بعنوان بيتها وإنها كانت تدخل البيت كل ليلة وتنتظر حتى يرحل بسيارته لتخرج وتسير إلى بيتها الحقيقى ؟! لكنها كانت تقول له وتؤكد باستمرار إن أسرتها سترحل إلى النوبة لإلقاء النظرة الأخيرة عليها قبل أن يجرفها الطوفان ! ومع ذلك هل يمكن أن يحدث السفر هكذا فجأة وبلا مقدمات ، وهو سفر طويل وشاق ؟! وما مصلحتها فى أن تهرب منه بهذا الشكل وهو المسئول عمن فى بطنها ؟! هذا إذا كان فى بطنها شىء على الإطلاق ؟! لكنها كانت عذراء بالفعل ؟! كانت غامضة ومحاطة بهالة من الأسرار التى تصور أنها يمكن أن تتكشف تباعا مع الأيام خاصة وأنها أغرقته فى إعصار من الحب لم يترك له فرصة التأمل والتحليل والتفسير ؟! لكنه لم يتصور أن ينتهى الأمر كله بسر لا يمكن فض مغاليقه كالموت !! ربما سافروا إلى الإسكندرية مثلا أو إلى أية مدينة أخرى قريبة لسبب أو لآخر .. فالغائب حجته معه وهو لا يعرف شيئا عن أقاربهم وصلاتهم .. وربما يعودون بعد أسبوع أو أسبوعين لتعود المياه إلى مجاريها !! وربما تصور الجيران أن النوبى عندما يسافر فلابد أن يسافر إلى النوبة !! وعلى الرغم من أن كل تأخير ليس فى صالحها لكن ماذا يمكن أن يفعل وهو الذى بذل أقصى ما فى وسعه كى يحميها من الهاوية التى فتحت فاها لتبتلعها وكانت تسير إليها كما لو كانت فى نزهة ؟! ما سر هدوئها

وبرودها وإصرارها على أن الأمور لن تفلت من يدها ؟! هل يسافر وراءها إلى النوبة كي ينقذها من نفسها ومن جنونها أو يعاقبها إذا كانت كاذبة ؟! هل سيبحث عنها فى البلاد التى قالت إن لعائلتها فروعا فيها أم سيضطر إلى مسح كل بلاد النوبة من فيلة ودابود شمالا وحتى أبو سنبل وجبل الشمس وفرس جنوبا ؟! وربما عاد من رحلته بخفى حنين !! فإذا كانت قد خدعته وهى إلى جواره فى القاهرة فهل من العسير عليها أن تجعله يهيم على وجهه بطول النوبة وعرضها ؟! وهل هانت عليه نفسه إلى هذا الحد ؟! ولماذا كانت تؤجل وتسوف باستمرار حسم الموضوع ، وعندما تصور أنها حسمته أخيراً تلاشى الأمر كله كقطرات الندى تحت الشمس المحرقة ؟! هل كانت زمزم مجرد جنية من أهل العالم السفلى جاءت لتنتقم لما فعله مع فاطمة من إذلال وتحقير وتعذيب ؟! وهل يمكن أن يكون هناك انتقام أبشع مما يرزح تحت وطأته الآن ؟! وما سر التشابه المذهل بينها وبين فاطمة ؟! هل هى قرينها الذى يذكرونه دائما فى النوبة !! وهل جاء القرين لينتقم من الضحية ؟! ولماذا حلم عندما رأى زمزم لأول مرة فى المسرح بحكاية زمزم !! تلك الفتاة السيئة السيرة التى قتلها أهلها وقتلوا إخوتها معها .. وقطعوها إربا إربا ووضعوها فى جوال وألقوا بجثتها فى النهر .. ومنذ تلك الليلة تحولت إلى شيطان يتربص بكل السائرين ليلا .. فتبدو على هيئة امرأة عارية خارجة من النهر فى منتصف الليل وتطبق على السائرين بقذائف الحجارة من كل صوب وحدب .. فيفرون كالمجانين للنجاة بأنفسهم !!

اقشعر بدن جاسر وهو يتذكر أن كل لقاءاته مع زمزم كانت ليلا ! ربما كانت تتلاشى عند الباب السابع فيظنها فى غبش الظلام قد دخلت البيت ! وهل يعقل أن يترك أب ابنته لتعود هكذا كل ليلة بعد منتصف الليل ؟! خاصة إذا كان هذا الأب نوبيا ؟! وهل يعقل أن تفرط فتاة نوبية فى عرضها وعفافها بهذه البساطة ؟! كثيرا ما كان يسخر من أهله وهم يقصون عليه قصص « المخاوين » أو المتزوجين من

أهل العالم السفلى ، فهل أصبح هو واحداً منهم دون أن يدرى ؟! إن سحر زمزم لم يكن سحر فتاة عادية !! كانت جاذبيتها لا تقاوم ، ولا تقف عقبة فى طريقها إلى ما تريد !

كم قصت عليه جدته فى طفولته قصص الناس الذين يعيشون فى قاع النهر ولهم بيوت ومطاحن غلال وأسواق للبيع والشراء وحرف ورقصات وطيور وحيوانات .. فالتناسخ يجعل الأرواح تتقمص كل الكائنات .. البشر والحيوانات والطيور !! فهل يمكن أن يكون قد جرى سوء لفاطمة فتقمصت روحها هذه الجنية التى عاشرته ثلاثة أشهر ؟! لو جرى سوء لفاطمة فلن يسامح نفسه أبداً حتى يموت ضحية إحساسه بالذنب !! لكن أنباء سيئة كهذه كان يمكن أن تصله قبل وصول زمزم التى قابلها بعد عام كامل من وجوده فى القاهرة !

لم يعد يدرى شيئا ! تلاشت الحدود بين الحقيقة والوهم ، بين الواقع والحلم أو الكابوس ، بين الأجساد والأرواح ، بين الإنس والجن ! لم يستطع مقاومة اجتياح الأفكار والهواجس والخواطر والمخاوف حتى اجتاحته سيارة نقل عملاقة لتطحن الجانب الأيسر من سيارته الصغيرة وتقلبها رأساً على عقب وسط شهقات الوجوه الصفراء ، ووميض العيون الداكنة ، وخطوط الظلال الباهتة ، وبقع الدماء الحمراء !



فتح جاسر عينيه ليجد البياض يلون كل الأشياء . تساءل بصوت واهن كأنه يناجى نفسه :

ــ أين أنا ؟! أين أنا ؟!

أدار عينيه فوجد طبيبا واقفا إلى جوار فراشه يتصفح بعض صور الأشعة الكبيرة وإلى جواره ممرضة تتابعه . عاد صوت جاسر الواهن :

ــ ماذا جرى ؟! كيف جئت إلى هنا ؟!

حاول أن يتحرك لكنه لم يستطع و لم يكتم تأوهه . ابتسم الطبيب ابتسامة حانية :

ــ أنت ابن حلال .. ونيتك سليمة .. الحمد لله على سلامتك !!

ــ أنا لا أستطيع أن أتحرك !

ــ أنت نجوت بأعجوبة .. أن يعجن لورى سيارتك الصغيرة وتخرج منها حيا .. معجزة بكل المقاييس !

ــ طمنى يا دكتور !

ــ كسر مضاعف فى الساق اليسرى .. وضلعين فى القفص الصدرى .. وشرخ فى الحوض .. وعشر غرز فى فروة الرأس انتهينا منها قبل أن تفيق !!

رفع ذراعه ليتحسس بيده مكان الغرز :

ــ يعنى انتهيت يا دكتور !! ضاع مستقبلى وتهدم كل ما بنيته !!

ضحك الطبيب فى دعابة مقتضبة :

ــ لا تندب حظك كالعجائز .. أنت شاب وستلتئم الكسور بسرعة .. كل

ما نطلبه منك .. قليلا من الصبر والإرادة !! سنأخذك الآن إلى غرفة العمليات لنجبس ساقك .. ونضع صدرك فى قميص من الجبس !!

— وهل سأظل فى الجبس طويلا ؟!

— ليس أكثر من شهرين .. ثم نقوم بفكه وتخفيفه .. وقد لا يستدعى الأمر بعد ذلك أكثر من رباط ضاغط .. وتلازم بيتك بعد ذلك حوالى شهرين ثم تبدأ مدة العلاج الطبيعى لتستمر شهراً !!

— وهل سأعود إلى المسرح مرة أخرى ؟!

— بالطبع ستعود ! وهذه المرة سآتى لمشاهدتك مجانا !!

انتزع جاسر ابتسامة من وجهه المنهك الحزين :

— بإذن الله يا دكتور ! بإذن الله !

دخل ممرضان يدفعان أمامهما نقالة توقفت بحذاء الفراش وحملا عليها جاسراً الذى حاول أن يكتم آهات الألم قدر إمكانه ثم اندفعا بها إلى الخارج حيث رصدت عينا جاسر وجه الأستاذ على كوبان المتفجر باللهفة ، والدموع فى عيون ناهد وزينب وإيفا ورتيبة وإحسان وريتا وإيزيس ، والوجوم فى نظرات مصطفى ورشدى وشكرى ومبروك ! تحولت الفرقة كلها إلى قلوب واجفة غارقة فى صلاة خاشعة ليحيط الله حبيبهم بعنايته ورعايته !

لم يجب الطبيب عن أسئلتهم الملهوفة إلا بكلمات مقتضبة :

— الحمد لله .. الحمد لله .. اطمئنوا .. اطمئنوا !

ثم دخلوا به إلى غرفة العمليات التى يغلق بابها من تلقاء نفسه . ظل أعضاء الفرقة يذرعون الممر جيئة وذهابا طوال خمس ساعات استغرقتها العملية ، بل إن بعضهم كان يدخن بشراهة برغم منع جاسر للتدخين منعا باتا ، فى حين تشاغل البعض بالثرثرة حول الأسباب التى أدت إلى هذه الكارثة ، وتلك الفتاة الغامضة

التى اعتاد أن يقابلها بصفة شبه يومية ، ومع ذلك لم تأت للسؤال عنه والاطمئنان عليه !

خرجوا به من غرفة العمليات و لم يكن قد استرد وعيه تماما ! تحلقوا حوله والنقالة تندفع به إلى غرفته . لم يسمح الطبيب لأحدهم بالدخول معه باستثناء الأستاذ كوبان وناهد اللذين ظلا جالسين على يمين الفراش ويساره صامتين حتى عاد إليه وعيه ، وقال بنبرات بطيئة متقطعة واهنة :

ـــ أتعبتكم معى ؟!

أجابت ناهد وهى تدارى الدموع بأناملها :

ـــ لا تقل هذا الكلام ! كم تعبت من أجلنا ! المهم سلامتك !

أدار عينيه ليقول لكوبان :

ـــ من الذى دفع مصاريف المستشفى ؟!

ـــ لا تحمل هما .. ميزانية الفرقة قوية والحمد لله .. وحسابنا فى البنك يزداد يوما بعد يوم ! كما أن النقابة ستشارك أيضا فى المصاريف !

ـــ وكيف ستسير الأمور وأنا عاجز هكذا وبعيد عن الفرقة ؟!

لم يخف صوت ناهد بحة بكاء صامت :

ـــ بعد الشر عنك ! علقة تفوت ولا حد يموت !

أضاف كوبان مطمئنا نجم الفرقة :

ـــ أعلنت أن الفرقة ستحصل على إجازة لمدة أسبوع .. سيتدرب فيها مصطفى على نمرك .. وسنواصل المسيرة بإذن الله حتى عودتك بالسلامة !

ثم استغرق جاسر فى نوم خفيف متقطع فلت فيه لسانه بكلمات مثل زمزم .. فاطمة .. عم صالح .. أين الخاتم ؟! إنه يحفظنى من كل شر !! ثم يصيح صارخا السيارة .. السيارة !! آه .. آه ؟؟ فيفيق وينتبه إلى أنه كان حلما أو كابوسا ، ويد ناهد الحانية تربت على كتفيه وذراعيه !

أصرت ناهد على البيات معه طوال الأسبوع الأول حتى يخرج من المرحلة الحرجة ! ذهل جاسر لمعدنها الأصيل الذى جعلها ترعاه كل هذه الرعاية برغم أنه طردها من حياته من أجل سواد عيون زمزم ! هل كانت ولا تزال تحبه كل هذا الحب وهو الذى كفر بكل هذه النعمة ؟! وكانت فترات الخلوة بينهما طويلة وممتدة فى غرفة المستشفى بحيث مكنته من أن يفضى إليها بكل ما فى قلبه ! ومكنتها أيضا من أن تضع النقاط على كل الحروف التى اهتزت أمام عينيها منذ فرقت بينهما هذه الملعونة الغامضة !

قال لها بعد أن سرى القرص المسكن ببرد الراحة فى ساقه :

ــ تصوري .. زمزم تلاشت كأنها جنية ابتلعها الظلام !

قالت عيناها إنه يهذى بفعل القرص لكنه استدرك :

ــ أنا فى كامل وعيى يا ناهد !!

ــ نحن الآن فى مصر .. ولسنا فى النوبة !

ــ سأسألك سؤالا أرجو أن تجيبى عليه بمنتهى الصراحة دون الشك فى قواى العقلية !

ربتت على يده فأمسك بيدها ورفعها ليقبلها لكنها سحبتها فى رفق ورقة :

ــ تفضل !

ــ هل رأيت زمزم مرأى العين ؟! أقصد هل تتذكرين ملامحها ؟!

ــ لا أتذكر ملامحها على وجه التحديد .. لكننى أتذكر شكلها العام يوم كانت السبب فى الشجار بيننا !!

تنفس الصعداء :

ــ الحمد لله .. فهى فتاة حقيقية بمعنى الكلمة !

قالت عيناها مرة أخرى إنه يهذى فلم يشأ أن يضيف قوله عن الجيران الذين يشككونه فى وجودها أصلا ! غيّر الموضوع متسائلا :

ــ هل لى أن أتساءل عن السبب فى عنايتك الفائقة بى ؟! لو كانت زوجتى هنا لما فعلت ما تفعلينه الآن ليل نهار ؟!

سنحت الفرصة أخيراً لناهد كى تفرغ كل ما فى صدرها :

ــ عندما جننت بك .. كانت سذاجتى تؤكد لى إنه إذا دخل الزواج من الباب هرب الحب من الشباك .. ولذلك لم أفاتحك فى موضوع الزواج لأننى لم أفكر فيه أصلا .. كنت خائفة أن أفقدك بعد أن قلت لى إنكم لا تتزوجون إلا نوبيات .. وظننت أن الحب كفيل بربطك بى .. لكننى اكتشفت أن هذا الحب وهم كبير تلاشى بمجرد ظهور زمزم فى حياتك .. صدمت فى الأيام الأولى صدمة شديدة .. لكن الأيام علمتنى أن أغير طريق حياتى إذا وجدته مسدوداً .. تذكرت فى الحال الضابط الكبير الذى طار بى إعجابا عندما شاهدنى على المسرح .. وعرض علّى الزواج بشرط اعتزال الفن .. لكن جنونى بك وبالفن دفعنى إلى رفض العرض بلا تفكير .. برغم اتهام أمى لى بالغباء المطلق .. لكن رفضك لى وتجاهلك المطلق لى طوال الشهور الماضية علمنى أن عصفوراً واحداً فى اليد خير من عشرة على الشجرة !! وأن الجمهور الذى يصفق لى اليوم يمكن أن يرفضنى غداً كما فعلت أنت !! ولذلك قبلت عرض الضابط الكبير .. وسأعتزل الفن بمجرد كتب الكتاب وعقد القران !!

كان جاسر ينصت إليها فى ذهول أنساه ألم ساقه فأسكته :

ــ اتقصدين أن سبب عنايتك بى أننى لقنتك درس العمر ؟!

ــ قل .. فرصة العمر .. فلولاك لما استطعت أن أمارس الفن على المسرح بعيدا عن سطوة أمى .. ولولاك لما رآنى الضابط وعرض علّى الزواج .. وإذا كتب لى أن أكون سيدة من سيدات المجتمع الراق بل ومن صاحبات النفوذ ..فالفضل سيكون لك فى كل هذا !!

ــ أستغفر الله العظيم !! أى أنك تردين الجميل حتى لا يتبقى شىء منى

فى عنقك ؟! لعلمك إذن .. ليس لى جميل فى عنق أى واحد أو واحدة منكم .. والنجاح الذى حققناه لم يكن نجاحى أنا وحدى .. فاليد الواحدة لا تصفق .. فإذا كان الأمر مجرد رد للجميل .. فأنا لست دائنا لأحد .. وأرجو ألا تتعبى أكثر من هذا .. فخطيبك فى انتظارك وهو أولى بك !!

ربتت على يده فسحبها منها فى رفق ورقة ومع ذلك قالت :

ـــ أرجو ألا تتضايق .. فقد عودتنا على الصراحة الكاملة .. وارتباطى بك الآن أصبح أقوى ألف مرة .. فهو ارتباط الأخت بأخيها !!

ـــ وهل يرضى خطيبك بتمريضك لرجل آخر لدرجة البيات معه ؟!

ـــ إنه الآن فى دورة تدريبية فى روسيا لمدة ستة أشهر وبمجرد عودته .. سيتم عقد القران !! كما أنك سجين الجبس بلا حراك !!

ابتسم فى وداعة واهنة :

ـــ لن نستطيع أن نصل إليك بعد ذلك !

ـــ لا أحب أن أسمع مثل هذا الكلام .. سأكون تحت أمر الفرقة فى أية خدمة تطلبونها !!

ـــ أمك طبعا أسعد الناس بهذه الخطوبة ! فهى عاشقة للسلطة فى كل صورها !!

ـــ لكننى لن أسمح لها بتجاوز حدودها ! فلأول مرة فى حياتى أشعر أننى أقوى منها !

ـــ أتمنى لك كل سعادة ! فأنت تستحقين كل خير !!

ـــ من الواجب أن نرسل تلغرافا إلى زوجتك كى تحضر وتقف إلى جانبك ! إن من حقها أن تعرف !

ـــ لى أسرة من ثلاثين فردا لا يتركوننى لحظة واحدة .. أما موضوع زوجتى

فلن يحسم إلا بعد شفائى بإذن الله وسفرى إلى النوبة بنفسى .. فالأمور لا يمكن أن تسير على هذا المنوال !

ــ ستكون أول المدعوين بإذن الله لحفل زفافى !

ــ وسأرقص لك خصيصا !

عادت إليها ضحكتها الساحرة :

ــ وكم ستطلب فى هذه الرقصة ؟!

ــ رضاك !

ربتت على يده فلم يسحبها من يدها ، والتقت النظرات فى فيض من المشاعر المتدفقة التى تنافس سحب النوبة فى نقائها وشفافيتها !



(٢٤)

خرج جاسر من سجن الجبس إلى مرحلة تعلم المشى كطفل أخضر العود . كان كل رعبه ألا يستطيع الرقص مرة أخرى برغم طمأنة الطبيب له بأنه سيعود إلى كامل لياقته بمجرد انتهاء مرحلة العلاج الطبيعى . ومع ذلك صهرته المحنة وأخرجت أنقى ما فى معدنه ! تراجعت نرجسيته ليتحول حبه لذاته إلى حب للفن فى حد ذاته ! وكم كانت سعادته بنجاح الفرقة فى مواصلة عروضها فى غيابه ؟! صحيح أن الإيرادات لم تكن على المستوى السابق للمحنة ، لكنها كانت كافية لمواصلة المسيرة .

كان نهبا لشتى المشاعر المتدفقة والمتعارضة : الخوف من أن يعجز عن أدائه السابق ، والفرح بمواصلة الفرقة لعروضها ، والإصرار على كشف سر زمزم ، وحسم موضوع فاطمة التى تلاشت، هى الأخرى من حياته مثل زمزم ! لكنه شعر أنه أصبح أكثر صلابة ، وأطول صبرا ، وأشد وعيا ! فمن يعش أشهر القيظ كلها فى سجن الجبس سواء على فراش المستشفى أو البيت دون انهيار أو تمزق ، ثم يخرج منه مع طلائع نسمات الخريف الحانية ، لابد أن يصبح كمن ولد من جديد !

عندما سمح له بالخروج من البيت قرر أن يذهب إلى بيت عم صالح . فالمحنة التى مر بها لم تقض على الشىء الغامض الذى تركته زمزم فى أعماقه ، فلن يهدأ له بال إلا إذا عرف أبعاده وأعماقه على وجه التحديد ! فالأمر لا يمكن أن يمر بهذه البساطة ! فإذا كانت ناهد قد رفضت أن تكون لعبة فى يد أى رجل فهل يرضى هو أن يكون لعبة فى يد أية امرأة حتى لو كانت زمزم ؟ ولا خوف عليه فى ذهابه هذه المرة ، فقد اكتسب مناعة ضد الخوف والقلق تجاه فتاة لا يعرف أصلها

ولا فصلها ومع ذلك ترك نفسه نهبا لحب الاستطلاع والإصرار على فضح الأسرار !

دخل البيت وصعد على الدرجات الخشبية بخطوات متأنية ليدق على الباب الذى سرعان ما فتح عن رجل كهل لابد أنه عم صالح ، فهو لم يره من قبل سوى للحظات خاطفة يوم قابل زمزم فى المسرح لأول مرة . سأله بأدب شديد :

ـــ حضرتك عم صالح ؟!

ـــ نعم يا بنى .. أى خدمة ؟!

تضايق جاسر للهجة الرسمية المتحفظة :

ـــ أنا جاسر دهب !

بدا عليه كأنه تعرف عليه :

ـــ أهلا وسهلا بالفنان العظيم !

مد يده بالسلام الحار ثم جذبه إلى الداخل فارتاح جاسر لهذا الترحيب الحار ! جلس فى المضيفة فى حين وقف عم صالح على بابها يطلب صنع كوبين من الشاى الثقيل . كانت نظرات جاسر الثاقبة كالصقر تتجول خارج الباب لعلها تلمح أثرا لزمزم ، لكن الرجل عاد ليجلس أمامه :

ـــ خطوة عزيزة !

ـــ الله يعز مقدارك !! حمدا لله على السلامة ! جئت لأزوركم من قبل فعلمت أنكم سافرتم إلى النوبة !!

ـــ لابد أن هذا كان منذ وقت طويل .. فقد عدنا إلى هنا فى يونيو هربا من هجير الصيف ! خيرا إن شاء الله !!

ـــ أتذكر يا عمى يوم شرفتنى فى المسرح ؟!

بدا عليه أنه يحاول التذكر ثم قال فجأة :

ـــ كان ذلك منذ مدة طويلة أيضا !! نعم أتذكر .. كان عرضا فى منتهى

الجمال .. أصبح الناس يستمتعون بالفن النوبى مثل أى فن آخر !! والبركة فيك !

ـــ وكان الشرف مضاعفاً بحضور الآنسة زمزم معكم!!

قطب ما بين حاجبيه :

ـــ الآنسة زمزم ؟! زمزم من ؟!

ـــ زمزم ابنة حضرتك !

ـــ ليس لى بنات وإن كنت أود أن يرزقنى الله بواحدة .. لكن الحمد لله والشكر له على كل حال .. فلى ابن يعمل فى فندق نيو كاتاراكت بأسوان .. والابن الآخر فى فندق فلسطين الذى افتتحوه أخيرا فى الإسكندرية .. أى أن عائلتنا تسيطر على القطر المصرى من أوله لآخره !

ـــ ما اسم ابنك الذى يعمل فى فندق نيو كاتاراكت ؟ لابد أننى قابلته أثناء عملى هناك ! فقد عملت فى أسوان والأقصر !

ـــ اسمه جمال ويعمل فى غرفة غسيل الملاءات والملابس !

ـــ عملت أناجرسونا فى كافتيريا الروف لكن الحال لم يعجبنى فعدت إلى كلابشة لأساعد أبى فى مزرعته !!

ـــ هكذا حال الفنانين ! لا يرضون بالوظائف المتواضعة !!

حاول جاهدا أن يعيد الحديث إلى مجراه الذى حدده من قبل :

ـــ لكننى رأيت الآنسة زمزم مع حضرتك فى المسرح ؟! كانت جالسة إلى جوارك فى الصف الأول .. وبعد انتهاء العرض تبادلنا الحديث !!

كان صالح على وشك أن يفتح فمه لكن زوجته دخلت مرحبة وهى تحمل كوبى الشاى على صينية من الخوص والخشب وضعتها على المائدة الصغيرة وخرجت . تبادلا رشف الشاى ليقطع جاسر الصمت :

ـــ من أى بلد يا عمى ؟!

ــ عائلتنا لها فروع فى قرطاسى وطافة وبيت الوالى وكلابشة ودندور وجرف حسين !!

لم يستطع جاسر سوى أن يقول بصوت مسموع :

ــ نفس كلمات زمزم !

ــ ما حكاية زمزم هذه يا بنى ؟!

كان على وشك أن يقص عليه قصتها معه من الألف للياء ، لكنه أدرك أن الكهل قد سد الطريق أمامه بإنكاره المطلق لوجودها . ولا يمكن فتح الطريق إلا بدهاء وخبث من نوع جديد ! سأله فجأة وهو ينتهى من كوب الشاى :

ــ هل تعتقد يا عمى فى الجن والعفاريت والأشباح ؟!

ابتسم صالح ابتسامة بلا معنى محدد :

ــ جعل الله كلامنا خفيفا عليهم .. سمعت عنهم .. لكننى لم أمر بتجربة شخصية معهم !!

ــ صدق أو لا تصدق يا عمى .. فبصرف النظر عن معرفتك بزمزم هذه .. أو إنكارك لوجودها .. أو أنها غير موجودة على الإطلاق .. فقد اعتادت أن تأتى إلى المسرح كل ليلة تقريبا .. وبعد نهاية العرض كنت أقوم بتوصيلها إلى باب بيتك .. فقد قالت لى إنك أبوها .. وكانت تدخل البيت بالفعل وتختفى .. كانت تغلق الباب خلفها !!

ضحك بلا مبالاة واضحة للغاية :

ــ لم أعرف أن لى ابنة من الجن ! الحمد لله أن زوجتى ليست معنا الآن وإلا رأيت ما لا يحمد عقباه !

لم يشاركه الضحك بل واصل حديثه المتصاعد فى الجدية :

ــ كيف كان لى أن أعرف اسم حضرتك وعنوانك بدونها ؟!

تردد قليلا ثم قال :

— ليست عندى أدنى فكرة عن الموضوع الذى تتكلم عنه ! ربما وقعت ضحية محتالة ؟!

— لم تأخذ منى شيئا سوى خاتم وجاكت !! أما هى فقد منحتنى كل شيء دون انتظار لأى مقابل !!

ضغط جاسر على « منحتنى كل شيء » لعله يستفز الكهل عندما يصل الأمر إلى المساس بالشرف والعرض ، لكنه واصل حديثه بنفس الهدوء المميت الذى لاحظه فى زمزم من قبل :

— لا يفعل هذا سوى أهل العالم السفلى ! ربما تكون « مخاويا » دون أن تدرى ؟! فالشرف عندهم مسألة ليست فى حسبانهم !

— هذا كلام فارغ لا أومن به !

— عليك إذاً .. أن تبحث عنها سواء فى القاهرة أو فى النوبة !!

— قلبى يحدثنى أنها سافرت إلى النوبة منذ مايو الماضى .. فكثيرا ما قالت لى إنها ستذهب مع أسرتها لإلقاء النظرة الأخيرة على النوبة قبل غرقها !!

ابتسم الكهل فى خبث :

— ولابد أنها قالت لك إنها ستسافر معنا بصفتنا أسرتها ؟!

— قالت هذا فعلا .. وليلة سفركم التى لم أكن على علم بها .. قمت بتوصيلها إلى هنا .. على أمل أن ألقاك غداً لطلب يدها .. لكن الشقة كانت مغلقة لسفر أصحابها إلى النوبة !

ضرب الكهل كفا بكف :

— هل بلغ الأمر درجة الخطبة والزواج ؟!

قرر جاسر أن يلقى بقنبلة فى وجه الكهل لعلها تقتلعه من جذوره الراسخة وتفرغ كل ما فى بطنه من أسرار :

— هل تعلم يا عمى أنها كانت حاملا فى الشهر الثالث ؟!

لم تهتز له شعرة بل سأله ونظراته تسعى لتعريته من الداخل :

ــ ألست متزوجا يا بنى ؟!

ــ نعم ..

ــ أليس حراما أن تفعل ما فعلته معها وأنت على ذمة امرأة أخرى ؟!

ــ كان قصدى شريفا .. كنت أنوى الزواج منها .. والدليل على ذلك وجودى هنا !!

ــ وهل كانت أفضل من زوجتك ؟!

ــ لم يكن لزوجتى وجود حقيقى فى حياتى .. فى حين كانت زمزم كل شىء !

ــ وهل تنوى تطليق زوجتك أم الاحتفاظ بها ؟!

دهش جاسر لأسئلة الكهل المنهمرة عليه لكنه سايره فى تحرياته لعله يخرج من عنده ولو ببصيص ضوء خافت ينير له كهف الأسرار المغلقة الذى ألقت به زمزم فيه :

ــ وهل زمزم موجودة حقا .. حتى أطلق زوجتى ؟!

ــ فلنفترض أنك وجدتها !

ــ هل تساعدنى فى البحث عنها ؟!

ــ قلت « فلنفترض » !

ــ لو وجدتها .. سأخير زوجتى بين الطلاق والحياة مع ضرة !!

ــ يا بنى .. إن كيدهن عظيم .. كيف تحمل على كاهلك امرأتين .. وواحدة تكفى لكسر الظهر ؟!

ــ الزواج ليس قضيتى الآن .. هناك أسئلة لابد أن أجد إجابة عنها . وإلا جننت !

ــ وقتك أثمن من كل هذا ! أحضر زوجتك لترعاك حتى تتفرغ لفنك وجمهورك !

اكتشف جاسر ثغرة ضيقة فى قلعة الخصم فأطلق سهما متسائلا :

— وكيف علمت يا عمى أن زوجتى ليست هنا .. وعلىّ أن أحضرها ؟!

تلعثم الكهل قليلا ثم استدرك متسائلا بدوره :

— ألم تقل ليس لها وجود حقيقى فى حياتك ؟!

— يمكن أن تكون معى تحت سقف واحد بدون وجود حقيقى لها !!

— هذا ما فهمته ! أما إذا كانت تعيش معك بالفعل هنا .. فلا حجة لك ! حرام أن تضيع وقتك فى أوهام !

— ليتها كانت كذلك !! ما جرى حقائق أقوى من الوقائع !

ثم كان على وشك أن يقص عليه نبأ الكارثة التى ألمت به يوم دهمته عربة النقل العملاقة ، لكنه لم يجد طائلا من وراء هذا ! نهض وهو يمد يده بالسلام :

— شكرا يا عمى على أية حال !

صافحه الكهل بحرارة :

— كان بودى أن أساعدك فى مسعاك .. لكن العين بصيرة واليد قصيرة .. هناك أمور لا يمكن للإنسان فيها أن يعتمد على الآخرين !! خاصة إذا كان يرى فيها قدره الذى لا فكاك منه .. فلن يحسمه أحد سواه !



أعلن قائد الطائرة فى الميكروفون أنها على وشك الهبوط فى مطار أسوان وعلى الركاب ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين .

ــ فلتشهدى يا أسوان وأنت يا كلابشة بعودة ابنك راكبا طائرة لأن وقته أثمن من أن يضيع فى القطار حتى لو كان منعما بين علية القوم فى عربات النوم المكيفة ! وهو الذى سافر فى فبراير قبل الماضى فى عربة من عربات الدرجة الثالثة لا تعرف نوافذها سوى الانفتاح الدائم على كل زوابع الأتربة والرمال ، وسحابات الدخان والبخار ، وهجير الشمس المحرقة ، وصقيع الليالى الحالكة ، وندى الفجر الوليد ! تعالى اشهدى يا كلابشة لترى من كان يجلس إلى جوار ابنك أو أمامه أو خلفه ! فهى وجوه مألوفة على صفحات الصحف والمجلات وشاشات السينما والتليفزيون ! ووجهه لا يقل ألفة عنها !

تسارعت دقات قلب جاسر والطائرة تتهادى فوق مبانى أسوان التى بدأت قسماتها تتضح . كانت السعادة المتبقية معه منذ الليلة الماضية تشيع بالتفاؤل والبشر فى أرجاء نفسه . فقد شهد حفل قران ناهد وحياها برقصة أعادت إليه ثقته فى قدرته على الأداء القديم . كانت فرحة أعضاء الفرقة به يفوق فرحتهم بزفاف ناهد لدرجة أن الأستاذ على كوبان مال على أذنه باسما :

ــ العريس الحقيقى هو أنت !

وبرغم أنهم ظلوا فى الحفل حتى ساعة متأخرة من الليل ، فإنهم بادروا جميعا برابطة المعلم لتوديعه فى المطار عند الفجر داعين له أن يعود إليهم بالسلامة بأسرع ما يمكن . وكان قد حدد لمهمته أسبوعا لا أكثر ، فقد أدرك أن حنينه لفنه قد فاق

تطلعه لمعرفة أحوال فاطمة وشوقه لفض أسرار زمزم !

لامست الطائرة بعجلاتها الممر لتطويه طيا ثم هدأت من سرعتها وأصبحت تتهادى تبعا لعلمين أحمرين كان يحركهما مرشد عند نهاية الممر فى مواجهة المطار . وانتظم الركاب فى الممر بين المقاعد ليهبطوا من الباب الذى فتح مع أصوات متفرقة من الطاقم بحمد الله على السلامة .

فى لحظات كان جاسر يستقل سيارة أجرة منطلقا إلى مرسى المراكب . كان قد قرر أن يمسح البلاد التى ذكرتها زمزم وصالح فى رحلته النيلية تباعا حتى كلابشة ثم دندور وجرف حسين . فإذا عاد بخفى حنين فعليه أن يحسم موضوع فاطمة ليسرع بالعودة إلى جمهوره الحبيب فى القاهرة والذى يموت شوقا إليه . ولن تكون مهمته صعبة إذ أن كل بلد من هذه البلاد تكاد تكون أسرة واحدة ، تحصى كل حركة أو سكنة لأى فرد من أفرادها .

كانت رحلة لها العجب ! عرف أسطورة إيزيس فى صباه وهى تبحث عن أشلاء زوجها أوزيريس بطول الوادى حتى تعيد جمعها . ومن دموعها الغزيرة حزنا عليه نبعت مياه النيل وتدفقت لتشق الوادى وتبعث الحياة على جانبيه كما بعث أوزيريس مرة أخرى . لكنه هذه المرة يقوم بدور أوزيريس بحثا عن إيزيس التى تلاشت تماما وفقد الأمل فى العثور على أية أشلاء لها . ومع ذلك يواصل البحث لعله ينجح فى إطفاء الشعلة المتقدة داخله والتى تكاد تحرقه بلهيبها !

استقل المركب وقد تدفقت عليه سخونة النوبة بخواطر وذكريات كأمواج النيل المتراقصة حول جنبات المركب . فى بلدة قرطاسى وجد امرأتين باسم زمزم : إحداهما تجاوزت الثمانين والأخرى عروس تم عقد زفافها منذ أسبوع ونصحوه بعدم الاقتراب منها أو الحديث عنها برغم حجته التى تذرع بها بأنه يؤدى خدمة عائلية لأبيها الذى يعيش فى القاهرة والذى أعطاه أوصافها فى طفولتها حين تاهت ، لعله يعثر عليها ، إذ أن كل هذه السنوات الطويلة لم تفقده الأمل

فى العثور عليها . كان عريس زمزم هذه مشتعلا بالغيرة عليها ولا يطيق أن يرد مجرد ذكر اسمها على لسان أى رجل كان !

وأقنع جاسر نفسه بأنها حتى لو كانت هى فقد تزوجت بطريقة أو بأخرى ولا داعى للبحث عن المتاعب . فكرامته واسمه ومكانته أثمن من أية امرأة يمكن أن توضع فى الكفة المقابلة ، خاصة وأنه لم يدفع زمزم أو يغريها أو يخدعها لتتورط معه ، بل بدا الأمر كله وكأنه من تخطيطها تحت ستار من الغموض والحيرة وربما الخداع ! لكن لماذا كل هذا التخطيط ، إذا كان حقيقيا ، فهذا هو السؤال الذى يكاد يقتله شوقا إلى الإجابة عنه ؟!

وفى طافة سأل عن زمزم بمجرد أن وضع قدمه على البر ، فأشاروا إلى جنازة كانت سائرة على الضفة الغربية فى طريقها إلى المقابر . سقط قلبه من بين ضلوعه حتى استقر فى قاع قدميه . قالوا له إنها شابة جميلة كانت تعيش مع زوجها فى القاهرة ، وعندما حملت منه لم تجد من يرعاها خاصة بعد الولادة فعادت إلى طافة لتعيش فى كنف أبيها وأمها ، لكن ولادتها كانت متعسرة فمات طفلها وهى فى أعقابه !

سار جاسر فى الموكب الحزين بين عويل الندابات الصاخب ودموع الرجال الصامتة ، فلم يتمالك سوى أن يترك للدموع العنان لتهبط على خديه مدراراً !! معظم الشواهد قالت إنها هى ، وتشير إليه بأنه القاتل ! فى الطريق إلى المقابر تحت هجير الشمس التقط شذرات من المعلومات لعله يشفى غليله فعرف أن اسمها زمزم عثمان مما يؤكد كلام عم صالح بأنه ليس أباها ! هل كذبت عليهم وادعت أنها عادت لتلد ابنها من زوجها الذى تزوجته فى القاهرة هربا من انتقام أسرتها لشرفها ؟!

لم يستطع جاسر أن يواصل إلقاء أسئلته حتى لا يثير الظنون والشكوك ، فتابع الموضوع عن قرب ! حضر العزاء فى المساء ضمن المعزين الذين قبعوا على المقاعد

المجدولة من السعف والمرصوصة على الرصيف الكبير أمام البيت دون أن يفكر فى المكان الذى سيبيت فيه ليلته !! كان كله آذانا مصغية للكلمات المسموعة والمهموسة التى أغرقته فى قاع بئر مظلمة من الحيرة التى عجز عن أن ينتشل نفسه منها ! حتى حجته بأنه جاء رسولا من أبيها للبحث عنها ضاعت أدراج الرياح التى تهب فى حنو دون إثارة دوامات من التراب ، فقد كان أبوها شخصيا جالسا فى مقدمة المعزين ، لكنه نطق بجملة كانت بمثابة قطرة ماء باردة على لسان جاسر الذى تشقق من الجفاف والقلق والحيرة . قال :

— سيصل زوجها غدا صباحا !!

كان جاسر على وشك أن يسأل أباها عما إذا كان يعرف عم صالح ، لكن وجود زوج لها بالفعل سيؤكد له إنها ليست زمزم التى عرفها فى القاهرة ، زمزم التى لم يمسها رجل من قبل !

كان المعزون ينظرون إليه من حين لآخر فظن أنهم عرفوا فيه الفنان المشهور جاسر ، لكنه سرعان ما أدرك أنه غريب فى أعينهم ، حتى حقيبته الصغيرة القابعة إلى جوار مقعده لم تسلم من نظراتهم الثاقبة ! وطالما أنه ثبت لديه أن زمزم هذه متزوجة فلا داعى للتورط أكثر من هذا ، فلا يعقل أن يكون هذا الرجل الوقور كاذبا هو الآخر !

نهض ليطفئ بريق الاستطلاع والاستفسار فى عيونهم ، ضاغطا على أيديهم فى عجلة مفاجئة كأنه تذكر شيئاً ! وقبل أن يفتحوا أفواههم بكلمة أو بهمسة كان قد انتهى من واجب العزاء ليبتلعه الظلام !

قضى ليلته جالسا نائما على مستطيل حجرى على ضفة النيل أمام مرسى المراكب . كانت ليلة حالكة السواد برغم شهرة سماء النوبة التى تتألق فيها النجوم حتى فى غياب القمر . تأمل جاسر القبة الرهيبة فلم يجد سوى نجوم قليلة تومض فى الأبعاد السحيقة ولا تلتقطها سوى العين الحادة . رثى لحاله ونقم على نفسه

إذ كيف للفنان الشهير جاسر أن ينام ليلة فى العراء فى انتظار مركب الصباح ليقله إلى بلدة بيت الوالى ليواصل البحث عن مخلوقة تكاد تصبح فى نظره وهمية ؟! لماذا لا يعتبرها إحدى نزواته القديمة العابرة ويلتفت بعدها لفنه الذى حقق له من المجد والشهرة ما لم يكن يحلم به ؟! هل استيقظ ضميره فجأة بعد طول موات ؟! عموما لم يتبق أمامه سوى كلابشة ودندور وجرف حسين بعد بيت الوالى التى سيستقل المركب إليها صباح الغد .

فى بيت الوالى عرف أنهم لا يطلقون اسم زمزم على بناتهم حتى لا تلقى مصير زمزم التى قتلها أهلها وألقوها فى النهر .. وظلت تتربص بكل السائرين ليلا .. فتبدو لهم فى صورة امرأة عارية خارجة من النهر .. كانت امرأة سيئة السمعة وقد تحولت بعد مصرعها إلى شيطان يطبق على السائرين بقذائف الحجارة من كل صوب وحدب !

بلغ المركب مرسى كلابشة فغرق جاسر فى دوامة من المشاعر المتلاطمة لم تفاجئه من قبل بهذه الحدة والضراوة ! كان يتصور أنه سيستقبل استقبال الفاتحين الغزاة لكنه لمح فى كلابشة ما لمحه فى البلاد التى مر بها . كانت بيوت كثيرة مغلقة أو مهجورة بعد أن بدأت رحلات الهجرة إلى الشمال حيث النوبة الجديدة فى كوم أمبو وإسنا ، إذ لم يتبق على تحويل مجرى النيل والطوفان الكبير الذى سيغرق النوبة القديمة إلى الأبد سوى بضعة شهور !

كانت شمس الأصيل قد خرجت من خدرها لتصبغ البلدة بصفرة الكركم . وسرت فى أعطافها نسمات حانية من الكآبة والرضوخ لتصاريف القدر . فليس من السهل على الإنسان أن يرى أرض آبائه وأجداده فى انتظار الطوفان الذى سيغرقها إلى الأبد ويهز كتفيه بلا مبالاة ! بل إن بعض العجائز تصور أن ما سيجرى على النوبة لابد أن يكون نتيجة لعصيان أو شر كامن فى مكان سحيق ولابد من التكفير عنه إلى الأبد ! فلا يعقل أن ينحسر الطوفان فى عهد سيدنا نوح

وتعود الأرض إلى نمائها وازدهارها ، والسائمة إلى المراعى الخضر ، والطيور إلى أعشاشها حيث الحنان المغرد ، بعد أن أغرق البسيطة كلها ، فى حين يغرق الطوفان كل بلاد النوبة من فيلة إلى ما بعد وادى حلفا ، إلى الأبد ، وبلا أى أمل فى ظهور الحمامة التى أطلقها سيدنا نوح لتعود إليه فى فلكه وفى منقارها فرع أخضر من الأرض التى انحسر عنها الطوفان !

فى كلابشة بالذات احتار جاسر فى البحث عن نقطة يبدأ منها البحث عن زمزم ! فلا يعقل أن يعود إلى بلده وزوجته كى يبحث عن فتاة غامضة اسمها زمزم بعد غياب كاد يقترب من العامين ؟! خاصة وأنه لا يعلم كيف ستسير الأمور بينه وبين زوجته التى كان ينوى هجرها إلى الأبد كما يهجر أهالى النوبة بلادهم الآن !

تذكر شالوية فجأة ! إنها تعرف أهالى كلابشة فرداً فرداً ، بل إن أسرارهم فى أدق دقائقها لا تخفى عليها ! ولذلك قرر أن يكون بيتها أول بيت يدخله فى كلابشة بعد عودته ، وتمنى ألا تكون قد هاجرت أو ماتت ! كان شوقه إلى أبيه وأمه جارفا ومع ذلك كبته بين جوانحه ، فهناك مسائل لابد أن تحسم قبل جيشان العواطف والمشاعر ، وهو واثق من أنه لو بدأ بأسرته وزوجته فلن يفعل شيئا مما يسعى إليه وربما حلت الحسرة محل الحيرة !

دق دقات متتابعة على باب شالوية فلم يرد أحد . تذكر يوم دق على باب عم صالح دون جدوى حتى كاد أن يجن ! انتابته موجة عارمة من الكآبة فلم يستطع أن يرد السلام بنفس حرارة الذين رأوه واحتضنوه فرحين بعودته أمام باب شالوية ، فانطفأ حماسهم ظنا منهم أن شهرته جعلته ينظر إليهم من عل ، فى حين مر به رجل مسن ليسرع مبتعداً وكأنه رأى شبحاً !!

نظر جاسر حوله فوجد الشارع شبه مهجور : رجل ينحرف يساراً ويختفى ، وعجوز تكاد تتعثر فى عباءتها التى تلامس تراب الطريق . اجتاحته وحشة لم يشعر

بمثلها فى القاهرة . أعاد الدقات فسمع صوتا من الداخل :

ـــ من ؟!

ـــ افتحى يا خالة شالوية .. أنا جاسر !

فتح الباب لتنظر شالوية بعينيها الكليلتين إلى أعلى . حاولت أن تقيم ظهرها المنحنى لكنه أسرع ليسلم عليها بحرارة وقد أحنى قامته :

ـــ أهلا يا جاسر .. عاش من شافك !

ثم جذبته إلى الداخل وهى تنظر يمنة ويسرة إلى الطريق . أغلقت الباب لتجلسه على أول مقعد وترابط أمامه :

ـــ متى أتيت ؟!

ـــ منذ لحظات !

ـــ فيك الخير ! ألم تذهب إلى أسرتك بعد ؟!

ـــ ليس بعد !

أخرج المنديل من جيبه ليمسح عرقه والتراب العالق به ، فسلطت نظراتها على يده وهى تخرج من جيب البنطلون الجينز :

ـــ لم تعد تلبس جلباب النوبة ؟!

أدرك جاسر أنها ظنت أن يده ستخرج بمبلغ من المال كما عودها فلم يشأ أن يخيب ظنها ! دس يده مرة أخرى وأخرج مبلغا من المال سرعان ما امتدت يدها لتأخذه قائلة :

ـــ لم تنس خالتك شالوية ! بارك الله فيك !

ـــ لك وحشة كبير يا خالة شالوية ! وما أخبار البلد ؟!

ـــ أخبار البلد أم أخبار الأسرة ؟!

ـــ فلنبدأ بالسؤال عن بنت اسمها زمزم !! فأنت تعرفين كل بنات البلد ؟!

حاولت أن تتذكر متسائلة بنظرات شاردة :

— زمزم ؟! لا أعرف بنتا بهذا الاسم !!

— حاولى أن تتذكرى !

— لا توجد بنت فى البلد بهذا الاسم .. فهم يخافون من هذا الاسم !! لابد أنك تعرف حكاية زمزم !!

شرد بذهنه للحظات فومض حب الاستطلاع فى عينيها الخابيتين ووضعت عصاها جانبا :

— ما حكاية زمزم هذه ؟! قصة حب جديدة ؟!

أعاد على مسامعها قصة أبيها الذى كلفه بالبحث عنها عند ذهابه إلى النوبة لعله يجدها . سألته فى دهشة :

— هل عدت لتبحث عن زمزم هذه أو لتتقصى أخبار فاطمة ؟!

نسى زمزم تماما لتتربع فاطمة على ذهنه القلق :

— هل هناك أخبار غير عادية ؟!

— يبدو أنك خالى الذهن تماما عما جرى لها !!

نضحت اللهفة على سطح نبراته :

— ماذا جرى لها ؟! أرسلت لها تلغرافا كى تجىء إلى مصر وتعيش معى هناك فلم يصلنى أى رد .. فظننت أنها لا تزال على عنادها فقررت أن أهملها تماما !! هل أصابها أى مكروه ؟!

صمتت العجوز للحظات وهى ترقبه من فوق أنفها المعقوف ، وتهرش شعرها الخشن بأصابعها النحيلة . أمسك بذراعيها وأوشك يهزها :

— قولى ماذا جرى لها ؟!

— حلمك علىّ يا بنى .. لست حمل يديك !!

ترك ذراعيها وهو على وشك أن يقبل يديها :

— أرجوك يا خالة !!

ــ لا أعرف من أين أبدأ ؟!

ــ إذا لم تتكلمى سأخطف رجلى إلى هناك !!

ــ ما سأقوله صعب ومر !!

ــ هل ماتت ؟!

ــ ليتها ماتت !

صرخ دون وعى :

ــ هل هناك ما هو أسوأ من الموت ؟!

فتحت شفتيها الرقيقتين الجافتين :

ــ فليسامحنى الله .. عموما إذا لم تعرف منى فستعرف من غيرى !!

شعر جاسر بجحافل جرارة من النمل تزحف على أطرافه وتتوغل فى خلايا مخه فلم يتكلم فى انتظار حكم الإعدام ! خرجت السهام المسمومة من بين شفتيها الجافتين :

ــ بعد سفرك زاولت فاطمة حياتها العادية .. كانت تذهب إلى السوق .. وتستقبل صديقاتها .. وفجأة اختفت فظن الجميع أن عم إدريس عاد لسجنها مرة أخرى لسبب أو لآخر .. فليسامحنى الله .. فأنا لا أقول إلا ما يعرفه الجميع !!

صمتت لتجتر لعابها الجاف فلهج لسانه من حلق مشروخ :

ــ وماذا جرى بعد ذلك ؟!

ــ لم نرها لمدة عام .. وصرف الناس النظر عنها .. فقد سئموا حكاية اختفائها وظهورها ثم اختفائها .. وكأن لا شغلة ولا مشغلة لهم سواها !!

ــ وماذا بعد ؟!

ــ وبعد عام .. عادت إلى الظهور مرة أخرى .. ولكن كعادتها القديمة .. فى الفجر عند الساقية إياها .. وقد لاحظ البعض تكور بطنها .. وكان أبوها قد غاب فى دندور لمدة شهرين لصناعة ثلاث سواق هناك .. ويبدو أن أمها قد

أحضرت قابلة فى السر لتوليدها .. فقد سمع بعض المارة بكاء طفل أكثر من مرة من خلف خصاص النافذة !!

— وهل عاد عم إدريس ؟!

— عاد منذ أسبوعين !

— وماذا فعل ؟!

— يبدو أن الرجل أصيب بلوثة فى عقله .. فقد بدا مبتسما وسعيدا للغاية .. ويقابل الناس بترحاب شديد !!

— ماذا عن أبى .. ألم يفعل شيئاً ؟!

— بعد سفرك ساءت العلاقات بينهما .. لدرجة القطيعة التى استمرت حتى الآن برغم جهود أولاد الحلال وأنا منهم !!

— هل تعتقدين أن فاطمة حملت سفاحاً وفشلوا فى إجهاضها ؟!

— فليسامحنى الله !! فهذا هو كل ما أعرف !! لكن أرجوك يابنى لا تتهور فى لحظة تفقد فيها كل شىء !!

استرد جاسر أنفاسه الضائعة فى قاع رئتيه فنهض وهو يربت على كتف العجوز :

— لا تخافى يا خالة شالوية .. فقد تعلمت فى مصر أشياء كثيرة !!

سار نحو الباب وفتحه ليفاجأ بعم إدريس رافعا يده وكأنه على وشك أن يدق على الباب . دون أدنى تفكير قال جاسر :

— كيف عرفت أنى هنا ؟!

لم يكتم إدريس رنة السخرية فى كلماته :

— جئت أسأل عن الخالة شالوية مثلك تماما !!

— أنا جاد تماما !!

— أخبار وصولك انتشرت فى البلد كالبرق .. لكننا آخر من علم !!

كانت شالوية تتابع الموقف خلف جاسر الذى جذبه إدريس من ذراعه :

ــ هيا بنا من هنا !

سار خطوات لكنه انتزع ذراعه منه :

ــ أصحيح ما سمعته من شالوية ؟!

نظر إدريس خلفه فوجد شالوية لا تزال بالباب . تحاشى أن تسمع كلماته :

ــ لا يهمنى ما قالته لك هذه المرأة طالما أنك ستعرف كل شىء ؟!

ــ وهل هناك أشياء أخرى لا تعرفها شالوية ؟!

ــ شالوية لا تعرف شيئاً .. وكذلك الأهالى !!

ــ وهل يمكن أن يكونوا كلهم كاذبين ؟!

ــ هناك فرق بين الجهل والكذب !

كان إدريس يتكلم بثقة عجيبة فى حين توقع جاسر أن يكون أمامه مثل ريشة فى مهب الرياح ! سارا سويا وجاسر يرد التحيات الحارة من المارة المتناثرين هنا وهناك بطريقة آلية إذ انصب كل تفكيره على ما تحمله اللحظات القادمة من مفاجآت لا يمكن التنبؤ بها . لم يستطع أن يحتمل وطأة القلق :

ــ هل صحيح أن فاطمة ولدت طفلا ؟!

ــ لن أجيب عن أى سؤال حتى ترى بنفسك !! ولك أن تفعل بعد ذلك ما تشاء حتى لو ذبحتها ذبح الشاة !!

ــ لست همجيا يا عمى ! وإلا ما الحكمة من الطلاق !!

ــ كم تغيرت يا جاسر ! أين الطيش والاندفاع والتهور ؟!

ــ تعلمت فى مصر فى شهور معدودة ما كان من المستحيل تعلمه طول عمرى هنا !!

بلغا الربوة التى يقع عليها المنزل العتيد ! كانت دارية واقفة بالباب ومشاعر القلق والخوف بل والرعب تنساب مع دموع عينيها ! مد جاسر يده بسلام آلى

برغم ترحيبها الحار به مع كلماتها :

ــ لك وحشة كبيرة يا جاسر !! أدخل زوجتك فى انتظارك على أحر من جمر !!

ردد كلماتها بسخرية متسائلة :

ــ على أحر من جمر ؟!

ــ نعم !

ثم أخرجت من بين طيات ثوبها سكينا لامعة وقدمتها إليه :

ــ شرفك فى الحفظ والصون يا جاسر .. وإذا شككت لحظة واحدة فى هذا .. ففى يدك السكين لتغسل عارك !!

دفع يدها بالسكين فى ضيق :

ــ السكين ليست الحل !

صاح إدريس فى وجهها :

ــ أفسحى له الطريق !

تراجعت إلى الخلف وهى تشير إلى باب مغلق لم يستطع أن يكتم بكاء طفل وليد ! اندفع جاسر كالمسعور ليفتح الباب وليرى مالا يراه النائم فى أشد أحلامه غرابة !! لهج لسانه بهمس كالفحيح :

ــ مستحيل !! مستحيل !!

كاد أن يضرب وجهه بقبضة يده حتى يؤكد لنفسه أنه لا يخطو على أرض الأحلام !! هل يعقل أن يكون ما يراه رؤية العين حقيقة واقعة أو واقعا حقيقيا ؟!

كانت فاطمة فى جلستها على حافة الفراش تنظر إليه باسمة وقد ارتدت الجاكت الذى يحاكى السماء فى زرقتها وصفائها ، وحول إصبعها الخاتم الذى نقشت عليه الكف الفضية الصغيرة ، وبين أحضانها طفل وليد يحاكى ملامح أبيه فى دقتها وحدتها !!

ـــ زمزم ؟! زمزم ؟!

كررها كمن يرى جنية فى الجزيرة المسحورة لكنها أعادته إلى أرض الواقع :

ـــ بل فاطمة ؟! زمزم انتهت منذ اللحظة التى وضعت فيها قدمها فى القطار العائد من القاهرة إلى أسوان !!

ـــ كيف حدث هذا ؟! كنت أظن أن ذكائى قمة لا يصل إليها أحد !!

ـــ هل ستظل واقفا هكذا ؟! تعال اجلس بجوارى !!

ذهب إليها كالمنوم لينفذ كلمتها فقدمت إليه الطفل الذى احتواه بين ذراعيه :

ـــ اسمه دهب .. على اسم أبيك !!

رفعه وقبله فانطلقت ضحكات البراءة التى لم تحتمل خشونة ذقن الأب فتحولت إلى بكاء لكن الأب هدهده فسكن إليه وإلى نظراته التى تحولت إلى ينابيع من الحنان . سألته فاطمة :

ـــ هل زهدت فى معرفة تفاصيل ما جرى ؟!

داعب الطفل قائلا لها :

ـــ أكاد أموت شوقا لها !

ـــ بعد سفرك .. انتابنى شعور كئيب أوحى إلىّ بأن زوجى وحبيبى قد تسرب من حياتى كما تتسرب المياه من بين أصابعى !! ولا يعقل أن يترك الإنسان حياته تضيع هكذا لمجرد عناد طفولى .. جن جنونى و لم أعرف النوم حتى تفتق ذهنى عن خطة أصر أبى على رفضها .. لكنه رضخ أخيرا بعد أن أخذت صحتى فى الانهيار !! واضطر إلى اصطحابى إلى القاهرة حيث عشت مع عم صالح ابن خال ماما .. تعلمت اللهجة المصرية بقدر الإمكان فى أيام معدودات .. وقمت بقص شعرى على طريقة الألاجارسون .. وارتديت أزياء بنات القاهرة !!

قاطعها جاسر مداعبا :

ـــ وطبعا كان من السهل أن تنقشى وشم الشامة على خدك إمعانا فى الخداع

والتضليل !!

ضحكت :

ــ طبعاً !!

ــ ومع ذلك أكدت لك مراراً أنك فاطمة .. لكننى لم أجد منك سوى الإصرار على أنك زمزم ! لماذا كل هذا اللف والدوران وقد أرسلت إليك تلغرافا لتحضرى بصفتك فاطمة ؟!

ــ لو حضرت بهذه الصفة .. لحكم علىّ بمواصلة الاستجداء إلى الأبد !! كما أننى كنت فى القاهرة عند إرسالك للتلغراف .. كان لابد من بداية جديدة لحياتنا بعد أن أفسدت البداية القديمة كل شيء !!

ــ لم تكن هذه البداية تعنى سوى خيانتى لك مع امرأة أخرى ؟!

ــ كان أهون علىّ أن تخوننى مع نفسى من أن تخوننى مع امرأة مثل ناهد .. ومع ذلك لم ولن أنسى فضل زمزم علىّ .. فقد استطاعت أن تعيدك إلى فاطمة التى عذبتها وهجرتها بلا ذنب جنته .. فكما رحلت كان عليك أن تعود من تلقاء نفسك !

ــ كى أكفر عما ارتكبته فى حقك ؟! ألا تعلمين أننى يوم ذهبت إلى بيت عم صالح لطلب يدك وعلمت بسفركم إلى النوبة .. دهمتنى سيارة نقل ضخمة .. فحطمت ساقى وضلوع صدرى .. ومكثت فى الجبس أربعة أشهر !!

كان دهب قد نام فى حضن أبيه الذى احتوته زوجته وهى تخلع خاتمه من يدها لتضعه فى إصبعه :

ــ يوم عودتى إلى النوبة .. انتابتنى نوبة فظيعة من الكآبة .. عندما تذكرت أننى جردتك من الخاتم الذى يحافظ عليك من كل شر .. لكننى كنت خائفة ألا تصدقنى !! كنت فى حاجة إلى دليل مادى !! ومع ذلك كنت فى أشد الضيق عندما فرطت فيه لمجرد أن زمزم ألحت على أخذه !

ـــ لم أكن أعرف رأسى من رجلى !!

ـــ وهل لا زلت فى هذه الحيرة ؟!

ـــ الآن اتضحت الأمور فى عينى كشمس النوبة المبهرة !! وغدا سوف نرحل إلى القاهرة .. إلى عش حبنا الذى عشت مع لحظاته حياة لا تنسى حتى بعد رحيلك وأنا سجين الجبس !!

ـــ هكذا بهذه السرعة ؟!

ـــ لم تعد لنا حياة هنا ! بل لم تعد هنا حياة لكل أهلنا وبلادنا التى سيبتلعها الطوفان بعد شهور معدودة !!

أدخلت دارية رأسها من فتحة الباب الموارب لتقول فى ابتهاج :

ـــ العشاء جاهز احتفالا بعودتك الميمونة سالماً غانماً ؟!

ردت فاطمة بصوت لا يخلو من شجن :

ـــ بل قولى احتفالاً برحيلنا غداً إلى القاهرة !!

جاء صوت إدريس من وراء الباب :

ـــ هكذا كتب علينا أن نفترق دائما !

نهض جاسر وفى أحضانه وليده المستغرق فى النوم :

ـــ لن نقضى الوقت فى البكاء على الأطلال .. فأنا أموت شوقا إلى الطعام النوبى !

أفسحت دارية الباب ليخرج وقد تعلقت فاطمة بذراعه . جلس أربعتهم حول المائدة المستديرة المجدولة بالخوص والتى تربعت عليها أطباق الإتر التى فاحت منها رائحة الشمر والكسبرة الخضراء .. وأطباق الدجاج وبعض السمك .. ومربى البلح .. وأرغفة النابنزى والشدى والألبود .. وأكواب الشاى الساخن .. لم يجدوا كلمات ليتبادلوها برغم خضم الأفكار والخواطر والهواجس التى أغرقت وجدانهم ، فانهمكوا فى التهام الطعام ، لكن نظراتهم المتبادلة كانت مشحونة

بوميض عجزت الألسنة عن التعبير عنه !

قام إدريس ليفتح نافذة المضيفة التى تسللت منها بقايا أشعة المغيب فأضاءت الجدران بلون أرجوانى انعكس على الوجوه السمراء والعيون السوداء بوميض منبثق من أساطير النوبة ! كانت الشمس الحانية تتمسح بأجنحتها الأرجوانية بالتلال والروابى والصخور والمعابد والضفاف والبيوت والأزقة والشوارع والأسواق وقد عز عليها أن تودعها الوداع الأخير !

« تمت »

★ ★ ★

رقم الإيداع ٩٣/١٠٧٧٧
الترقيم الدولى : 9 - 0837 - 11 - 977